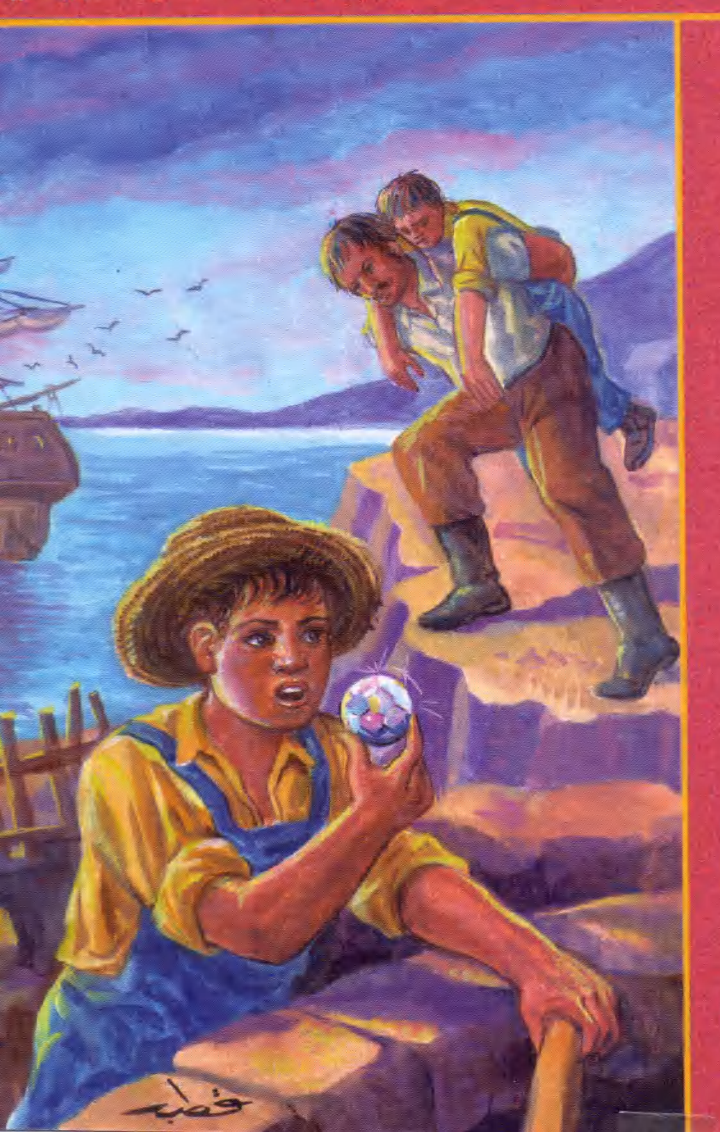
الطبعة الرابعة

للناشئين والشباب

روائـــع الأدب العالمي 5

في كبســولة

عرض وتبسيط: مختار السويفي



- مون فليت
- عناقيد الغضب
- الجمال الأسود
- مزرعة الحيوان
- سنوحي
- قطعة من الحبل
- الحــربـاء
- حكاية شتـاء

مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي في كبسولة 5

لازالت مكتبة الدار العربية للكتاب تحتفي بكاتبها الكبير الراحل الأستاذ مختار السويفي، فتتوالى إصداراتها من روائع الأدب العالمي، معترفة له بذلك الفضل السبّاق في فتح نوافذ مطلة باتساع ومقدرة أمام هذه الأجيال على أجمل ما أبدع الأدب العالمي في تشكيلته الإنسانية الزاخرة بالعطاء، لكل البشر، في كل زمان، وفي كل مكان...

ها نحن في هذا الجزء - مع الراحل الكبير مختار السويفي - نرتاد أيكة الإبداع، بكل مافيها من ثمار يانعة وقطوف دانية، نكتشف أسرار هذا الإبداع ومكامنه في:

* مون فليت .. للأديب والشاعر الإنجليزي جون ميد فوكنر.
* عناقيد الغضب .. للأديب الأمريكي الحائز على جائزة نوبل جون شتاينبك.
* الجمال الأسود .. للأديبة الإنجليزية أنّا سويل.
* مزرعة الحيوان .. للأديب الإنجليزي الشهير جورج أورويل.
* سنوحي .. من الأدب المصري الفرعوني القديم.
* قطعة من الحبل .. للأديب الفرنسي الشهير جي دي موباسان.
* الحرباء .. للأديب الروسي العظيم أنطون تشيكوف.
* حكاية شتاء .. للشاعر والكاتب المسرحي العظيم وليم شيكسبير.

مع أطيب رجائنا بقضاء وقت ممتع مع هذه الأعمال الأدبية الراقية.



مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمى ٥

فى كبسولة

للناشئين والشباب

٥

روائع الأدب العالمى

فى كبسولة

عرض وتبسيط : مختار السويفى

■ مون فليت ..
■ عناقيد الغضب ..
■ الجمال الأسود ..
■ مزرعة الحيوان ..
■ سنوحى ..
■ قطعة من الحبل ..
■ الحرباء ..
■ حكاية شتاء ..

الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202+

فاكس: 23909618 202+ - ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 2002 / 11082

الترقيم الدولى : 9 - 141 - 293 - 977

الطبعة الثانية : شوال 1425هـ - ديسمبر 2004م

الطبعة الثالثة : جماد آخر 1428هـ - يوليو 2007م

الطبعة الرابعة: ذو الحجة 1433هـ - نوفمبر 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

إهـــداء ...

إلى حبيبة الروح ..

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتي هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

مقدمة

بدأت فكرة إصدار سلسلة « روائع الأدب العالمى فى كبسولة » بناء على طلب من الأستاذ الأديب « عبد الوهاب مطاوع » مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة « الشباب » التى تصدرها مؤسسة الأهرام . . أن أقدم عرضًا وتبسيطًا للأعمال الأدبية العالمية المقررة على الطلبة من الناشئين والشباب فى مراحل التعليم المختلفة من إعدادية وثانوية وجامعية . . وذلك ليكون نشر هذا العرض والتبسيط فى مجلة « الشباب » عونًا لهم فى تفهم تلك الأعمال الأدبية بطريقة مبسطة تساعدهم على تفهم النص الكامل المقرر عليهم فى مراحلهم التعليمية .

وقد أسفرت تلك التجربة عن نتيجة تجاوزت ما كنا نهدف إليه ، فقد أصبحت سلسلة « روائع الأدب العالمى فى كبسولة » من المواد التحريرية التى يقبل عليها قراء مجلة الشباب بمختلف مراحلهم العمرية ، بالإضافة إلى القراء من الطلبة الذين نشرت هذه المواد من أجلهم . . كذلك فقد كتب بعض نقاد الأدب فى بعض الصحف والمجلات يطالبوننى بألا يقتصر الأمر

على تقديم الأعمال الأدبية الروائية المقررة على المراحل التعليمية بالمدارس والجامعات ، وأن استمر فى تقديم الأعمال الروائية العالمية الشهيرة بصرف النظر عن المقررات التعليمية . . وذلك باعتبار هذه الأعمال الأدبية من أهم عناصر « الثقافة العامة » التى يجب أن يتزود بها الناشئون والشباب والكبار على حد سواء .

وهكذا فقد بذلت كل ما أملك من جهد فى عرض وتبسيط مجموعة كبيرة من أشهر الأعمال الأدبية القصصية والروائية الذائعة الصيت فى أرجاء العالم أجمع ، والتى أبدعها كبار الكتاب والأدباء من القدماء والمحدثين من ذوى الشهرة العريضة فى تاريخ الأدب العالمى .

ومما لا شك فيه أن هذه الأعمال الأدبية التى يزخر بها التراث الإنسانى من الأدب العالمى ، تعتبر من ركائز الثقافة العامة التى يتميز بها قراء الأدب ومحبّوه ، مهما اختلفت جنسياتهم ومواقع مواطنهم فى أرجاء المعمورة الواسعة . . ولذلك فقد انتشرت هذه الأعمال فى أرجاء العالم من أقصاها إلى أقصاها، وترجمت هذه الأعمال إلى عشرات من اللغات التى تتكلمها الشعوب المختلفة فى عالم اليوم .

ولم يكن من الغريب أن معظم هذه الأعمال الأدبية التى كتبت منذ مئات أو عشرات السنين مازالت حية حتى اليوم ، ومازالت محل اهتمام قراء الكتب . . ومازالت أيضًا من الموضوعات المحببة التى تعرض على خشبات المسرح وشاشات السينما ومسلسلات التليفزيون . . وذلك لما تتضمنه من قيم

وعبر ومثل عليا ، وحكايات وأحداث وشخصيات يستمد منها الإنسان حكمة الحياة ، أو يقضى معها وقتًا حافلاً بالسرور يسهم فى تخفيف أعباء الحياة ومسئولياتها الجسام .

ولعل هذا هو الدافع الذى شجعنى على تقديم هذه الأعمال الأدبية العالمية فى هذا الشكل المبسط ، آملاً فى تعريف القراء من الناشئين والشباب بهذا اللون العظيم من الأدب العالمى ، حتى تتاح لهم الفرص فى المستقبل لقراءة هذه الأعمال كاملة فى نصها الأصلى .

أما المنهج الذى التزمت به فى عرض وتبسيط هذه الأعمال الأدبية العالمية ، فهو اختصارها بطريقة دقيقة لا تخل بموضوعاتها ، ولا تفوّت القيم والعبر التى يرد ذكرها فى تلك الأعمال ، مع عدم إغفال روح الكاتب الأصلى وأسلوبه الأدبى الذى تميز به .

وانطلاقًا من اقتناعى التام بأن « الكتاب » هو الوسيلة المثلى والخالدة فى تثقيف العقول وتهذيب النفوس بما يتيحه لقارئه من معارف ومعلومات يتميز بها عن الذين لا يقرأون ، أو عن الذين انقطعت الأسباب بينهم وبين الكتب، أو عن الذين يقرأون كتبًا غاب الضمير عن مؤلفيها وناشريها ، فملأوها بموضوعات تافهة وخرافات ممجوجة تفسد العقول وتقتل وقت الناس . . فالكتاب فى رأيى هو خير صديق للإنسان . . وكما هو الحال بين الأصدقاء ، هناك صديق صالح ومصلح ، وصديق طالح ليس وراءه إلا الفساد . . فهناك كتب تفيد قارئها وتثريه ، وكتب أخرى قد تجر الضرر إن لم يكن لها نفع على الإطلاق .

وبالإضافة إلى إيمانى الشديد بأن الناشئين والشباب هم أمل أمتنا وطلائع نهضتها ، وهم عماد المستقبل وصنّاعه ، فمنهم سيخرج من يتولى زمام الأمور فى الحكم والسياسة والاقتصاد والعلم والدين . . وسيكون منهم الأدباء والحكماء والفلاسفة والمهندسون والمحاسبون والأطباء والمعلمون والعاملون فى كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية بمختلف أنواعها ومستوياتها .

لذلك فقد رأيت أن أقوم بتجميع هذه الأعمال الأدبية القصصية والروائية فى شكل سلسلة من الكتب لتوسيع دائرة المستفيدين من قراء الأدب العالمى . . وقد رحب المسئولون « بمكتبة الدار العربية للكتاب » بتبنى هذا المشروع الضخم ، فأصدروا أربعة أجزاء من هذه السلسلة بالإضافة إلى هذا الجزء الخامس . . وبفضل الله فقد نجحت هذه السلسلة ، سواء فى مصر أو فى معظم الدول العربية ، ونفدت طبعاتها الأولى تباعًا ، الأمر الذى دفع دار النشر إلى إعادة إصدارها فى طبعات ثانية وثالثة .

وفى النهاية أود أن أذكّر القارئ الكريم بعناوين الأعمال الأدبية القصصية والروائية العالمية التى تضمنها كل جزء من الأجزاء الخمسة ، بالإضافة إلى أسماء الكتاب والأدباء العالميين الذى أبدعوا تلك الأعمال .

وعشمى كبير فى أن يسعد القارئ الكريم بقراءة هذه الروائع الشهيرة من الأدب العالمى .

الجزء الأول :

١ ـ حول العالم فى ثمانين يومًا . .	جول فيرن
٢ ـ دكتور جيكل ومستر هايد . .	روبرت لويس ستيفنسون
٣ ـ سجين زندا . .	أنتونى هوب
٤ ـ اللؤلؤة . .	جون شتاينبك
٥ ـ الآمال الكبرى . .	تشارلس ديكنز
٦ ـ حكاية مدينتين . .	تشارلس ديكنز
٧ ـ دافيد كوبر فيلد . .	تشارلس ديكنز
٨ ـ أوقات عصيبة . .	تشارلس ديكنز
٩ ـ الملك لير . .	وليم شيكسبير
١٠ ـ حلم ليلة صيف . .	وليم شيكسبير
١١ ـ الليلة الثانية عشرة . .	وليم شيكسبير
١٢ ـ ماكبث . .	وليم شيكسبير

الجزء الثانى :

١ ـ كنوز الملك سليمان . .	هنرى رايدر هاجارد
٢ ـ ثورة على السفينة بونتى . .	وليم بلاى

٣ ـ أوليفر تويست . .	تشارلس ديكنز
٤ ـ الرجل الخفى . .	هـ . ج . ويلز
٥ ـ توم سوير . .	مارك توين
٦ ـ كبرياء وتحامل . .	جين أوستن
٧ ـ روميو وجولييت . .	وليم شيكسبير
٨ ـ تاجر البندقية . .	وليم شيكسبير
٩ ـ كما تحب . .	وليم شيكسبير

الجزء الثالث :

١ ـ جزيرة الكنز . .	روبرت لويس ستيفنسون
٢ ـ الكونت دى مونت كريستو . .	ألكسندر دوماس
٣ ـ الملاح وجزيرة العجائب . .	مؤلف مصرى قديم
٤ ـ روبنسون كروزو . .	دانييل ديفو
٥ ـ رجال عظام ونساء عظيمات . .	ليزلى ليفيت
٦ ـ الفضيلة « بول وفرجينى » . .	برناردين دى سان بيير
٧ ـ ضجيج بلا مبرر . .	وليم شيكسبير
٨ ـ هاملت أمير الدنمارك . .	وليم شيكسبير

الجزء الرابع :

١ ـ رجل لكل العصور . .	روبرت بولت
٢ ـ الشيخان . .	د. طه حسين .
٣ ـ سالومى «النص الأوبرالى» . .	أوسكار وايلد
٤ ـ ثلاثة رجال فى قارب . .	جيروم ك. جيروم
٥ ـ نداء البرارى . .	جاك لندن
٦ ـ ترويض الشرسة . .	وليم شيكسبير
٧ ـ العاصفة . .	وليم شيكسبير
٨ ـ عطيل . .	وليم شيكسبير

الجزء الخامس :

١ ـ مون فليت . .	جون ميد فوكنر
٢ ـ عناقيد الغضب . .	جون شتاينبك
٣ ـ الجمال الأسود . .	أنّا سويل
٤ ـ مزرعة الحيوان . .	جورج أورويل
٥ ـ سنوحى . .	مؤلف مصرى قديم
٦ ـ قطعة من الحبل	جى دى موباسان
٧ ـ الحرباء . .	أنطون تشيكوف
٨ ـ حكاية شتاء . .	وليم شيكسبير

وكما يرى القارىء الكريم فقد تضمن هذا الجزء الخامس من « روائع الأدب العالمى فى كبسولة » مجموعة من الروايات العالمية والقصص القصيرة ذات الشهرة العريضة فى الأدب العالمى .

● ويبدأ هذا الجزء بعرض وتبسيط لرواية « مون فليت » .. وهى رواية تتكرر كثيرًا فى المناهج التعليمية خصوصًا فى المراحل الإعدادية والثانوية ، على أساس أن بطلها « جون ترنشارد » - وهو صبى يتيم الأبوين وفى الخامسة عشرة من عمره - قد أتاحت له الظروف أثناء حياته فى قرية « مون فليت » أن يقيم بمجموعة من المغامرات الخطيرة .

ومن الطريف أن أذكر هنا أن هذه الرواية كانت مقررة علينا ونحن تلاميذ فى آخر عام دراسى بالمرحلة الابتدائية خلال فترة الأربعينيات من القرن العشرين .. وكنا نلهث ونكتم أنفاسنا ونحن نتتبع فصول الرواية التى تحكى لنا المغامرات التى قام بها « جون ترنشارد » مغامرة وراء أخرى.. وأذكر أن أحد التلاميذ قد انخرط فى البكاء ، حين انغلقت مقبرة «عائلة الموهون» على بطل الرواية ، وظل محبوسًا بها إلى أن تم إنقاذه من هذا السجن المظلم .. وأذكر أيضًا ما أصابنا من قلق حين نزل «جون» إلى بئر القلعة ، ليبحث عن الجوهرة المفقودة إلى أن عثر عليها فى نهاية الأمر .. وهكذا تجاوبنا مع أحداث هذه الرواية المثيرة حتى انتهت بنهايتها السعيدة التى كنا نتمناها .

● أما رواية « عناقيد الغضب » فقد ذكّرتنى بفيلم سينمائى شهير يحمل نفس العنوان شاهدته منذ أكثر من ثلاثين عامًا . . وكان هذا الفيلم يشكل صدمة لكل من شاهده . . فمن المعروف لدى الناس جميعًا فى جميع أنحاء العالم أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أغنى دولة فى العالم كله . . ويتصور الناس أن المواطن الأمريكى لديه من الدولارات ما يملأ جيوبه ويكفى كل احتياجاته من مأكل وملبس ومسكن ، ويعيش حياة رغدة لا يحرم فيها من شىء . . ولا يتصور أحد من غير الأمريكيين وجود ملايين من الأمريكيين أنفسهم عاطلين عن العمل ولا يجدون لقمة من الخبز يقدمونها لأبنائهم الذين يموت مئات الآلاف منهم من شدة الجوع .

وقد وقعت أحداث تلك الرواية خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين حين حلت بأمريكا أزمة اقتصادية خانقة كادت أن تؤدى إلى إفلاس الدولة بعد أن أفلست معظم البنوك .

وتحكى لنا الرواية قصة حياة عائلة فقيرة من المزارعين الصغار كانت تعيش فى ولاية أوكلاهوما فى الجانب الشرقى من قارة أمريكا الشمالية . . فقد فقدت هذه العائلة أرضها وأصبح رجالها بلا عمل وغير قادرين على توفير الطعام الذى يسد جوع أطفال العائلة .

وهكذا اضطرت العائلة إلى الهجرة من ولاية أوكلاهوما إلى ولاية كاليفورنيا فى أقصى غرب الولايات المتحدة بحثًا عن العمل فى جنى المحاصيل الزراعية . . وتعرضت أثناء قيامها بتلك الرحلة الطويلة إلى كل أنواع المهانة والإذلال

من جانب الأثرياء من أصحاب الأراضى الزراعية ، وعانت من سوء الأحوال الجوية إلى جانب ما كانت تعانيه من الجوع والعطش . . وأترك للقارىء التعرف بنفسه على مصير تلك العائلة فى نهاية الأمر .

● ولا شك فى أن القارئ يعرف أن كتاب « كليلة ودمنة » يعتبر من درر التراث فى الأدب العربى . . وهو كتاب يحكى على ألسنة بعض الطيور والحيوانات قصصًا ومواقف نستمد منها الحكمة والموعظة الحسنة والدعوة إلى العدل وكراهية الظلم . وكتاب « كليلة ودمنة » فى حقيقة الأمر ليس من أصل عربى ، بل ترجع أصوله إلى الأدب الهندى المكتوب باللغة «السنسكريتية» . . ثم تمت ترجمته إلى اللغة « الفارسية » وعن هذه اللغة قام «عبد الله بن المقفع » بترجمته إلى اللغة العربية . . وبحكم الزمن فقد اندثرت أصول الكتاب المكتوبة باللغتين الهندية والفارسية وبقيت الترجمة العربية التى قام بها « ابن المقفع » حيث ترجمت فيما بعد إلى أكثر من ثلاثين لغة من اللغات المتداولة فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد تأثر بعض الأدباء العالميين بمنهج كتاب « كليلة ودمنة » فنسجوا على منواله قصصًا وروايات أدبية كتبوها على ألسنة العديد من الحيوانات أو الطيور بقصد تكريس الحِكم والمواعظ أو نقد أنظمة الحُكم والمواقف السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ومن هذه الروايات الأدبية التى تأثرت بمنهج « كليلة ودمنة » وحازت شهرة عريضة فى الأدب العالمى ، اخترت روايتين من أشهر الروايات المكتوبة

بألسنة الطيور أو الحيوانات ، وهما رواية « الجمال الأسود » ورواية «مزرعة الحيوان» .

أما الرواية الأولى فهى من تأليف الأديبة الإنجليزية « أنّا سويل » التى تعتبر من أشهر كتاب الأطفال والناشئين فى خلال القرن التاسع عشر ، وتعتبر رواية « الجمال الأسود » من أشهر أعمالها الأدبية ، فقد كتبتها بلسان حصان جميل ذى شعر أسود ، يحكى فيها قصة حياته منذ أن كان طفلاً . . وكيف تنقلت ملكيته بين ملاّك طيبين كانوا يعاملونه معاملة حسنة ، وملاّك آخرين غلاظ القلوب كانوا يعاملونه بطريقة سيئة خشنة ويلهبون ظهره بالسياط . . وقد اعتبرت هذه الرواية صرخة مدوية للمناداة بانشاء جميعات الرفق بالحيوان .

أما الرواية الثانية « مزرعة الحيوان » فهى من تأليف الأديب الإنجليزى الشهير « جورج أورويل » وتحكى لنا قصة مجموعة من الحيوانات قامت بثورة ضد صاحب المزرعة واستولت على المزرعة وأقامت نظام حكم ثوريا يسخر فيه المؤلف من كل نظم الحكم الديكتاتورية والنازية . . وتعتبر هذه الرواية من أشهر الروايات الخيالية ذات المغزى السياسى .

● أما بقية القصص والروايات التى تضمنها هذا الجزء الخامس من «روائع الأدب العالم فى كبسولة» فهى رواية « سنوحى » التى يعتبرها نقاد ومؤرخو الأدب من أقدم الروايات فى أدب الرحلات ، حيث كتبها أديب مصرى قديم مجهول ، ويرجع تاريخها إلى أكثر من أربعة آلاف سنة .

وذلك بالإضافة إلى مجموعة من أشهر القصص القصيرة التى يذخر بها الأدب العالمى والتى كتبها أشهر الأدباء العالميين من فرنسيين وانجليز وروس .

وعشمى كبير فى أن تحظى هذه الأعمال الأدبية العالمية بإعجاب القارئ الكريم .

مع أطيب تمنياتى لكم جميعًا بدوام النجاح والتوفيق ، ،

مختار السويفى

كورنيش النيل - القاهرة

فى ٣٠ مارس ٢٠٠٢م

ج . ميد فوكنر

مون فليت

MOONFLEET
BY : JOHN MEADE FALKNER

تقع قرية « مون فليت » على الضفة الغربية لنهر « فليت » وبالقرب من شاطىء البحر . . وكنت أظن أن القرية قد سميت باسم « مون فليت » لأن القمر يتلألأ نوره فوق سطح النهر . . ولكنى علمت فيما بعد أن الاسم الحقيقى لهذه القرية هو « موهون فليت » وقد تحرف هذا الاسم وأصبح مون فليت .

أما كلمة « موهون » فهى إسم لعائلة كبيرة كانت تحكم الإقليم الذى تقع فيه القرية .

وأنا اسمى « جـون ترنشارد » . . وكان عمـرى خمسة عشـر عامًا حين بـدأت هذه القصـة . . وأنا يتيم الأبـوين ، ولذلك فقـد كنت أعيش مع خالتى « مس أرنولد » . وقـد بدأت أحداث هذه القصة فى شتاء عام ١٧٥٧ . . حين كنت أقـرأ قصـة « علاء الدين والمصباح السحرى » وكيـف أغلق عليه الساحر باب الكهف لأن علاء الدين رفض أن يعطيه المصباح السحـرى .

وشعرت بالخوف حين تخيلت انى محبوس فى حجرة ضيقة مغلقة مثل

علاء الدين ، لذلك فقد توقفت عن القراءة وخرجت إلى الشارع . وعندما مررت بالقرب من بيت « راتسى » حفار القبور ، رأيته وهو يعد شاهدًا لقبر رسم عليه سفينتين متحاربتين وتحتهما هذه الكلمات : «دافيد بلوك . . عمره ١٥ سنة . . قتل بطلقة نارية أطلقتها السفينة إلكتور فى ٢١ يونيو ١٧٥٧ » .

وكان « دافيد » المسكين حديث جميع أهل القرية ، فهو الإبن الوحيد لصاحب حانة « هواى نوت » إلزفير بلوك .

وحين شاهدنى « راتسى » نادى على وقال : أهلاً بك يا جون . . تعال لتحمل لى المصباح حتى انتهى من إعداد هذا الشاهد !

● فى ذلك الزمن ، كان على التجار الذين يستوردون أى نوع من البضائع إلى انجلترا ، أن يدفعوا ضرائب باهظة لخزانة الملك . . ولذلك فقد ظهرت مجموعات من المهربين الذين يهربون البضائع إلى البلاد دون أن يدفعوا الضرائب المفروضة . . وكان هؤلاء المهربون يقتربون بسفنهم إلى بعض الشواطىء الخالية ويقومون بإنزال ما يحملونه من صناديق وبراميل إلى البر . ولذلك فقد اضطر الملك إلى تكوين مجموعة من رجال الضرائب لمهاجمة هؤلاء المهربين والقبض عليهم .

وكان « إلزفير » واحدًا من هؤلاء المهربين . . وكانت إحدى السفينتين اللتين رسمهما « راتسى » على شاهد قبر « دافيد » تابعة لرجال الضرائب ، بينما كانت السفينة الثانية تابعة للمهربين .

ويقال ان « المستر ماسكيو » الذى يملك أراض واسعة هو الذى أبلغ رجال الضرائب بوجود سفينة المهربين ، وكان على ظهر سفينة رجال الضرائب حين قتل « دافيد » ابن « إلزفير » .

وقال لى « راتسى » وهو ينظر إلى الشاهد الذى انتهى من إعداده : من المحزن أن يقتل غلام وهو فى هذه السن . . ويقولون إن المهربين الثلاثة الذين تم القبض عليهم سيعدمون شنقًا . . وعلى أية حال . . هيا بنا نذهب إلى حانة « هواى نوت » لأن « إلزفير » فى حزن شديد ، ويحتاج إلى من يواسيه .

وذهبت معه إلى الحانة وأنا متأكد من أن خالتى ستغضب إذا علمت بأنى ذهبت إلى حانة « هواى نوت » .

كان « إلزفير » جالسًا بالقرب من المدفأة ، وحين رآنى قال لراتسى : لماذا أحضرت هذا الطفل إلى هنا . . ؟

فقال راتسى : إن « جون » ليس طفلاً . . انه فى عمر ابنك «دافيد» ولقد ساعدنى فى إنهاء نقش الشاهد الذى سنضعه على قبر « دافيد » .

فقال « إلزفير » بصوت حزين متوعد : نعم . . سيرقد دافيد بسلام . . أما الذين قتلوه فلن يعرفوا السلام أبدًا !

واعتقد انه كان يقصد « مستر ماسكيو » بهذا التهديد . .

وجلس « راتسى » بجوار « إلزفير » وأخذا يتحدثان فى بعض الموضوعات . ثم نظر « إلزفير » نحوى وقال : لقد حان الوقت لتنصرف أيها

الغلام . . إن « ذا اللحية السوداء » يتجول فى المساء . . ولا اعتقد انك تريد أن تقابله !

● كان « ذو اللحية السوداء » هذا أحد أفراد عائلة « موهون » وقد مات من زمن طويل ودفن فى المقابر التابعة للكنيسة . . ويقول أهل القرية إنه لم يكن مستريحًا فى قبره ، لأنه فقد جوهرة ثمينة قبل موته ويخرج شبحه من القبر كل مساء ليواصل البحث عن تلك الجوهرة . ولذلك فقد كان الناس يخشون الاقتراب من المقابر بعد غروب الشمس حتى لا يقابلوا « ذا اللحية السوداء » . ويقال إن رجلاً اسمه « كراكى جونس » وجد مقتولاً ذات صباح بعد أن تقابل مع «ذى اللحية السوداء» أثناء الليل .

ومن المعروف أن « ذا اللحية السوداء » اسمه الحقيقى هو « جون موهون » . . وانه كان يعمل مأمورًا للسجن الذى سجن فيه الملك «شارل الأول» . . وكان هذا الملك يتزين بجوهرة ثمينة عبارة عن قطعة ضخمة من الماس . وعرض « جون موهون » على الملك أن يساعده فى الهرب من السجن إذا أعطاه هذه الجوهرة ، فقبل الملك هذا العرض وأعطاه الجوهرة . . ولكن ما أن شرع الملك فى الهرب حتى لحق به « جون موهون » وقبض عليه وأعاده إلى السجن مرة أخرى .

وسرعان ما اكتشف أمر تلك الخدعة الدنيئة ، فتم القبض على «جون موهون» وألقوه فى السجن ، ولكنه استطاع الهرب وقام باخفاء الجوهرة فى مكان ما .

ويقـول الناس إنـه لم يستطع العثـور على الجوهرة بعـد ذلك . . ولهذا السبب فإن شبحه يخـرج من مقبرته كل مساء ليواصل البحـث عن الجوهرة المفقـودة .

وبالرغم من أنى أعرف تلك القصة ، فقد كنت أحب الذهاب إلى منطقة المقابر حتى أتمتع بمشاهدة البحر . . ولكنى كنت أنصرف قبل أن يحل الليل . . ومع ذلك فقد شاهدت فى إحدى المرات ضوء مصباح يتحرك فى منطقة المقابر أثناء الليل !

* * *

مـرت عـدة أيـام على زيارتى الأولى لحانـة « هواى نوت » . . وهطلت أمطار غزيرة وفاض النهـر على الجانبين وغطت المياه معظم الطرقات . . وفى فتـرة بعد الظهـر ، كنت أسير مـع « راتسى » فى الطـريق الذى يخترق منطقه المقابر لأنه كان أفضل الطرق الصالحة للوصول إلى القرية .

وهناك تقابلنا مع « المسترجلينى» وسيدة عجوز اسمها « مسز تاكر » ووقفنا بجوار قبر مرتفع يبدو وكأنه على شكل منضدة وتحيط به شجرتان . . شجرة على كل جانب .

وامتد الحديث بينهم حتى أوشكت الشمس على المغيب . . ولذلك فقد انتابنى الخوف وأردت الإنصراف للعودة إلى بيتى . . وفجأة ، حدث شىء جعلنى أرتعد من شدة الخوف . . فقد سمعنا أصواتا صادرة من تحت أرض المقابر . وهنـا صاحت السـيدة العجـوز وهـى تسـرع بالفـرار : الموهـون يتحـركون !! . . الموهون سيخرجون من قبورهم !!

فقال « مستر جلينى » يالها من سيدة غبية . . كل ما فى الأمر أن مياه الأمطار قد تسربت إلى غرفة المقابر تحت الأرض فحركت التوابيت وجعلتها تتخابط فى بعضها !

● ولم أشعر بالارتياح والاطمئنان إلا بعد غادرت هذا المكان وعدت إلى البيت . . ولكن ذهنى ظل مشغولاً طول الوقت بحكاية « جون موهون » وجوهرته التى خبأها فى مكان مجهول . .

وبعد يومين ، قررت الذهاب إلى منطقة المقابر لعلى أسمع أصوات «الموهون» وهم يتحركون . . وقصدت القبر الضخم الذى يبدو كمنضدة بين شجرتين ، والذى كنا بجانبه حين سمعنا الأصوات الصادرة من تحت الأرض .

وهناك فوجئت بوجود «راتسى» و«الزفير» واقفين . . وكان «راتسى» يضع أذنه على جدار القبر كما لو كان ينصت إلى صوت ما . . ولاحظت أن «راتسى» قد اعتراه الغضب عندما رآنى ، فسألنى عن السبب فى حضورى إلى هذا المكان فى هذا الوقت ، فقلت له : لقد جئت لأسمع أصوات «الموهون» وهم يتحركون !

ولاحظت أن «راتسى» يحاول أن يجد مبرراً لكى يبعدنى . . ولذلك فقد قال لى : إن «الموهون» لا يتحركون . . ودعك من هذه الخرافات والاشاعات الغبية . . كل ما فى الأمر أن مياه الأمطار قد تسربت تحت الأحجار . . وهأنذا أقوم باصلاحها . . وعليك الآن أن تذهب إلى بيتى فى طريق

عودتك . . وأن تخبرهم بأنى سأتأخر فى العودة هذا المساء لأنى مشغول باصلاح أحد المقابر !

* * *

● أصبح هذا القبر الضخم المرتفع الذى يشبه المنضدة مكانى المفضل . . وكنت أجلس فوقه محتميا بظل الشجرتين وأتمتع بمشاهدة البحرِ والسفن الشراعية العابرة من بعيد .

وفى عصر أحد الأيام بينما كنت جالسا فوق القبر . لاحظت أن بعض الأتربة قد انهارت ، وتركت فجوة صغيرة تحت الكتلة الحجرية التى تسد مدخل القبر . واستجمعت شجاعتى وقررت الدخول إلى القبر . . وما أن لمست قدماى أرض القبر من الداخل حتى فوجئت بوجود ممر طويل . . وكان هذا اكتشافًا رائعا . . فقد اعتقدت أن هذا الممر سيؤدى إلى المكان الذى أخفى فيه ذو اللحية السوداء جوهرته الثمينة . . وتخيلت انى سأعثر عليها وأصبح من الأغنياء .

ولاحظت أن الهواء بداخل الممر لطيف ومتجدد . . ولهذا فقد سرت لمسافة طويلة إلى أن بدأ الضوء يخفت رويدا رويدا . . فشعرت بالخوف ، وقررت العودة إلى الخارج ، كما قررت الحضور فى اليوم التالى على أن تكون معى شمعة أستعين بضوئها .

* * *

● وعندما عدت إلى البيت، كانت خالتى تنتظرنى، وأخذت تؤنبنى على كثرة غيابى. . وبعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء، قرأت لى خالتى بعض القصص والحكايات عن المثل العليا والأولاد الصالحين الطيبين ذوى الأوصاف الحسنة . . غير أن ذهنى كان مشغولاً بأحلامى عن الجوهرة . . وصاحب اللحية السوداء، والممر السرى الذى اكتشفته، وعن الشمعة التى يجب أن آخذها معى عند عودتى إلى الممر.

● وعنـدما دخلت إلى حجـرة نومى . . رقـدت على السـرير وأنا بكامل ملابسى منتظـرا مـرور الوقـت حتـى أتأكد مـن أن خـالتـى قـد استغرقت فى النـوم .

وبعد وقت طويل ، قمت بهدوء وخلعت حذائى وحملته فى يدى، وتوجهت إلى غرفة الخزين وحصلت على شمعة كبيرة جيدة. . وتسللت إلى خارج البيت .

وواصلت السير فى ظلام الليل حتى وصلت أخيرًا إلى منطقة المقابر . . والحقيقة أنى بدأت أشعر بالخوف لأنى توقعت أن أرى صاحب اللحية السوداء ويقتلنى. . ولكنى لم أر أحدًا حتى وصلت إلى فتحة الممر. . وهناك ترددت قليلاً . .

وفى ضوء القمر رأيت قاربًا يرسو بالقرب من الشاطئ . . ورأيت إشارات بالنور الأزرق تنبعث من هذا القارب فى اتجاه الشاطئ . . وتأكدت عندئذ من أن هذا القارب يتبع بعض المهربين الذين يرسلون هذه الإشارات إلى زملاء لهم موجودين على الشاطئ .

ولم اهتم كثيرًا بهذا الأمر ، وعزمت على الدخول فورًا خلال الفتحة المؤدية إلى الممر السرى . . وسرت حوالى عشرين خطوة داخل الممر ، وعلى ضوء الشمعة رأيت بابا يؤدى إلى حجـرة وقلت لنفسى : ربما تكون هذه الحجـرة هى حجرة دفن التوابيت الخاصة بعائلة «الموهون» . . ودخلت إلى الحجرة لأعرف حقيقة الأمر.

وصدق ظنى . . فقد رأيت مجموعة من التوابيت مرصوصة بداخل فتحات فى جدران الحجرة . . إلا أننى اندهشت حين رأيت مجموعة كبيرة من الصناديق والبراميل مختلفة الأشكال والأحجام . . وعرفت على الفور انها بضائع مهربة. وكان هذا هو الاكتشاف الحقيقى. وأدركت أيضاً أن «راتسى» و«إلزفير» يعملان فى التهريب .

● عاودت التفكير فى موضوع الجوهرة الثمينة وكيفية العثور عليها . . ففى أى تابوت يا ترى أخفيت هذه الجوهرة؟ . . إن جميع هذه التوابيت متشابهة ولا توجد عليها أسماء أصحابها . . وفجأة، سمعت رنين جرس الكنيسة يعلن انتصاف الليل . . ثم سمعت أصوات رجال قادمين من بعيد، ويقتربون من حجرة التوابيت التى أقف فيها . . وتجمدت من شدة الخوف . . وكان لابد أن أختفى فوراً فى أى مكان بداخل تلك الحجرة . . ولاحظت وجود تابوت خشبى مدفون فى حفرة عميقة بجدار الحجرة ويعلو على أرضيتها بنحو مترين . . وأسرعت بالتسلق وأدخلت جسمى فى المساحة الضيقة التى تفصل التابوت عن جدار الحفرة .

وبـدأت أسمع أصوات الرجال بوضـوح وهم يتحدثون . . وسمعت صوت «راتسى» وهو يقول : سوف أسد الفتحة باحكام حتى لا يعلم أحـد بمكان وجودها . . وقال شخص آخـر : لقـد كنت فى بلدة «دور شستر» منذ أيام . . وسمعت أن المهربين الثلاثة الذين تم القبض عليهم سيعدمون شنقًا . . وعلمت أن «ماسكيو» كان هنـاك . . وانـه يصـر على إعـدام المهـربين .

وقال أحد الرجال : لو أنى رأيت «ماسكيو» هذا فسوف أقتله على الفور!

وهنا سمعت صوت «إلزفير» وهو يقول : دعوا أمر « ماسكيو » لى وحدى . . أنا الذى سأنتقم منه . . هل نسيتم انه قتل ابنى « دافيد » ؟!

وقال أحد الرجال : هناك صبى اسمه « جون ترنشارد » دأب على الجلوس فوق هذا القبر . . لقد رأيته عدة مرات وأخشى أن يكون هذا الصبى جاسوسًا علينا ، يراقبنا ويخبر « ماسكيو » بتحركاتنا .

وقال رجل آخـر : وأنا أيضًا لاحظت أن هذا الصبى يحوم كثيرًا حول بيت «ماسكيو» .

وكان هذا الرجل الأخير صادقًا فى قوله . . لأنى كنت أذهب لأجلس على سور حديقة بيت « ماسكيو » لعلى أمتع نظرى برؤية « جريس » ابنة «ماسكيو» التى وقعت فى حبها . . وأحيانًا كنت اقترب من نافذة حجرتها وألوح لها بيدى محييًا .

وهنا بدأ « راتسى » يتكلم فى صالحى وقال : إن « جون ترنشارد » هذا

ولد طيب . . وقـد أخبـرنى انـه يحب الذهاب إلى منطقـة المقـابر ليتمتـع برؤيـة البحـر !

واندهشت حين سمعت « إلزفير » يقول : انه ولد شجاع . . وكم أتمنى أن يكون إبنا لى !

ومن حديث هؤلاء الرجال تبين لى بسهولة أن « إلزفير » هو قائد هذه المجموعة من المهربين . . وأخيرًا سمعت أحد الرجال يقول : هيا بنا نذهب . . فقد تأخر الوقت . . وعلينا أن نعود الآن إلى السفينة .

* * *

● انصرف الرجال وخرجوا من الحجرة ، وسمعت وقع أقدامهم وهم يعبرون الممر ليخرجوا من الفتحة السرية . . وأصبحت وحدى فى تلك الحجرة المملوءة بتوابيت الموتى وصناديق وبراميل البضائع المهربة .

وبدأت أتحرك محاولاً الخروج من حفرة التابوت التى اختبأت فيها . . وكان الخروج من تلك الحفرة أصعب من الدخول إليها . . فقد كان على أن أهبط من ارتفاع الحفرة حتى تلمس قدماى أرض الحجرة . . وعندما تحركت لأشعل الشمعة التى كانت معى ، سقطت الشمعة من يدى وبدأت فى السقوط وراءها . . وعندئذ حاولت الإمساك بأى شىء يمنع سقوطى ، فأمسكت بالتابوت . . ولكنى فوجئت بأن خشب التابوت كان هشًا وتفتت فى يدى كالتراب . وفى النهاية سقطت على الأرض . . ولكنى أحسست بأننى أمسك شيئًا فى يدى !

وأشعلت الشمعة بعد أن عثرت عليها . . فتبين لى أن هذا الشيء الذى أمسكه فى يدى عبارة عن علبة صغيرة مصنوعة من الفضة التى يغطيها تراب الزمن . . ويبدو أنها كانت معلقة فى جثة « جون موهون » صاحب اللحية السوداء . . وتخيلت أنى قد عثرت على الجوهرة الثمينة .

وعندما فتحت العلبة ، فوجئت بأنها تحتوى على ورقة صغيرة عليها بعض الكتابات ، وعلى ضوء الشمعة قرأت الكلمات التالية :

قد يعيش الرجل **ثمانين** عامًا . .

يمشى **قدما** قدما تحت سيل الدموع . .

فاشرب من **بئر** السعادة

لأن الموت سيأتى من **جهة الشمال** أو الجنوب .

وبعد قراءة تلك الكلمات الفارغة . . شعرت باليأس والاحباط . . وكان على أن أعود إلى البيت قبل أن يظهر نور الصباح . واتجهت إلى المكان الذى توجد فيه فتحة الدخول والخروج ، وفوجئت بصدمة هائلة حين تبين لى أن الفتحة أصبحت مسدودة باتقان بحجر ثقيل تم تثبيته بالملاط !

وحاولت جاهدًا أن أزيل هذا الملاط ولكن بدون جدوى . . وبدأ نور الشمعة يتضاءل ويخبو رويدًا ثم اختفى نهائيًا وحل ظلام دامس . . ولم يكن هناك حل سوى أن انتظر حلول الصباح حيث يتسرب ضوء النهار من خلال الثقوب وكسرات الشقوق بين الأحجار . . ونظرًا لأنى أصبحت

أحس بقرصة الجوع وبشدة التعب والارهاق ، لذلك فقد جلست على الأرض واستغرقت فى النوم .

● وعندما استيقظت تبين لى أننى نمت طوال نهار كامل . . وكانت نتيجة ذلك مفاجأة محزنة ، فقد كان على أن أقضى ليلة أخرى سجينًا فى هذا القبر . . وبالرغم من هذا الاحساس باليأس ، فقد حاولت أن أخربش فى الملاط لأزيح الحجر عن الفتحة . . ولم أصل إلى نتيجة سوى أنى أجهدت نفسى وجرحت أصابعى . . ولذلك فقد بدأت أصيح مناديًا : يا «راتسى» . . يا « إلزفير » . . تعالوا وانقذونى من هذا السجن المظلم . . ولكن كل هذه النداءات ضاعت عبثًا . . ومن شدة التعب والارهاق واليأس ارتميت على الأرض مغشيًا على !

* * *

● عندما عدت إلى وعيى . . وجدت نفسى راقدًا فوق سرير نظيف . . فحاولت أن أقوم إلا أنى لم استطع وشعرت بأنى ضعيف جدًا ومريض جدًا . . وأحسست بأن هناك شيئًا معلقًا برقبتى . . وكان هذا الشيء هو العلبة الفضية التى كانت معلقة حول رقبة « جون موهون » صاحب اللحية السوداء والتى عثرت عليها أثناء وجودى بالمقبرة .

فى تلك اللحظة دخل « إلزفير » إلى الحجرة فصحت به : إلزفير . . انقذنى . . انقذنى أرجوك !

وتقدم إلزفير نحوى ووضع يده الحنون فوق رأسى . . وأعطانى كوبًا من

اللبن الساخن . . وأخبرنى بأنى الآن فى حانة «هواى نوت» . . وطلب منى أن أهدأ وأواصل النوم حتى يتم شفائي .

ومـرت نحـو عشرة أيام أو أكثـر حتـى شفيت تمـامًا واستعدت قـواى وصحتى . وكـان « مستر جلينى » هـو أول من لاحـظ تغيبـى عـن المدرسـة ، ولذلك فقـد ذهـب إلى بيت خـالتـى ليستفسـر عـن سبب غيـابـى . . فـأخبـرتـه خـالتـى بأنـى هـربـت مـن البيـت ولا تعـرف مكـانـى .

وبعد أن استعدت قواى ، ذهبت إلى بيت خالتى التى كانت غاضبة منى إلى أقصى حد . . وأخذت تكدرنى وتوجه إلى كلمات عنيفة قاسية . . وطـردتنى من بيتها وهى تقـول : إذهب إلى حيث كنت . . لعـل الحـانة تنفعـك !

وهكذا خرجت مطرودًا من البيت الوحيد الذى أوانى . . وذهبت إلى حانة «هـواى توت» وأخبـرت « إلزفيـر » بما جـرى . . فبـدا عليـه السـرور وقال بعطف : ليكن . . تعال وعش معى فى الحانة . . وستكون خيـر بديل لابنى «دافيـد» .

واستقرت حياتى مع «إلزفير» . . وفى كل صباح كنت أذهب إلى المدرسة . . وأمضى أوقات ما بعد الظهر فى صيد الأسماك أو فى القيام ببعض أعمال الحديقة .

وكثيـرًا مـا كنت أجلس مـع « إلزفيـر » ونحـاول معًا أن نفهم مـا تشيـر

إليـه الكلمات المكتوبة على الورقة الصغيرة التى مازلت أحتفظ بها داخل العلبة الفضية .

* * *

● فى بداية الربيع وصل إلى قرية «مون فليت» موظف كبير تابع للملك . . وكان هذا الموظف يحضر إلى القرية مرة واحدة كل خمس سنوات ليقوم بالتفتيش على أملاك الملك . . ولم يكن الملك يملك شيئًا فى «مون فليت» سوى حـانة « هـواى نـوت » أمـا بقيـة الأراضـى فكانت مملـوكة لعائلة « الموهون » .

وعندما كان هذا الموظف الكبير يحضر إلى القرية ، كان يقوم بعمل مزاد علنى لتأجير الحانة لمدة خمس سنوات تالية . وكان هذا المزاد يرسو دائمًا على «إلزفير» مقابل إثنى عشر جنيهًا دون أن ينافسه فيه أحد .

وكانت طـريقـة إجـراء هـذا المـزاد تعتمـد على إشـعال شـمعـة ورشـق دبـوس علـى بعـد بوصـة واحـدة مـن شـعلة الشـمعـة . . ويظـل المـزاد قـائمًا حتـى تسـيح المنطقـة المرشـوق فيهـا الدبـوس حتـى يسـقط الدبـوس مـن جسم الشمعة . وعنـدئـذ يرسـو المزاد على آخـر شخص تقـدم بسـعر منـافـس .

وجلس جميع الحاضرين حول الشمعة ينتظرون سقوط الدبوس . . وفجأة ظهر «ماسكيو» بداخل الحانة . . وهنا حاول «إلزفير أن يمنعه وقال : انت لست صديقا لى يا «ماسكيو» . . وعليك أن تغادر الحانة فورًا !

ولكن «ماسكيو» قال للموظف الكبير : لقد جئت للمنافسة فى المزاد . . فما هو آخر سعر معروض؟!

قال الموظف : عرض «إلزفير» إثنى عشر جنيهاً .

وهكذا بدأ «ماسكيو» و«إلزفير» ينافسان بعضهما بزيادة السعر الذى يعرضه كل منهما حتى وصل السعر إلى مائتى جنيه! . . وهو سعر عرضه «ماسكيو» . . وهنا سقط الدبوس من جسم الشمعة وفاز «ماسكيو» بتأجير الحانة للخمس سنوات التالية .

* * *

● ولعدة أيام تالية كان «ماسكيو» لا يجسر على السير فى شارع القرية ، لأن جميع الرجال كانوا ينظرون إليه بغضب . . كما كانت النساء توجه إليه كلمات قاسية . . لقد غضب عليه الجميع عندما علموا بما فعله فى المزاد .

وقال بعض الرجال الذين كانوا يراقبونه إنه سافر إلى «واى ماوث» ليقابل رجال الضرائب . . وانه طلب منهم أن يرسلوا فرقة مسلحة حتى يقبضوا على المهربين فى أول عملية يقومون بها .

ووصلت هذه الأخبار إلى «إلزفير» فقرر التوقف عن عمليات التهريب لفترة . . وفى مساء أحد الأيام أخبرنى «إلزفير» بأن شحنة من البضائع قد وصلت وعلينا أن نستلمها . .

وقال «إلزفير» وهو يشرح لى تفاصيل العملية : لقد أبلغت السفينة التى

تحمل البضائع أن تتوجه شمالاً إلى منطقة تسمى « كهف بيجروف » وهى منطقة تقع بالقرب من «رأس هور» حيث يمكننا أن نخفى البضائع فى هذا الكهف .

وفى تلك اللحظة، شعرت بلفحة من الهواء البارد تهب على ظهرى . . فالتفت إلى الخلف فوجدت النافذة مغلقة . . ووجدت أن الباب أيضًا كان مغلقًا . . ومع ذلك فقد شككت فى الأمر، ففتحت الباب بسرعة وخرجت إلى الشارع ، ولكنى لم أتمكن من رؤية أى شىء فى الظلام . . وسألنى «إلزفير» مندهشًا : ماذا حدث؟

أخبرته بأنى أشك فى أن أحدًا كان يتجسس علينا وينصت إلى حديثنا . . ولكن «إلزفير» واصل حديثه قائلاً : لم يعد أمامنا سوى أسبوعين فقط حتى نغادر هذه الحانة التى توارثت عائلتى حق إدارتها لأكثر من مائة عام . . ولذلك فعلينا فى الغد أن نسير على شاطئ البحر لنبحث عن بيت صغير يكون بالقرب من منطقة «كهف بيجروف» .

ولم أقل شيئًا ولزمت الصمت . . فقد كان ذهنى سارحًا فى موضوع آخر . . كنت حزينًا لاضطرارى لمغادرة «مون فليت» وبالتالى سأفارق «جريس ماسكيو» التى أحببتها من كل قلبى . . وسأفقد السعادة التى كنت أشعر بها حين كنا نتجول سويًا فى الغابة القريبة من بيتها حين يكون أبوها غائبًا عن البيت . . والحقيقة أنى أخبرت «جريس» بكل شئ عن أسرارى لأنى كنت أثق بها ثقة لا حد لها . . وأعلم تمامًا أنها لا يمكن أن تبوح بهذه الأسرار لأى أحد كان حتى لأبيها .

وفى آخر مرة قابلتها قالت لى بحنان : سوف أشعل شمعة وراء زجاج نافذة حجرتى كل ليلة لعلك تراها وتسترشد بها وأنت تعمل فى البحر.

والآن . . تقرر أن أغادر «مون قليت» وربما لن أستطيع أن أقابل «جريس» مرة أخرى بعد ذلك أبدا . . ولذلك فقد قررت أن أذهب فى الصباح إلى « الغابة » القريبة من بيتها . . لعلى أراها وأخبرها بما آل إليه مصيرى .

* * *

● وعندما تقابلنا فى ذلك اللقاء الأخير ، أخبرتنى «جريس» بأنها حزينة بسبب مغادرة «إلزفير» لحانته وابتعاده عن «مون فليت» . . وأن حزنها الأكبر هو فراقى وابتعادى . .

والحقيقة أن هذا الحزن الذى أبدته «جريس» كان من أسباب سعادتى ، لأنى تأكدت الآن من أنها حزينة لفراقى ، ولأنى أصبحت ذا أهمية عندها . وبعد فترة بدأت «جريس» تقول بعض الأخبار عن أبيها .

قالت إنه فى الساعة التاسعة من مساء الأمس ـ وهو نفس الوقت الذى كنت أجلس فيه مع «إلزفير» بجوار المدفأة وكان يحدثنى عن البضائع التى سنخفيها فى «كهف بيجروف» بعد أن نستلمها من السفينة ـ قام أبوها من مقعده ، وقال إنه سيخرج من البيت ليتنزه قليلاً . . وكان هذا أمرًا غريبًا لأن الليلة كانت باردة . وبعد نحو ساعة عاد مسرعًا وقال إن عليه أن يسافر فورًا

إلى «واى ماوث» لأمر هام جداً . . وانه من المحتمل أن يغيب هناك نحو يومين . ولبس معطفه وقبعته وانصرف فى ظلام الليل .

والحقيقة أنى بدأت أشك فى أن «ماسكيو» هو الشخص الذى تجسس علينا ليلة أمس .

وأخيرًا أخبرتنى «جريس» بأن الوقت قد تأخر وحان موعد عودتها إلى البيت . . وودعتنى !

* * *

● غادرنا ـ أنا و«إلزفير» ـ قرية مون فليت لنبدأ رحلتنا الطويلة إلى «رأس هور» التى تعتبر أعلى نقطة على الساحل . . وكان جانبها المواجه للبحر عبارة عن تكوين صخرى شديد الانحدار . . وكان هناك طريق ضيق جدًا ووعر جدًا يلف حول هذا التكوين الصخرى ، وهو طريق منحدر يربط ما بين قمة رأس هور وأرض الشاطئ .

وعندما وصلنا إلى أرض الشاطئ رأيت هناك نحو عشرين رجلاً كانوا فى انتظارنا . . وجلست على الأرض لشدة احساسى بالتعب بعد أن مشيت هذا المشوار الطويل .

وعندما أطلقت السفينة الاشارة المتفق عليها ، بدأ الرجال فى تفريغ ما تحمله من بضائع . وبعد إنزال آخر قطعة من البضاعة ، بدأ الرجال فى السير نحو الطريق الضيق المنحدر الذى يصل بين الشاطئ وقمة رأس هور.

ولكن عند بداية هذا الطريق حدثت مفاجأة . . فقد رأى بعض الرجال شيئًا يتحرك خلف إحدى الأشجار وانطلق يجرى بأقصى سرعة . فوضع الرجال البضائع التى كانوا يحملونها على الأرض، وانطلق بعضهم خلف الرجل الهارب إلى أن أمسكوا به وقبضوا عليه . وقد فوجئت بأن هذا الرجل كان «ماسكيو» بعينه .

وصاح بعض الرجال : اقتلوه . . اشنقوه . . اطلقوا عليه النار. . اقذفوا به إلى البحر من أعلى قمة رأس هور . . !!

وتقدم أحد الرجال وأخرج المسدس الذى كان يحمله «ماسكيو» فى جيبه. . وألقى المسدس على الأرض بجانب قدمى «الزفير» الذى قال للرجال: دعوا أمره لى وحدى. . فقد حانت لحظة الانتقام من هـذا القاتل الذى قتل ابنى «دافيد» . . وعليكم أن تحملوا البضائع وتذهبوا إلى المكان المتفق عليه.

وهكذا تحرك جميع الرجال نحو الطريق الصاعد. . وبقى ثلاثة أشخاص فقط على أرض الشاطئ، وهم «ماسكيو» و «إلزفير» وأنا . . ومسدس كان ملقيًا على الأرض!

* * *

● كان «ماسكيو» جالساً فوق الرمال، وظهره مسنود على صخرة . وكان مكتوف القدمين كما أن يديه كانتا موثوقتين خلف ظهره . . ونظرات عينيه موجهة فى ذلة نحو الأرض . ومع ذلك فقد حاول أن يبدو شجاعًا حين قال

لإلزفير بصوت مرتعش: أنا موظف لخدمة القانون . . وإذا لم تفك قيودى وتطلق سراحى فسوف أطالب بشنقك!

ضحك «إلزفير» ونظر إليه باحتقار وقال : لا تحدثنى عن الشنق والمشنوقين . . فسوف أصوب مسدسك هذا نحو رأسك . . وأقتلك كما لو كنت أتخلص من وحش كاسر.

وهنا امتلأت عينا «ماسكيو» بالدموع وأخذ يستعطف «إلزفير» قائلاً بصوت متحشرج: لا تقتلنى يا مستر إلزفير . . إن لى ابنة وحيدة ليس لها عائل سواى. . فمن ذا الذى يرعاها ويحميها بعدى. . أنظر إلى حال تلك المسكينة حين يحملون إليها جثة أبيها غارقة فى الدماء!

قال «إلزفير»: وأنا أيضًا كان لى ابن وحيد. . وقد حملوا إلى جثته غارقة فى الدماء. . فمن ذا الذى قتله؟. . وبأى مسدس قتل ؟. . انه نفس المسدس الذى سأستعمله الآن فى قصف حياتك. . هيا أقم صلاتك وتقرب إلى الله.

والتقط «إلزفير» المسدس الملقى على الأرض وأعده للضرب. . وهنا بدأت استعطف «إلزفير» وأرجوه أن يصرف النظر عن قتل «ماسكيو» . . فقال «إلزفير » : إن لك قلبًا طيبًا يا بنى . . ربما كنت مصرا على قتله لأنى كنت غاضبًا عليه . . ولكنى الآن فى موقف حرج ، ولا أتصور كيف أقدم على قتل رجل مكتوف اليدين والقدمين ومستسلم على هذا النحو . . ولكنك تعلم ان الرجال كانوا سيقومون بقتله بأنفسهم ولكنى تدخلت لكى انتقم منه

بنفسى . . ولعلك تعلم أيضًا أنى إذا أطلقت سراحه فسوف يطالب بشنق جميع الرجال بعد أن تعرف عليهم . . هل يرضيك هذا ؟ . . ليس أمامى سوى أن أقتله !

وواصل «ماسكيو» بكاءه واستعطافه . . وعرض ألف جنيه ثم خمسة آلاف، ثم عشرة آلاف كفدية لانقاذ حياته. . بل ووعد أيضًا بإعادة حانة «هواى نوت» إلى «إلزفير» . . ووعد كذلك بمغادرة «مون فليت» بصفة نهائية ولن يعود إليها أبدًا .

ولم يستجب «إلزفير» إلى أى عرض من تلك العروض . . وأمسك بالمسدس وجهزه لإطلاق النار . . وصوبه نحو رأس « ماسكيو » . . وفى لمح البصر انقضضت على « إلزفير » لأمنعه من القتل . . واشتبكت معه وأنا أحاول إبعاد المسدس من يده . . فسقط المسدس على الأرض، وانطلقت منه طلقة عشوائية اصطدمت بالصخرة ، ودوى صوتها فى أرجاء الشاطئ.

وعندئذ توقف الاشتباك بينى وبين «إلزفير» ونظرنا ناحية «ماسكيو» فرأيناه يضحك فى سرور وهو ينظر إلى أعلى قمة الطريق الصاعد. . ونظرنا نحن إلى ما ينظر إليه. . ففوجئنا بظهور حوالى عشرين جنديا من جنود الملك يحاصروننا من فوق القمة ويصوبون أسلحتهم نحونا !

لقد فهمنا الآن ما حدث بالضبط . . فقد اتفق «ماسكيو» مع هؤلاء الجنود على أن يبدأوا هجومهم عندما يعطيهم إشارة من مسدسه . .

وانطلقت نحونا عدة طلقات نارية، منهم طلقة أصابت «ماسكيو» فى رأسه فمات على الفور . . والتقط « إلزفيـر » المسدس من الأرض وصـاح بى : هيا يا جون نجرى بأقصى سرعة لنختبئ خلف هذه الصخرة!

فجريت . . وجرى «إلزفير» خلفى . . ولكنى سقطت على ركبتى فجأة . . ووجدت نفسى غير قادر على الجرى . . وشعرت بألم شديد فى قدمى اليسرى . . وقال «إلزفير» ملتاعًا : هل أصابوك يا جون ؟!

وتقدم نحوى . . وحملنى بين ذراعيه . . واحتمينا خلف الصخرة .

* * *

● قال «إلزفير» : هناك طريق ضيق جدًا يؤدى إلى قمة «رأس هور» . . وهو طريق وعر ولكن من المؤكد أن الجنود لا يعرفونه . . هذا الطريق هو الفرصة الوحيدة لنجاتنا . . وسوف أحملك فوق ظهرى وأتسلق بك هذا الطريق الخطر . . ولكن هناك بعض الأماكن الضيقة جدًا والأكثر وعورة ولا تسمح لى باجتيازها وأنا أحملك على ظهرى، وعليك فى هذه الحالة أن تزحف على يديك وركبتيك!

ولأنى كنت أشعر بآلام شديدة فى قدمى . . وأحسست بأن الدماء تسيل داخل حذائى . . فقد طلبت من «إلزفير» أن ينجو بنفسه ويتركنى هنا لمصيرى المحتوم . . ولكن «إلزفير» أخذ يشجعنى على احتمال الألم . . وحملنى برفق فوق ظهره وبدأنا فى صعود هذا الطريق الخطر .

واستمر عذاب الصعود فترة طويلة . . وعندما نظرت إلى أسفل، رأيت منظرا مرعباً يثير الهلع . . كانت مياه البحر الزرقاء تبدو بعيدة جدًا من هذا الارتفاع . . وكانت طيور البحر تحلق تحتنا، وكان الممر ضيقًا وشديد الوعورة، وأية زلة قدم معناها نهايتنا . . ومع ذلك فقد واصل «إلزفير» الصعود وهو يحملنى فوق ظهره ويشجعنى بين حين وآخر . . إلى أن وصلنا فى نهاية الأمر إلى قمة الطريق، وارتمينا على الأرض نلتقط أنفاسنا ! !

* * *

استرحنا لفترة قصيرة . . قال «إلزفير» خلالها ، إنه يعرف مكاناً آمنًا اسمه «كهف جوزيف» وهو يبعد نحو سبعة أميال من هنا . . وقد تستغرق رحلتنا إليه النهار كله، لأنه مضطر إلى السير ببطء وهو يحملنى .

وواصلنا السير خلال مساحة واسعة من الحقول . . وكان الألم فى قدمى يشتد كل لحظة . . وفى منتصف الطريق ، بدأت خطوات « إلزفير » تتباطأ وتصبح ثقيلة ، إلى أن وصلنا إلى بقايا حائط مهدم ، فوضعنى فوق هذا الحائط وارتمى على الأرض وأعلن أنه متعب ولا يستطيع مواصلة السير، ويريد أن يستريح لفترة قصيرة ، وطلب منى أن أظل مستيقظًا لكى أراقب المكان .

ولا أدرى كم مر من الوقت إلى أن تنبهت مفزوعًا على صوت طلقة دوت فى مكان قريب . . فقام «إلزفير» فورًا ووضع إصبعه أمام فمه إشارة لى بأن أسكت وألزم الصمت دون حركة . . وزحف هو خلف الحائط ليستطلع

الأمر . . وعاد بعد فترة وجيزة ليخبرنى بأنه شاهد ولدًا صغيرًا يصطاد الطيور ببندقية . . وهاهو الصبى قادم نحونا . . فسأله «إلزفير» : أيها الصبى . . ماذا تعمل هنا؟

فأجاب الصبى : أنى أصيد الطيور لفلاح اسمه «توب» .

فسأله إلزفير : هل لديك بارود كاف . . وهل يمكنك أن تعطينى بعض البارود لأنى أريد أن أصيد أرنبا بريًا من أجل عشائى ، ولكن ليس معى بارود لأحشو به مسدسى . . وسوف أعطيك هذه القطعة الكبيرة من النقود!

وعندما شاهد الصبى هذه القطعة من النقود لمعت عيناه ووافق على الفور، فتشجع «إلزفير» وقال للصبى : إعطنى كل ما معك من البارود وسأعطيك قطعتين من النقود !

ووافق الصبى أيضًا على هذا الصفقة . . وهنا قال « إلزفير » للصبى : بعنى البندقية أيضًا !

وهنا رفض الصبى هذا العرض وقال : لا . . إن الناس يقولون ان هناك بعض المهربين فى هذه المنطقة وإن جنود الملك يبحثون عنهم للقبض عليهم .

فقال «إلزفير» دون تردد : ولهذا السبب بالذات أريد أن اشترى منك البندقية لأدافع بها عن نفسى ضد هؤلاء المهربين . . وسوف أعطيك قطة نقود ذهبية . . هاهى !

وأخرج «إلزفير» قطعة ذهبية من جيبه أخذها الصبى الذى أعطاه البندقية . . ولا أدرى مـا الذى جعلنى لا أثق فى هـذا الصبى . . وأخبرت «إلزفير» بشكوكى فى أن هـذا الصبى سيذهب ليخبر الجنود بأنه رأى المهربين ويعرف مكانهم .

وقال «إلزفير» إنه يوافقنى على ذلك . . وعلينا أن نسرع فى الاختفاء فى «كهف جوزيف» الذى أصبح قريبًا وعلى مسافة قصيرة من مكاننا .

وحملنى «إلزفير» على ظهره مرة أخرى ، وأسرع فى السير نحو التل القريب . وعند سفح هذا التل شاهدت ثقبًا عميقًا فى الأرض . . وعندئذ قال «إلزفير» : ها هو «كهف جوزيف» الذى حدثتك عنه . . وسوف نختفى فيه إلى أن تشفى قدمك تمامًا .

* * *

● بقينا فى هذا الكهف حوالى شهرين حتى التأمت جروحى وتحسنت صحتى وبدأت استرد عافيتى . وكان «إلزفير» يخرج بين حين وآخر لإحضار الطعام . . ولم يكن هناك أحد يعرف سر وجودنا بهذا الكهف سوى «راتسى» الذى كان يحمل إلينا الطعام ويخبرنا بما يحدث فى «مون فليت» . .

وقال «راتسى» إن الجنود مازالوا يبحثون عنا فى كل مكان . . وكانوا قد أعلنوا فى البداية أننا قد سقطنا فى البحر . . ولكن هذا الوضع تغير الآن بعد أن أخبرهم صبى صغير بأنه شاهد واحدًا من المهربين ومعه صبى مصاب فى قدمه ، وأن هذا المهرب خطف منه بندقيته وبارووده . . ولهذا فقد أعلن

قائد الجنود عن مكافأة خمسين جنيهًا لمن يقبض على «إلزفير بلوك» ومكافأة عشرين جنيهًا لمن يقبض على «جون ترنشارد» .

وهكذا مرت الأيام . . وبدأ «إلزفير» يفكر فيما سوف نفعله بعد أن نغادر الكهف . . وقال أنه يفضل أن نذهب إلى «نيو بورت» . . ونركب سفينة المهربين «بون أدفنشر» ونذهب بها إلى فرنسا . . ونختبئ هناك إلى أن يكف الجنود عن البحث عنا .

وبالفعل ذهب « إلزفير » إلى بلدة « بول » القريبة بعد أن علم أن السفينة ستكون موجودة هناك ليتفق مع بحارتها على الموعد المناسب لرحلتنا إلى فرنسا .

وفى أثناء غيابه بقيت وحدى فى الكهف . . وحتى أسلى نفسى أشعلت شمعة وفتحت العلبة الفضية التى عثرت عليها فى تابوت ذى اللحية السوداء . . وأخرجت الورقة الصغيرة ذات الكتابة الغامضة . . وقرأتها مرة أخرى . .

قد يعيش الرجل **ثمانين** عامًا . .

يمشى **قدمًا** قدمًا تحت سيل الدموع . .

فاشرب من **بئر** السعادة

لأن الموت سيأتى من **جهة الشمال** أو الجنوب .

«جون موهون»

وفى تلك اللحظة . . جاء «راتسى» إلى الكهف . . وكانت ملابسه مبتلة بسبب الأمطار الغزيرة التى هطلت عليه فى الطريق إلى هنا . . ولكنه كان مسرورًا برؤيتى . وقال وهو يصافحنى : جون . . إن ما حدث طوال الشهرين الماضيين قد حولك من صبى إلى رجل .

بدأت العاصفة تشتد فى الخارج . . وتسلل الهواء البارد إلى داخل الكهف . . فأشعلنا النار فى الأخشاب وفروع الشجر . . وأحسسنا بالدفء . . وأخبرت « راتسى » بأن « إلزفير » قد ذهب إلى بلدة « بول » ليتفق مع بحارة السفينة «بون أدفنشر» على سفرنا إلى فرنسا . . وشعر « راتسى » بكثير من الفرح والارتياح لهذا القرار . . ولكنه بعد أن صمت قليلاً ، قال وهو يدفىء يديه :

ـ إن قلبى مملوء بالحزن يا جون . . لأن «إلزفير» لن يستطيع العودة إلى «مون فليت» . . وحانة «هواى نوت» مازالت مغلقة لأن «ماسكيو» قد مات قبل أن يبدأ العمل فيها . . ولأن ابنته «جريس » بنت صغيرة ومسكينة . . تصور يا جون انها لم تصدق الرجال الذين قالوا لها إنك أنت و«إلزفير» اشتركتما فى قتل أبيها . . بل وقالت لهؤلاء الرجال إن «إلزفير» لا يمكن أن يقتل رجلا كان مكتوف اليدين والقدمين . . وحتى لو كان قد شرع فى قتل أبيها ، فهى تعلم جيدًا أن «جون ترنشارد» سيبذل كل جهده لكى يمنعه !

كانت هذه الكلمات التى قالها « راتسى » أعذب فى أذنى من صوت الموسيقى . . لقد جعلتنى أشعر بأنى محل ثقة « جريس » وإنها مازالت تذكرنى بالخير . . لذلك فقد قلت « لراتسى » إنى لابد أن أرى «جريس»

وأخبرها بنفسى عن كـل شىء مما حـدث . . لابد أن أراها قبـل أن أغادر انجلترا إلى فرنسا .

ويبدو أن « راتسى » قد فهم مشاعرى نحو «جريس» لذلك فقد قال بعطف : حقا يا « جون » إن «جريس» بنت جميلة وبيضاء مثل الزهرة . . وربما ستكون خيـر زوجة لك عندما تصبح رجلاً . . وذلك إذا قبلت هى الزواج منك !

ووضع «راتسى» مزيدًا من الأخشاب فى النار فارتفع لهيبها ووفرت لنا مزيدًا من الضوء. فرأى الورقة الصغيرة الى كنت أقرؤها . . فالتقطها وتفحص فيها قليلاً ثم قال : ما هذه الورقة يا«جون» انها مكتوبة بطريقة رديئة . . وفيها بعض الكلمات مكتوبة بحروف كبيرة فى الوقت الذى كان يجب أن تكتب فيه بحروف صغيرة!

وأعطانى الورقة، ثم قام واقفًا وقال : لن أستطيع أن انتظر «إلزفير» أكثر من ذلك . . وعندما يعود عليك أن تخبره بما قلته لك . . وعليكما أن تغادرا هذا المكان فى أقرب وقت!

وودعنى «راتسى» وانصرف . .

التقطت الورقة وعاودت قراءتها . . ولاحظت بالفعل أن هناك كلمات مكتوبة بحروف كبيرة وهى : **ثمانين** . **قدما** . . **بئر** . . **جهة الشمال** .

لقد اكتشفت فى هذا اللحظة سر الجوهرة الثمينة . . فهى مخبأة فى بئر . . عمقه ثمانين قدما . . من جهة الشمال . . ولكن شمال ماذا؟!

واستغرقت فى محاولة حل هذا اللغز الجديد . . إلى أن عاد «إلزفير» وأخذ يعد لنا بعض الطعام . . وأخبرته بأمر تلك الكلمات المكتوبة فى ورقة ذى اللحية السوداء ، والمعنى الذى تشير إليه تلك الكلمات . فقال : إنك محق فى هذا الظن . . ولكن ماهو البئر المقصود ؟ . . أنا أعرف جميع الآبار فى «مون فليت» وليس بينها بئر واحد عمقه ٨٠ قدمًا . . ومن المؤكد أن هذا البئر يقع فى منطقة خارج «مون فليت» . . ربما يكون فى قلعة «كاريسبروك» التى كان «جون موهون» يقوم فيها بحراسة الملك السجين . . أنا أعرف أن هناك بئرًا بداخل تلك القلعة . . فهيا بنا لنذهب إلى هناك . . إن لدى أصدقاء مخلصين فى القرية المجاورة لتلك القلعة . . ويمكننا أن نختبئ عنـدهـم فى أمـان!

وهكذا قررنا أن السفينة «بون أدفنشر» ستأخذنا إلى « كاريسبروك » بدلاً من الإبحار إلى فرنسا .

وفى اليوم التالى أحضر «إلزفير» سائلا بنيا صبغ به بشرة وجهى . . وتنكر هو بحلق لحيته . . وغيرنا ملابسنا بملابس فلاح وصبيه . وبهذا التنكر الجيد، تأكدنا من أن أحدًا لن يتعرف علينا .

* * *

● بقيت لدينا ليلتان نقضيهما فى الكهف قبل أن نبدأ رحلتنا إلى «كاريسبروك» . . وقررت بينى وبين نفسى أن أذهب إلى «مون فليت» لرؤيتها وتوديعها . ولكنى كنت حائرًا فى اختيار الكلمات التى أبلغ فيها

« إلزفير » بهذا القرار . . ومع ذلك فقد تشجعت وقلت لـه بصوت متردد : «إلزفيـر» . . لابد أن أذهب إلى «مون فليت» . . قريتنا الحبيبة لألقى عليها نظرة أخيـرة قبل سفرنا . . وأنا أريـد أن أذهب الآن . . وسأعود فى الليلة القادمـة !

قال «إلزفير» : أنا أعرف لماذا تريد الذهاب إلى «مون قليت» . . إذهب . . وسوف انتظرك فى الكهف حتى تعود سالمًا فى الليلة القادمة . . وإذا لم تحضر حتى منتصف الليل . . فسوف أعرف أنهم قبضوا عليك . . وسوف أحضر لمساعدتك بكل وسيلة .

وقام «إلزفير» بإعطائى كمية من الخبز واللحم، تكفى لطعامى خلال رحلتى الذهاب والعودة . . كما أعطانى المسدس الذى كان مملوكًا من قبل «لماسكيو» وقال : خذ معك هذا المسدس يا «جون» . . ولا تستعمله إلا عند الدفاع عن نفسك إذا واجهت خطرًا جسيمًا !

وهكذا سرت طوال الليل حتى وصلت إلى «مون فليت» عندما أشرقت شمس الصباح . . ولأنى كنت متنكرًا فقد كنت على يقين من أن أحدًا لن يتعرف على . . وذهبت على الفور إلى بيت «جريس» وقرعت جرس الباب . . وجاءنى صوتها العذب الجميل وهى تتساءل : من هناك؟!

غيرت نبرات صوتى وقلت : أنا صبى مسكين . . تهت فى الطريق ولا أعرف أين أنا . . !

وفتحت «جريس» الباب . . وسألتنى عن الجهة التى كنت أقصدها

. . فواصلت كلامى : أنا صبى فلاح . . جئت سيرًا على قدمى من بلدة بعيدة قاصدًا حانة اسمها «هواى نوت» يديرها شخص اسمه «إلزفير بلوك» !

اندهشت «جريس» لسماعها هذا الكلام . . وخرجت من البيت وسارت عدة خطوات لترشدنى إلى مكان الحانة وهى تقول : يبدو أنك لا تعرف أن الحانة مغلقة منذ أكثر من شهرين ، وأن «إلزفير» قد غادر القرية .

وعندما أصبحنا وحدنا فى هذا المكان الذى يبعد قليلاً عن باب البيت . . قلت لها بصوت منخفض «جريس» . . أنا «جون ترنشارد» . . جئت متخفيًا لكى أراك . . ولدى أشياء كثيرة أريد أن أخبرك بها . . فهل هناك أحد غيرك فى البيت ؟ !

قابلت «جريس» هذه المفاجأة بسرور تام ، وقالت بهدوء : هيا نعود إلى البيت . . أنا هناك وحدى !

ودخلنا إلى البيت . . وجلسنا متقابلين . . ووضع كل منا يديه بيدى الآخر . . كانت لحظات سعيدة حلوة كما لو كانت حلماً جميلاً فى منام مريح . وضحكت «جريس» كثيرًا من ملابس الفلاحين الفقراء التى كنت متنكرًا فيها ، ومن الصبغة البنية التى دهنت بها بشرة وجهى ويدى .

وأخبرت «جريس» بحقيقة كل ما حدث لأبيها . . وكانت تبكى وأنا أشرح لها التفاصيل إلى أن انتهيت من الحكاية ، وجففت «جريس» دموعها . . وسألتنى عن إصابة قدمى وهل شفيت منها تمامًا . . فأجبتها بالإيجاب ، ورويت لها الجهد الذى بذله «إلزفير» فى علاجى .

وأخرجت العلبة الفضية من جيبى . . وشرحت لها سر الكلمات التى تدل على المكان الذى خبأ فيه «ذو اللحية السوداء» جوهرته الثمينة . . وأخبرتها بأنى سأذهب للبحث عن تلك الجوهرة ، ثم أصبح من أغنى الأغنياء فى هذه البلاد .

وسمعت «جريس» هذا الكلام بدون ارتياح ، وقالت لى : اسمع يا جون . . لا تفكر كثيراً فى أمر تلك الجوهرة . . ولا تحاول الحصول عليها . . لقد كانت مملوكة لرجل سيئ ، ولن يكون وراءها شئ سوى التعاسة . . وحتى لو عثرت عليها يا جون فبعها وانفق ثمنها لمساعدة الفقراء . . وإلا حلت بك التعاسة أنت أيضًا . . ! !

وهكذا تواصلت بيننا أحاديث طويلة طيبة . . وأحضرت لى «جريس» خبزا ولحمًا ساخنًا وبعض الفواكه من داخل البيت . . وعندما قمت لمغادرة البيت . . وقفنا متقابلين وكل منا يمسك بيدى الآخر . وكانت آخر كلماتها : جون . . عندما تتجول داخل البحر . . أو عندما تكون قادمًا إلى «مون فليت» من جهة البحر . . وهذا ما أرجو حدوثه فى يوم ما . . سترى شمعة مضاءة خلف نافذتى . . سأحرص على إضاءتها كل ليلة حتى تعود . . وعندما ترى ضوء هذه الشمعة خلف نافذتى . . فاعرف جيدًا أن «جريس» مازالت تذكرك وتنتظرك حتى تعود . . أما إذا جئت يومًا ولم تر نور الشمعة ، فاعلم أن «جريس» قد ماتت ! !

* * *

● كان الوقت متأخرًا حين وصلت إلى «كهف جوزيف» لأنام فيه آخر ليلة . . وفى مساء اليوم التالى، أرسلت لنا السفينة «بون أدفنشر» أحد قواربها ليأخذنا من الشاطئ حتى نصعد إلى ظهرها . . وأبحرت بنا السفينة حتى وصلنا إلى بلدة «كاوز» . . ومن هناك واصلنا السير على الأقدام حتى قرية «كاريسبروك» . ودخلنا إلى حانة «باجل» حيث تناولنا الطعام، ونمت على سرير نظيف.

وكان على «إلزفير» أن يقضى أغلب النهار بالخارج . . وتردد على القلعة عدة مرات . وأخيرًا قال لى «إلزفير» : لقد حاولت أن أضع خطة الوصول إلى البئر وحدنا ، إلا أن ذلك كان مستحيلاً تمامًا . . فهناك رجل يتولى حراسة الحجرة التى يوجد البئر بداخلها . . وبدون مساعدة هذا الرجل فلن نستطيع أن نفعل شيئًا . . لذلك فقد اضطررت لأن أخبره بأن هناك جوهرة ثمينة مخبأة فى البئر ونحن نعرف مكانها . . فوعدنى بأنه سيساعدنا فى الهبوط إلى البئر للبحث عن هذه الجوهرة بشرط أن يحصل هو على ثلث قيمة الجوهرة وأية جواهر أخرى نعثر عليها . . والحقيقة أنى لا أثق فى هذا الرجل . . ولكن ليس أمامنا حل آخر . . واتفقت معه على أننا سنحضر متنكرين فى ثياب عمال بناء جاءوا لكى يصلحوا جدران البئر . . وسيتولى هو أمر دخولنا إلى القلعة وإلى البئر.

وفى الصباح الباكر تنكرنا فى الثياب المتفق عليها وتوجهنا إلى القلعة حيث استقبلنا الحارس، وأخذنا إلى الحجرة التى يوجد بها البئر . . ومنذ

أن رأيت هذا الرجل لم استرح إلى ملامح وجهه ولا إلى شكله العام وفقدت ثقتـى فيـه .

كان هناك برميـل من الخشب معلقا ببكرة الحبال فـوق فـوهة البئر . . فجذب «إلزفير» البرميل إلى ناحيته وقال لى : سأنزل أنا فى هـذا البرميل . . وسيتولى هذا الرجل الطيب انزال البرميل ببطء . . وعليك يا «جـون» أن تمسك بطرف هذا الحبل فى يـدك وسأمسك أنا بطـرفه الآخر فى يدى . . إن هذا الحبـل طـوله « ثمانون » قـدما بالضبط . . وعنـدما يصبح هـذا الحبل مشدودًا بيننا فعليك أن تطلب من الرجـل الطيب أن يتوقف فورًا عن انزال البرميـل .

لم أقتنع بتلك الخطة وعارضتها فورًا . . لأنها ستجعلنى وحدى مع هذا الرجل الذى لا أثق فيه . . وسوف يكون من الأفضل أن أنزل أنا فى البرميل ويبقى «إلزفير» مع الرجل لأنه يستطيع أن يتعامل معه إذا صدرت منه أية نية سيئة . لذلك فقد قلت لإلزفير وأنا أنظر إليه بنظرات ذات معنى : لا . . دعنى أنزل فى البرميل لأنى خفيف الجسم . . وابق أنت هنا لمساعدة هذا الرجل الطيب .

استاء الرجل من هذا التغيير الذى لم يتوقعه ، وحـاول أن يعارض هذه الخطة الجديدة ، إلا أن « إلزفير » قرر أن يبقى هو مع الرجـل وأن أنـزل أنا إلى البئـر .

* * *

● وبدأ البرميل ينزل بى إلى أسفل البئر رويدا رويدا إلى أن وصلتْ إلى

نهاية الحبل الذى أدلاه «إلزفير» من أعلى والذى يبلغ طوله ثمانين قدمًا بالضبط . وعندئذ صحت بالرجلين أن يتوقفا عن انزال الحبل الذى يحمل البرميل، فتوقف الهبوط فورًا .

وأخذت اتفحص الأحجار فى جدران البئر . . كانت كلها أحجارًا متشابهة . . وفى ضوء الشمعة التى كنت أحملها فى يدى ، لاحظت وجود حجر عليه علامة صغيرة على شكل حرف «Y» ـ واى ـ وهو الشعار الذى كانت تتخذه عائلة « الموهون » . . إذن فالجوهرة الثمينة مخبأة خلف هذا الحجر.

وأخذت أحفر حول الحجر محاولاً زحزحته من مكانه. . إلى أن تمكنت أخيرًا من خلعه ووضعته فى البرميل جوار قدمى. . ومددت يدى إلى داخل الثقب، فعثرت على لفافة صغيرة تحسستها، فإذا بداخلها شئ صلب وكروى . . وما أن فتحت تلك اللفافة حتى وجدت بداخلها ماسة ضخمة.

وصاح حارس البئر بلهفة : هاه . . هل وجدت شيئًا ؟!

فصحت بالرجلين أعلى البئر : نعم . . لقد وجدت الجوهرة . . هيا ارفعانى الآن إلى أعلى !

وأخذ البرميل يرتفع بسرعة. . وظلت أحلام الثراء تراودنى. . ولكنى تذكرت صوت «جريس» العذب الجميل وهى تقول لى : كن حذرًا يا جون. . إن هذه الجوهرة قد تجلب لك التعاسة!

وعندما أصبحت قريبًا من فوهة البئر، توقف الحارس عن جذب الحبل وصاح بى قائلاً : أين الجوهرة . . أين الجوهرة . . هيا اعطنى إياها !!


قطب

وهنا تدخل «إلزفير» فقال للحارس : ارفعه أولاً خارج البئر . . إن الجوهرة ملك لهذا الصبى . . وسوف نعطيك نصيبك الذى اتفقنا عليه وهو ثلث قيمة الجوهرة بعد أن نبيعها !

فقال الحارس بطريقة شرسة : إن الجوهرة ليست ملكا له . . ولا ملكا لك أنت أيضًا . . انها ملكى أنا . . لأن البئر بئرى أنا . . وسوف أقوم أنا ببيعها وسأعطيك نصف قيمتها . . وسأعطى هذا الصبى قطعة نقود ذهبية . . وهذا يكفى .

فقال «إلزفير» لا تكن غبيًا . . إن الجوهرة ملك للصبى ، وسوف يحصل على حقه كاملاً .

ولكن الحارس قال بسرعة : أنا لست غبيًا بل أنت الغبى . . إن إسمك هو « إلزفير بلوك » وهناك مكافأة خمسون جنيهًا لمن يقبض عليك . . ومكافأة أخرى عشرون جنيها لمن يقبض على الصبى . . وأنتما الآن فى قبضة يدى !

ولاحظت أن الحارس قد أخرج مسدسا من جيبه ، فصحت على «إلزفير» محذرًا . . وصوب الحارس مسدسه نحو «إلزفير» وأطلق عليه النار . . ولكن الطلقة طاشت ولم يصب «إلزفير» بشئ . . وعندئذ ألقى الحارس مسدسه الفارغ من الرصاص . . واندفع نحو «إلزفير» فى هجوم وحشى . ونشبت بين الرجلين معركة شرسة .

وبذلت كل جهدى حتى صعدت خارجًا من البئر لكى أساعد «إلزفير»

فى معـركته ضد الحارس ، ولكنى وجـدته فى غيـر حاجة لمساعدتى . . فقد ألقى الحارس على الأرض . . فهب الحارس واقفًا وتراجع عدة خطوات إلى الخلف ليعاود هجومه مرة أخرى ، ولكنه انزلق على المياه الى كانت تحيط بحـافـة البئـر فسقط على الأرض بقـوة ، واندفع بفعل السقطة نحو حافة البئـر وسقط فى فوهة البئـر . . وفى لمـح البصـر مـددت يـدى لكى أمنعـه مـن السـقوط ، إلا أن يـدى لـم تمسـك إلا بسلسلة المفاتيح التـى كانت معلقـة فى حـزام حـول وسطه . . وأحدث سقوط الحارس صوتًا مرعبًا وهو يتخابط فى جـدران البئـر ، ثم دوى صوت أكثـر رعبًا حين سقط جسمه فى مياه البئر .

وأسرع « إلزفير » نحو البرميل ، ودخل إلى فوهة البئر وهو يقول : هيا يا «جون» انزلنى بسرعة . . سأحاول أن أنقذه !

وأدليت البرميـل بسـرعة إلى أسفل البئـر . . وأخـذت أنصت باهتمام لأعـرف النتيجة . . وبعـد فتـرة طلب منى « إلزفيـر » أن أرفـع البرميل إلى أعلى . . وعنـدما خـرج من البئر لـزم الصمت ، وعرفت بذلك أن الحارس قـد مـات .

فقلت متحسرًا : دعنا نلقى هذه الجوهرة المشئومة فى البئر يا « إلزفير » إنها لن تجلب لنا سوى التعاسة !

فقال « إلزفير » : لا يا « جون » . . اعطنى الجوهرة لاحتفظ بها من أجلك !

وأعطيته الجوهرة . . وعدنا بسلام إلى الحانة . . وجمعنا حاجياتنا بسرعة . . واتجهنا إلى الميناء القريب . . وركبنا سفينة هولاندية كانت على وشك الرحيل فورًا إلى هولاندا . . ! !

* * *

● أنزلتنا السفينة فى ميناء « لاهاى » بهولاندا . . وتعتبر هذه المدينة أشهر مكان فى العالم لتجارة الماس . . وكان « إلزفير » يعرف بعض اللغة الهولاندية . . وبحثنا على الفور عن تاجر ماس مناسب يمكن أن يشترى الجوهرة . . وقيل لنا إن « ألدوبراند » هو أغنى تجار الماس وأكثرهم شهرة .

وقبل غروب الشمس بنحو ساعة ، ذهبنا إلى بيت هذا التاجر . . وهو بيت غير مرتفع يطل على الطريق الرئيسى ، وملحقة به من الخلف حديقة واسعة . . وقرعنا جرس الباب ، ففتح لنا خادم طويل الجسم فأخبرناه بأننا نريد أن نبيع جوهرة .

بعد لحظات عاد الخادم ودعانا إلى الدخول حيث قابلنا التاجر «ألدوبراند» وهو رجل عجوز فى حوالى السبعين من عمره . . وقال بصوت هادئ : أنا لا أتعامل فى الجواهر العادية . . بل فى الجواهر الثمينة فقط . . أين هى ياالجوهرة التى تريدون بيعها ؟!

فى تلك اللحظة كنت أمسك الجوهرة فى يدى فقدمتها إليه . . ورأيت ملامح الدهشة تبدو واضحة فى وجهه حين أمسك بها ورأى حجمها . . وبدأ يتفحصها بدقة ، ولكنه قال : لا يوجد هنا ضوء كاف . . اتبعانى .

ودخل بنا إلى حجرة لها نافذة تطل على حديقة البيت . . وجلس «ألدوبراند» إلى مائدة فى وسط الحجرة . . وأمسك الماسة بين أطراف أصابعه، وعرضها للضوء ، وأخذ يفحصها بكل عناية واهتمام . . ولا أدرى لماذا شعرت بعدم الارتياح لهذا الرجل الذى التفت إلى فجأة وسألنى : ما اسمك أيها الصبى . . ومن أين جئت . . ؟!

فوجئت بالسؤال فقلت له بغباء : اسمى « جون ترنشارد » . . وجئت من قرية « مون فليت » بانجلترا . . !

وغمزنى « إلزفير » ليحذرنى . . ولشدة دهشتى لاحظت أن التاجر كتب اسمى فى دفتر كان موجودًا على المائدة . . ثم سألنى مرة أخرى : هاه . . من « مون فليت » . . ولكن قل لى كيف حصلت على هذه الجوهرة ؟!

وهنا تدخل « إلزفير » بسرعة وقال : إننا لم نحضر إلى هنا لتحقق معنا . . فإذا كنت ترغب فى شراء تلك الجوهرة ، فقل لنا ما هو الثمن الذى يمكنك أن تدفعه . . ويكفى أن تعرف أننا بحارة انجليز . . وأن هذه الجوهرة ملكنا . . وأننا نريد بيعها . .

وقال التاجر العجوز : نعم نعم . . ولكنى أريد أن أعرف المصدر الحقيقى لهذه الجوهرة لكى أفحصها جيدًا حتى أتأكد من انها جوهرة حقيقية وليست مزيفة .

وقام التاجر وأحضر زجاجة صغيرة بها سائل أخضر . . ووضع نقطة من هذا السائل فوق الجوهرة . . وبعد قليل صدمنا بقوله : يا بنى . . هذه

الجوهرة ليست ماسة حقيقية ، ولكنها مصنوعة من الزجاج بطريقة جيدة وبدقة شديدة . . وهى مع ذلك أحسن قطعة من الزجاج رأيتها فى حياتى . . ولكنها ليست من الماس !!

أظلمت الدنيا فى عينى ، وكدت أسقط على الأرض مغشيًا على . . لقد تبددت كل أحلام الثراء التى كانت تداعب خيالى . . وضاعت كل جهودنا عبثًا . . ومع ذلك فقد قال التاجر العجوز وكأنه يواسينا : أنا لم أقل إنها لا تساوى شيئًا . . فبالرغم من أنها مصنوعة من الزجاج إلا انها قطعة فنية جيدة . . ولذلك سوف أعطيكما عشرة قطع من النقود الفضية ثمنًا لها !

وهنا قال « إلزفير » بغضب : لا . . إننا لم نحضر إلى هنا لنحصل على نقودك الفضية . . نحن فى غنى عنها . .

وبغضب شديد ، التقط « إلزفير » الجوهرة من يد التاجر العجوز ، وألقى بها من النافذة المطلة على الحديقة . . فهاج التاجر وصاح قائلاً : هل أنت مجنون أيها الرجل . . لماذا فعلت ذلك . . لماذا ؟!!

وخرجنا يائسين من بيت التاجر . . وكنت قد لاحظت حين قام «إلزفير» بالقاء الجوهرة ، انها وقعت على أرض الحديقة بجوار زهرة حمراء كبيرة . . وعدنا إلى الحانة التى كنا نقيم بها دون أن نتبادل كلمة واحدة . وعندما وصلنا إلى الحانة جلسنا لنتناول طعام العشاء .

وبطبيعة الحال فقد كان ذهنى مشغولاً بكل ما حدث . . وأخذت أقلب الأمر من جميع جوانبه . . وفجأة توقفت عن تناول الطعام وفزعت واقفًا

وقلت : « إلزفيـر » . . إنا بلهاء . . إن الجوهرة ماسة حقيقية . . واستطاع هـذا التاجـر العجـوز اللئيـم أن يغشـنا ويكـذب علينـا . . ويجـب أن نذهب إلى حـديقـة بيت التاجـر . . فأنا أعـرف المكـان الذى سقطت فيـه الجـوهـرة .

قال « إلزفير » بعد فترة صمت : إنك على حق يا « جون » فأنا أعرف أن الجوهرة ماسة حقيقية . . وأنا على يقين من أننا سنعيش سعداء بدونها . . لانها ستجلب علينا الشقاء والنحس والتعاسة . . فلا داعى لأن نفكر أو نعمل على استردادها !

ولكنى لم أقتنع بما قال ، وأصررت على الذهاب إلى الحديقة لاستعادة الجوهرة . ولم يجد « إلزفير » مناصًا سوى أن يذهب معى .

وكان ظلام الليل قد حل حين تسلقنا السور الحجرى الذى يحيط بالحديقة الملحقة ببيت التاجر « ألدوبراند » . . واتجهنا مباشرة إلى المكان الذى توجد فيه الزهرة الحمراء . . وأخذت أتحسس الأرض بيدى . . ولكنى لم أعثر على شىء . . فقلت يائسًا : لقـد اختفت الجوهرة . . لا بـد أن «ألدوبراند» قـد سبقنا فى الوصول إليها . . لقد أخذها هذا التاجر اللئيم الغشاش !

ونظـرت نحو بيت التاجـر ، فـرأيت نورًا ينبعث من إحـدى النوافـذ ، فاقتربت من النافذة واقتـرب معى « إلزفير » فشاهدنا التاجر وهو جالس إلى مائدة وأمامه جوهرتنا الثمينة . . وعندئذ وجدت نفسى أصعد بسرعة إلى

حافة النافذة ، وقفزت إلى داخل الحجرة . . وأمسكت الجوهرة بيدى . . ولكن التاجر العجوز هب واقفًا يصيح مذعورًا : النجدة . . النجدة . . إلحقونى . . لصوص فى البيت ! !

وفى الحال ، دخل ستة من الخدم . . وأحاطوا بنا من كل جانب . . وقبضوا علينا !

* * *

● قدمونا إلى المحاكمة . . وطبعًا لم يصدق القاضى أى كلمة من قصتنا مع تلك الجوهرة التى حكيناها بكل تفاصيلها . . وحكم علينا بالسجن ! . . وأخذونا إلى سجن بعيد يسمى « إيمجوين » . . وبعد مرور نحو اسبوع جاء بعض الحراس وأخذونى إلى كوخ حقير كريه الرائحة ، وربطونى بالحبال إلى كرسى ضخم . . وكانت هناك نار مشتعلة وجاء أحد الحراس بختم مصنوع من الحديد المحمى بالنار ، ووصمنى على جبينى بعلامة على شكل حرف « Y » ـ واى ـ وهو أول حرف من « إيمجوين » . . اسم هذا السجن . . وذلك حتى يعرف الجميع أنى سجين أتبع هذا السجن الرهيب .

وبعد مرور عدة أيام ، قابلت « إلزفير » أثناء العمل الشاق فى ساحة السجن ، وكان يحمل هذه العلامة أيضًا على جبهته .

ومرت سنوات طويلة كلها عذاب . . كل يوم كان شبيهًا باليوم السابق

. . نخرج إلى العمل الشاق طول النهار . . ونعود لتناول الطعام الردىء . . ثم ننام لنحاول أن ننسى هذا العذاب .

* * *

● وبعد انقضاء عشر سنوات فى هذا السجن . . جاءت مجموعة كبيرة من الجنود المسلحين ، وأخذونا إلى ميناء « لاهاى » . . وهناك أفهمونا أننا سنركب سفينة ستأخذنا إلى جزيرة « جاوه » وهى جزيرة تابعة لهولاندا وتبعد عن أوربا عدة آلاف من الأميال وتقع وراء الهند . . وأخبرونا اننا سنعمل هناك فى المزارع الهولاندية لقصب السكر . . !

وكانت هذه المصيبة الجديدة نهاية محزنة لكل آمالى . . فلن أتمكن أبدًا من رؤية « جريس » مرة أخرى . . ولن أعود أبدًا إلى «مون فليت» . . وطوال السنوات العشر الماضية ، كنت أتصور أنى سأستطيع الهرب فى يوم ما . . أو ربما كانوا سيطلقون سراحى بعد مدة لا أعرفها . . ولكن الآن ضاعت كل هذه الآمال والتوقعات . . ضاعت إلى الأبد !

وكان « إلزفير » أيضًا ضمن مجموعة السجناء المرحلين إلى جزيرة «جاوه» . . لقد أصبح الآن رجلاً عجوزًا شاب شعر رأسه وابيض .

وصعدوا بنا إلى تلك السفينة التى سترحل بنا إلى « جاوه » . . وأبحرت السفينة لمدة يومين فى بحر هادئ . . وفى اليوم الثالث هبت علينا عاصفة عاتية .

كان معنا فى عنبر المسجونين عشرون سجينًا أصابهم الرعب والهلع خوفًا من تلك العاصفة . . أما بالنسبة لنا ـ أنا و « إلزفير » ـ فقد اعتدنا على مثل هذه العواصف .

ولكن يبدو أن تلك العاصفة كانت أقوى مما نتصور . فقال « إلزفير » : هناك سفن أكبر من هذه السفينة وأقوى منها كان مصيرها الغرق والتحطم فى مثل هـذه العاصفة العاتية . . واعتقد أننا نبحـر بالقرب من أحـد السواحل . . ومن المتوقع أن تقـذف بنا الأمواج العالية وتتحطم السفينة على صخور الشاطئ .

وفى تلك اللحظة فتح باب عنبر المساجين ، وظهر رجل من بحارة السفينة وقال وهو يلقى إلينا بمفتاح الباب : ليساعدكم الله . . تصرفوا بسرعة لتنقذوا أنفسكم !

وفهم « إلزفير » ما يقصده هذا البحار فقال للسجناء : معنى هذا أن السفينة ستغرق . . وانهم يعطوننا فرصة للنجاة !

ولاحظنا أن الجنود والبحارة قد غادروا السفينة وركبوا قوارب النجاة . . وصاح « إلزفير » : نحن قريبون من الساحل . . ومن المؤكد أن السفينة ستتحطم على صخوره الضخمة المدببة !

وكان من الواضح أننا بداخل أحد الخلجان . . ورأيت تلاً مرتفعًا يبدو شامخًا من بعيد . . وقد ذكرنى منظره وشكله بتل أعرفه ورأيته مرارًا من قبل

. . وهنا صاح « إلزفير » بصوت مبتهج وينم عن الفرح : أنظر يا « جون » . . إننا فى خليج « مون فليت » . . ! !

وطلب السجناء من « إلزفير » أن يقود بهم قارب النجاة الوحيد الباقى على ظهر السفينة . . ولكن « إلزفير » أفهمهم ان النزول إلى البحر معناه الموت والهلاك غرقًا وسط هذه العاصفة العاتية وأمواجها العالية العنيفة . . ولكن السجناء لم يقتنعوا . . وانزلوا القارب إلى البحر وركبوه ، وانطلقوا إلى مصيرهم المحتوم . . وهكذا أصبحنا وحدنا على ظهر تلك السفينة الموشكة على الغرق ، والتى تتقاذفها الأمواج وتدفع بها إلى الارتطام بالصخور .

فى تلك اللحظات تخيلت ما يفعله أهالى « مون فليت » الآن وهم يرون سفينة موشكة على الغرق . . تخيلت « راتسى » ومعه مجموعة من رجال القرية يحملون المصابيح ويفكرون فى كيفية تقديم أية مساعدة لانقاذ الأحياء الراكبين فوق ظهر السفينة . .

وخلال أطباق الظلام وسيول المطر ، رأينا نقطة من الضوء تلمع مثل الجوهرة. فقال « إلزفير » : إنها « منارة ماسكيو » . . ألا تذكرها ؟!

آه . . ها هى « جريس » مازالت وفية بالعهد الذى قطعته على نفسها . . حين وعدتنى بأنها سوف تشعل شمعة خلف نافذة حجرتها فى كل ليلة حتى يهتدى بها بحارة السفن العابرة إلى أن أعود إليها مرة أخرى . . إنها مازالت تنتظرنى . . وهأنذا عائد إليها !

ولاحظت أن عدد المصابيح التى كان يحملها رجال « مون فليت » قد ازداد . . وبطبيعة الحال فانهم لا يعرفون أن هذه السفينة الموشكة على الغرق لا تحمل على ظهرها سوى اثنين من الرجال . . وأن هذين الرجلين من أهالى « مون فليت » !

وعندما اقتربت السفينة من أرض الشاطئ لتلقى نهايتها المحتومة ، واشتد عويل الرياح وصخب الموج . . صاح « إلزفير » : لقد اقتربت النهاية . . وعلينا أن نلقى أنفسنا إلى البحر مع قدوم الموجة التالية . . وها هى موجة قادمة . . هيا يا « جون » . . اقفز معى !!

وقفزنا . . وسقطت على يدى وركبتى فى منطقة لا يزيد عمقها على متر واحد . . ووقفت على قدمى . . ولكن الأمواج العنيفة غلبتنى . . وحاولت الوقوف مرة أخرى ، ولكن بدون جدوى . . ولم أعد أرى شيئًا . . ولكنى أحسست بيد قوية تمسك بيدى . . !

* * *

● غبت عن وعيى ساعات طويلة . . وعندما بدأت أفيق ، وجدت نفسى راقدًا على سرير فى حجرة بها مدفأة موقدة . . وفتحت عينى بصعوبة فرأيت رجلين جالسين بالقرب من سريرى ، وكانا يتحدثان بصوت منخفض . . وقال أحد الرجلين : يبدو انه سيستيقظ . . وربما سيعيش ليحكى لنا من هو . . وماذا حدث . . وعلينا الآن أن نقدم له شرابًا ساخنًا . . فالليلة باردة . . والمكان فى هذه الحانة بارد أيضًا . . تصور

يـا صديقى أنى لم أدخل إلى هذه الحانة منذ أكثر من عشر سنوات . . منذ أن غادرها «إلزفير» !

وعندما سمعت اسم « إلزفير » . . قمت جالسًا فوق السرير . . التفت حـولى بحثًا عن « إلزفيـر » ولكنى لم أجـد سوى هـذين الرجلين . . ولذلك فقـد صحت ملتاعًا والخوف يملأ قلبى : إلزفيـر !! . . إلزفيـر !! . . أين إلزفيـر ؟ . . أين هـو . . ؟!

حاول أحد الرجلين أن يهدئنى . . وقال لزميله : يا له من شاب مسكين . . إنه يهذى !

فصحت مرة أخرى : أنا لا أهذى . . إنى أسألكما عن « إلزفير بلوك » . . أين هو . . ؟!

وعنـدمـا سـمع الرجـلان هـذا الاسم كامـلاً ، نظـر كـل منهمـا إلى الآخـر نظـرات حـائـرة . . وتقـدم منى أحـد الرجلين فتذكرته على الفور بالرغـم مـن شـعره الأبيـض وتجـاعيـد الزمـن التـى مـلأت وجهـه . . انـه «راتسـى» . . فصحـت بـه : « راتسـى » . . ألا تعـرفنـى . . أنـا « جـون ترنشـارد » . . !!

احتضننى « راتسى » وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وأمسك بيدى بين راحتيه وأخذ يسألنى بلهفة . . أين كنت . . ومن أين جئت . . وما قصة هذه السفينة . . ولكنى قلت له بإلحاح : سأحكى لك كل شىء فيما بعد . . ولكن اخبرنى أين « إلزفير » !

قال «راتسى» : لا أدرى أين هو. . هل كان معك على ظهر السفينة؟!

قلت على الفور : كان معى . . ولكن أين هو الآن . . ؟!

قال بصوت حزين : إن أحدًا لم يخرج من تلك السفينة حيًا سواك . . انت الوحيد الذى خرجت حيًا !

ولازمنى « راتسى » طوال يومين كاملين . . وكان يعد لى الطعام ويطمئن على راحتى . . وعلمت أن الأمواج قذفت بجثة « إلزفير » إلى أرض الشاطىء . . وامتلأ قلبى بحزن عميق . . ودارت فى ذهنى مئات الذكريات التى ضاعفت أحزانى .

وأخبرنى « راتسى » بأن عليه أن يقوم بمشوار هام . . وسوف يعود إلى الحانة فيما بعد . . وانصرف وتركنى مع همومى وأحزانى . . وجلست على مقعد بجوار نار المدفأة . . ولا أدرى كم مر من الوقت حين شعرت بخطوات تقترب . . وظننت أن « راتسى » قد عاد كما وعد . . ولكنى شعرت بيد رقيقة تربت بحنان على كتفى . . والتفت خلفى . . فإذا أجد أمامى شابة طويلة فى غاية الجمال والرقة . . كانت « جريس » بنفسها !!

قالت بصوت رقيق ناعم : جون . . هل نسيتنى يا جون ؟ . هل رأيت ضوء الشمعة التى كنت أوقدها كل ليلة انتظارًا لعودتك ؟!

قلت وأنا أمسك يدها : جريس . . انت عندى أغلى الناس . . لكنى لا أستطيع الكلام عن الحب . . فأنت الآن شابة محترمة وعظيمة . . وما أنا

سوى انسان فقير لا يملك من حطام الدنيا شيئًا . . واحمل علامة السجناء فـوق جبينى !

ولكن « جريس » قالت برقة وحنان أكثـر : لا تتحدث يا جون عما تملك أو ما لا تملك . . لقـد عـدت الآن يا جون وأنت أكثر ثراء بتجاربك فى الحيـاة .

واستمر حديثنا جوار نار المدفأة لفترة طويلة . . وتعجبت كثيرًا من أمر تلك الشابة الجميلة العظيمة . . كيف تحتفظ لى بمكان فى قلبها . . وما أنا سوى إنسان فقير لا يملك شيئًا ؟!

* * *

● بقيت فى قصتى بعض التفاصيل الصغيرة . . فقد جاء إلى انجلترا «الهر روستن» وهو أحد رجال القانون الهولانديين الذين يعملون فى «لاهاى» . . وأرسل إلى خطابًا قانونيًا طويلاً يتضمن معلومات فى غاية الغرابة .

يقول الخطاب إن تاجرًا شهيرًا اسمه « ألدوبراند » قد مات أخيرًا وترك كل ثروته لمن يدعى « جون ترنشارد » الذى يعيش بقرية « مون فليت » بانجلترا . . ونظرًا لأن هذا التاجر قد مات دون أن يكون له ابن أو أى وريث شرعى ، فإنه يترك ثروته كلها « لجون ترنشارد » لأنه قد حصل منه بطريق الغش والخداع على جوهرة ثمينة ولم يعطه ثمنًا لها ، بل وأدخله إلى السجن . . ولذلك فهو يترك جميع أمواله بعد موته « لجون ترنشارد » تكفيرًا عن الذنب الذى جناه ضده . . !!

وهكذا عاد إلى ثمن الجوهرة الثمينة . . ولكننا [أنا وزوجتى جريس] قررنا أن نتبرع بكل هذه الأموال للفقراء !

وفى كثير من الأحيان كنا نخرج ـ أنا وجريس ـ للتنزه فى الغابة القريبة . . ونصحب معنا أولادنا : جون الصغيـر . . وجريس الصغيرة . . والزفير الصغيـر!

وهناك نتمتع دائمًا بمنظر الشمس الغاربة ، وهى تلقى أنوارها الذهبية فوق قمم التلال . . ونتمتع بصوت البحر وهدير أمواجه . . !

* * *

جـون شتـاينبك

عنـاقيــد الغضــب

THE GRAPES OF WRATH

JOHN STEINBECK

وقعت أحداث هذه الرواية فى الولايات المتحدة الأمريكية خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين . . حين كان صغار المزارعين فى ولاية «أوكلاهوما» والولايات الوسطى يزرعون القطن عامًا بعد عام مما أدى إلى إنهاك التربة الزراعية وإصابتها بالضعف ، فجفت التربة وتحولت إلى غبار يطير فى الهواء بفعل العواصف الشديدة .

وفى خلال تلك الفترة حدثت أزمة اقتصادية عمت البلاد كلها . وبالتالى فقد امتنعت البنوك عن إقراض هؤلاء المزارعين ، بل وأخذت البنوك تعلن إفلاسها واحدًا بعد آخر . . وهكذا أصبح هؤلاء المزارعون الصغار من أمثال عائلة « جوود » بلا أرض ولا محاصيل ولا مال . . ويعانون من شدة الجوع .

وكان هؤلاء المزارعون يسمعون عن الازدهار الذى تعيش فيه ولاية «كاليفورنيا» ذات الجو الرائع والمحاصيل الزراعية الوفيرة . . وعلموا أيضًا أن أصحاب المزارع الكبرى فى تلك الولاية يحتاجون إلى آلاف من العمال لجنى محاصيلهم . ولذلك فقد قرر الكثيرون من أهالى « أوكلاهوما » الرحيل إلى

الغرب لكى يصلوا إلى « كاليفورنيا » بعد رحلة طويلة صعبة للغاية ، على أمل الحصول على عمل هناك .

ولكن أهالى « أوكلاهوما » الذين رحلوا إلى هناك ، واجهتهم مشاكل من نوع آخر . . فقد كان كبار المزارعين فى « كاليفورنيا » يعانون من صعوبات فى تسويق محاصيلهم الزراعية بسبب وفرتها وزيادة عرضها على الطلب عليها ، فقل بذلك ثمنها ، وأصبحوا يبيعونها دون تحقيق ربح ، بل وبالخسارة فى كثير من الأحيان ، وبالتالى فلم يكن فى مقدورهم دفع أجور العمال الذين يقومون بجمع تلك المحاصيل . . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هؤلاء المزارعون الكبار قليلى الثقة فى العمال الذين يفدون من « أوكلاهوما » وكانوا يسمونهم « الأوكيز » .

وكانت المصيبة الكبرى فى « كاليفورنيا » فى ذلك الزمن . . هى قيام المزارعين الكبار بترك محاصيل الفواكه حتى تتعطن وتتعفن . . بل وكانوا يقومون بحرق محاصيل البن والقطن ، ويلقون بمحصول البطاطس فى الأنهار حتى لا يحصل عليها الناس والجياع بلا ثمن . . ويقومون أيضًا بتدمير المحاصيل الغذائية حتى تظل أسعارها مرتفعة . وهكذا انتشر الجوع بين الرجال والنساء والأطفال . . بينما كانت رائحة الفواكه والخضروات العطنة تملأ أجواء البلاد . . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى حالة عامة من الخوف والغضب .

* * *

وفى « أوكلاهوما » ماتت محاصيل القمح والقطن . . وتحولت التربة الزراعية إلى تراب وغبار تهب عليه الرياح فيملأ الجو ويغطى كل شىء . . الحقول والبيوت والأشجار . .

وفى يوم ما وصلت إلى الطريق السريع شاحنة حمراء ضخمة ، توقفت ونزل منها شاب فى حوالى الثلاثين من عمره . . وانحرف إلى الطريق الفرعى القذر الذى يغطيه التراب . . وكان الشاب يرتدى بدلة فضفاضة مصنوعة من قماش خشن رخيص . . وظل يواصل سيره فى الطريق إلى أن وصل إلى سور مهدم فى بعض أجزائه . . وهنا تذكر الشاب أن هذا السور قد بناه أبوه منذ عدة سنوات حول مزرعتهم « مزرعة عائلة جوود » التى تبلغ مساحتها نحو أربعين هكتارًا . .

وصل الشاب إلى بيت عائلته فوجده خاويًا من أى أثاث ، وخاليًا لا يسكن فيه أى إنسان . . وقال الشاب محدثًا نفسه : يبدو أنهم رحلوا جميعًا . . ولكن إلى أين ؟!

وفى تلك اللحظة رأى الشاب رجلاً طويلاً ذا شعر أشيب كان يسير فى الطريق المجاور . . وتذكر الشاب أن هذا الرجل هو « المبجل كاسى » واعظ القرية فنادى عليه : أيها « المبجل كاسى » . . كيف حالك ؟!

فرد عليه الرجل قائلاً : من أنت ؟ . . هل أنت « توم » ابن العزيز «جوود» . . ؟!

ودار بينهما الحديث التالى :

ـ أين كنت يا « توم » طول هذه المدة ؟ . . لقد رحلت عائلتك إلى ناحية «رانسيس» القريبة وتركوا مزرعتهم خاوية وبيتهم خاليًا . . وسمعت أنهم يفكرون فى الرحيل إلى الغرب حيث الحياة مزدهرة هناك .

ـ ألم تسمع بأنى كنت فى السجن حيث حكم على بسبع سنوات لأننى قتلت رجلاً هاجمنى بسكين ليقتلنى فضربته على رأسه بالجاروف فسقط ميتًا . . وقد أفرجوا عنى بعد أربع سنوات لحسن سيرى وسلوكى .

ـ سمعت أن والدك سيشترى سيارة ليرحل بها هو وعائلته إلى «كاليفورنيا» .

ـ فى الصباح سأذهب إليهم فى « رانسيس » . . فهل ستأتى معى ؟

ـ نعم سأذهب معك . . وعندما يقرر أهلك الرحيل إلى «كاليفورنيا» سأكون معهم !

ثم استغرق الرجلان فى النوم . . بينما بدأت الحيوانات الصغيرة تخرج من جحورها بحثًا عن أى شىء يؤكل !

❊ ❊ ❊

استيقظ الرجلان قرب الفجر وقبل أن تشرق الشمس . . وبدآ فى السير وهما صامتين إلا من بعض كلمات كانا يتبادلانها بين حين وآخر . . إلى أن وصلا أخيرًا إلى « رانسيس » . . وهناك شاهدا بيتًا خشبيًا أشبه ما يكون بصندوق ضخم غير مطلى . . وأمام مدخل البيت كانت هناك كومة من الأثاث القديم . . أسرة . . ومقاعد . . ومناضد . . إلخ .

وكانت هناك سيارة نصف نقل قديمة تقف وسط الفناء . . وفى هذه اللحظة شاهد « توم » أباه وهو يقوم بتحميل السيارة ببعض قطع الأثاث . . فتقدم منه وقال : أبى ! . . ولكن الأب العجوز لم يلتفت إليه وقال مزمجرًا : هاه . . ماذا تريد ؟ !

كان الأب يرتدى قبعة سوداء قذرة وقميصًا أزرق وبنطلونًا قديماً . . وحين رفع نظره ليرى من يحدثه صاح فى فرح : تومى ! . . لقد عدت يا تومى إذن! . . هل هربت من السجن . . إنك لن تستطيع أن تختبئ فى أى مكان!

فقال « توم » : لا يا أبى . . فقد أفرجوا عنى لحسن السير والسلوك . . وها هى الأوراق التى تثبت ذلك !

قال الأب بعد أن اطمأن : تومى . . نحن سنرحل إلى كاليفورنيا . . ويمكنك أن ترحل معنا . . والآن هيا لنفاجئ أمك بحضورك . . فقد كانت قلقة عليك ولديها إحساس كئيب بأنها لن تراك مرة ثانية .

كان « كاسى » واقفًا فى صمت وهو يشاهد اللقاء بين الأب وابنه الذى كان غائبًا منذ سنوات . . وعندما رآه الأب ، رحب به . . ثم التفت إلى ابنه «توم» وقال : ولكن كيف سنبلغ أمك بهذا الخبر الذى سيسعدها ؟ . . هل أقول لها لدينا ضيوف فى حاجة إلى تناول طعام الإفطار ؟ . . على أية حال هيـا بنـا . . فأنا أريد أن أرى وجهها حين تراك أمامها !

وعندما اقتربا من مدخل البيت . . كانت هناك رائحة خشب يحترق . . مختلطة برائحة لحم مشوى . . وخبز . . وقهوة . . وكانت الأم منهمكة فى

العمل ، وهى ترتدى رداء طويلاً . . وقدماها الحافيتان قويتان . . وشعرها أشيب . . وأدركت أن زوجها قد حضر ومعه أحد الضيوف ، لذلك فقد قالت مرحبة : من حسن الحظ أنى صنعت مزيدًا من الخبز !

وعندما أدركت أن الضيف هو ابنها . . ألقت عصا الفرن على الأرض ، واندفعت نحوه ، ووجهها ملىء بالسعادة والفرح ، قالت : حمدًا لله . . حمدًا لله ! . . ولكنها سرعان ما اعتراها الخوف فقالت : تومى . . هل هربت من السجن ؟! . . فأفهمها « توم » بأنهم أطلقوا سراحه لحسن سيره وسلوكه . . فقالت وهى تبكى : كنا على وشك الرحيل بدونك . . ولكنك جئت فى الوقت المناسب وسترحل معنا . . !

والتفتت الأم إلى زوجها وطلبت منه أن يذهب ليخبر الجد والجدة بعودة «توم» . . الحقيقة أن هذه الأم كانت مركز العائلة القوى . . وهى تدرك ذلك تمامًا . . وتقوم بحماية الأسرة من أى حدث ضار يقع لأى فرد من أفرادها . . وعندما وصل الجد والجدة ـ وهما عجوزان هرمان ـ قام الجد بالترحيب « بتوم » ثم تساءل : أين طعام إفطارى ؟! . . فقامت الأم على الفور بتوزيع الأطباق التى تحتوى على الخبز ومرق اللحم . . وبدأ الجميع فى تناول إفطارهم .

وبعد تناول القهوة . . توجـه الأب و « توم » إلى السيارة نصف النقل . . وعلى الفور رفع « توم » غطاء المحرك وأخذ يفحص أجزاء المحرك . . فقال له الأب : إن أخاك « آل » قد قام بفحص محرك هذه السيارة قبل أن نشتريها .

وتساءل « توم » : منذ متى يعرف « آل » محركات السيارات . . ؟!

أجاب الأب : لقد كان يعمل فى إحدى الشركات . . وكان يقود سيارة شحن كبيرة خلال العام الماضى !

وهنا تساءل « توم » : ولكن أين هو الآن . . وأين « روز » . وأين «روث» و « وينفيلد » . . ؟!

أجاب الأب : ذهب « آل » إلى المدينة ليبيع شيئًا . . وأخذ معه «روث» و « وينفيلد » . . أما أختك روز فهى عند عائلة زوجها « كونى » . . فقد تزوجت من « كونى » وهو شاب لطيف . . وهى الآن حامل فى شهرها الرابع !

وهنا قال « توم » : يبدو أن أشياء كثيرة قد حدثت أثناء غيابى . . وعلى أية حال ، متى سترحل الأسرة إلى الغرب . . هل حددت موعدًا للرحيل يا أبى . . ؟!

قال الأب : نعم . . ربما نستطيع أن نرحل غدًا أو بعد غد . . ولقد أخبرنى أحد الأشخاص بأن المسافة إلى كاليفورنيا حوالى ألفى ميل . .

وسأله « توم » : كم معك من النقود يا أبى . . فليس معى سوى دولارين اثنين .

أجاب الأب : لقد قمنا ببيع بعض الأشياء . . وجمعنا مائتى دولار . . دفعنا منها خمسة وسبعين دولارًا لشراء هذه السيارة القديمة . . ويجب أن

نتخلص من باقى الأشياء المكومة فى الفناء ببيعها . . وفى هذه الحالة سيكون معنا حوالى مائة وخمسين دولارًا عندما نرحل .

وقال « توم » : سأذهب بالسيارة إلى المدينة لاحضار « آل » والطفلين . . لقد تعلمت قيادة السيارات أثناء فترة السجن !

* * *

وفى فترة بعد الظهر ، وصلت السيارة إلى فناء البيت ، وكان « توم » يقودها ويجلس « آل » بجانبه فى كابينة السيارة ، وعلى ظهرها ، كانت تجلس «روزا» مع زوجها « كونى » . . و « روث » التى تبلغ الثانية عشرة . . و « وينفيلد » الذى يبلغ العاشرة .

كان « توم » و « آل » يشعران بشىء من الحزن لأنهما باعا الأشياء التى عرضاها للبيع مقابل ثمانية عشر دولارًا ، فى حين أن هذه الأشياء كانت تساوى أكثر من ذلك ، ولكن الحاجة الملحة للنقود جعلتهما يقبلان بيعها بهذا الثمن الرخيص .

تجمع جميع أفراد الأسرة بجوار السيارة . . وقال الأب : أرجو أن تعلموا أن كل ما لدينا من نقود هو مائة وخمسون دولارًا . . وأن « آل » يقول إن السيارة فى حاجة إلى إطارات جديدة لا بد أن نشتريها . . وعلى أية حال ، فإن علينا أن نستعد فورًا للرحيل . . فهم يقولون إن المسافة إلى كاليفورنيا تبلغ نحو ألفى ميل . . فيا له من طريق طويل !

وهكذا بدأ الجميع فى إحضار كل ما كانوا يحتاجونه من أدوات وآلات

ومراتب وبطاطين مهترئة . . وأوانى وأطباق . . وكل شىء آخر يمكن أن ينفعهم أثناء تلك الرحلة الطويلة . . وقاموا بترتيب هذه الأشياء كلها فى صندوق السيارة ، ووضعوا فوقها المراتب وغطوها بمشمع كبير . . وكانت الأم قد أعدت بعض الطعام لتتناوله الأسرة أثناء السفر .

وجلست الأم والجدة فى كابينـة السيارة بجـوار « آل » بينما ركب الجـد والأب ، وروزا وزوجها كونى ، وروث ، ووينفيلد ، وتوم ، والواعظ كاسى ، وجلسوا جميعًا فوق الحمولة . . وبدأت السيارة فى التحرك عبر الطريق المترب ، متجهة إلى الطريق السريع المؤدى إلى الغرب . . وقال « آل » وهو يقود السيارة فى بداية تلك الرحلة : يا لها من حمولة ثقيلة . . ويا له من طريق طويل . . !!

* * *

وظلت السيارة تمضى ببطء بحمولتها الثقيلة فى الاتجاه غربًا نحو الطريق السريع . . وبازدياد حرارة الشمس ، بدأ البخار يتصاعد من مبرد السيارة بسبب غليان الماء . . وعندما اقتربوا من أحد الأكواخ رأوا أمامه مضختين للبترول وصنبورًا للمياه ، فتوقف «آل» بجانب خرطوم الصنبور . . وعلى الفور خرج من الكوخ رجل سمين سألهم بغضب : هل تنوون شراء أى شىء . . أم انكم تريدون الحصول على الماء بدون مقابل . . هل معكم نقود . . ؟!

أجابه « آل » : نعم . . معنا نقود . . ونحن فى حاجة إلى وقود .

فقال الرجل : إذن يمكنكم استخدام الصنبور . . إن هذا الطريق

أصبح مزدحمًا بالبشر . . الذين يريدون الحصول على الماء دون أن يشتروا شيئًا . . لا أدرى ماذا جرى لهؤلاء الناس . . كل يوم تمر هنا خمسون أو ستون سيارة وكلهم يتجهون نحو الغرب . . لماذا . . ؟!

فأجابه « توم » : إنهم يفعلون ما نفعله نحن الآن . . يبحثون عن عمل ومكان يعيشون فيه .

وبعد أن تم تزويد السيارة بالوقود والماء . . تولى « توم » قيادة السيارة بدلاً من « آل » . . إلى أن وصلوا أخيرًا إلى الطريق رقم ٦٦ وهو طريق الغرب السريع . . فقال توم : سنظل نسير على هذا الطريق طوال الرحلة حتى نصل إلى كاليفورنيا .

وعندئذ قالت الأم : ينبغى أن نجد مكانًا نتوقف فيه قبل غروب الشمس حتى أتمكن من عمل الخبز وطهى بعض الطعام !

وعلى جانب الطريق شاهدوا سيارة قديمة واقفة وبجوارها خيمة صغيرة ويتصاعد الدخان من موقد مجاور للخيمة . وكان غطاء محرك السيارة مفتوحًا ويبدو أنها كانت معطلة . . فتوقف « توم » بجوار تلك السيارة وسأل صاحبها : هل يمكن التوقف بجانبكم أثناء الليل . . ؟

أجاب صاحب السيارة : بكل سرور ! . . ثم نادى على زوجته التى كانت موجودة بداخل الخيمة قائلاً : سارى . . تعالى . . هناك بعض الضيوف ! . . فخرجت من الخيمة امرأة نحيفة قالت بصوت جميل : أهلاً بكم . . أيها الناس الطيبون !

* * *

ركن « توم » السيارة خلف السيارة الأخرى . . وهبط جميع من كانوا فى السيارة . . وبدأت الأم تعمل بهمة . . وقالت للأطفال : إذهبوا لتجمعوا بعض الأخشاب لنشعل بها نارًا لطهى الطعام .

وسأل « آل » صاحب السيارة الأخرى : يبدو أن سيارتكم قد تعطلت . . وسأحاول إصلاحها . .

وفجأة . . بدأ الجد فى البكاء . . فاندفعت إليه الأم واحاطته بذراعيها . . وقالت «سارى» : يبدو انه تعبان . . أدخلوه إلى خيمتنا حتى يستريح .

وقامت الأم بمساعدة الجد فى الدخول إلى الخيمة . . وبعد أن خرجت ، نظرت إلى « كاسى » وقالت : الجد مريض . . مريض جدًا . . تعال وساعده بصلاتك !

وعندما دخل « كاسى » إلى الخيمة وبدأ صلاته . . كان الجد يتنفس بصعوبة فى لحظاته الأخيرة . . وانتفض جسده مرة واحدة . وواصل «كاسى» صلاته . . وهنا قال الأب : يجب أن نفكر فيما سنفعله . . فليس معنا سوى مائة وخمسين دولارًا لدفنه . . ولذلك فيجب أن ندفنه هنا . . ونكتب بياناته فى ورقة نضعها فى زجاجة ندفنها معه !

اقتنع الجميع بهذا الرأى . . وأحضر الرجال أدوات الحفر . . وقامت الأم بغسل الجثة و إعدادها للدفن . . ووقفت العائلتان ـ عائلة « جوود » وعائلة «ويلسون» ـ حول القبر . . وألقى « كاسى » موعظة قصيرة .

ثم قام « توم » و « آل » باصلاح سيارة « ويلسون » . . وقال « توم » :

إن حمـولة سيارتنا زائـدة فى حين أن سيارة « ويلسون » ليست كذلك . . ويمكننا أن نوزع الركاب على السيارتين . . على أن تسير السيارتان معًا طوال بقية الرحلة .

وهنا قال « ويلسون » : ليس معى سوى ثلاثين دولارًا . . ولا نريد أن نكون عبئًا عليكم .

فقالت الأم : لن تكونا عبئًا علينا . . لقد ساعدتمونا عندما مات الجد . . سوف نواصل الرحلة معًا . . والآن هيا لكى ننام قليلاً !

* * *

فى الصباح الباكر ، انطلقت السيارتان تحملان عائلة « جوود » وعائلة «ويلسون» . . واجتازوا حدود ولاية أوكلاهوما ، ودخلوا إلى ولاية تكساس . . وأصبح الطريق السريع مأواهم ، فغيروا أسلوب حياتهم . . وكانوا يقطعون المسافات الشاسعة حتى خرجوا من ولاية تكساس ودخلوا إلى ولاية نيومكسيكو بجبالها العالية .

كان « آل » يقود سيارة عائلة « ويلسون » . . ولاحظ وجود صوت فرقعة بدأ يصدر من المحرك . . فأبطأ سرعة السيارة وأعطى إشارة للسيارة الأخرى وتوقف إلى جانب الطريق . . فتوقفت السيارة النصف نقل التى كان يقودها « توم » الذى تساءل عن سبب التوقف . فقال « آل » بعد أن أدار المحرك : اسمع هذا الصوت . . انه عمود الإدارة . . أليس كذلك يا « توم ».. . ؟!

قال « توم » : هذا صحيح .

وقال « ويلسون » : هل ذلك أمر خطير .

قال « توم » : طبعًا . . فيجب أن نفك عمود الإدارة ، ونحصل على عمود جديد نقوم بتركيبه .

قال « ويلسون » : إنها غلطتى . . فسيارتى القديمة المتهالكة هذه هى السبب فى كل المتاعب . . وعليكم أن تواصلوا طريقكم وتتركونا هنـا . . أنا و « سارى » !

لم يوافق أحد على ذلك . . وقام « آل » بقيادة السيارة النصف نقل متجهًا إلى أقرب مكان لشراء عمود جديد . . وقام « توم » و « كاسى » بفك عمود الإدارة انتظارًا لوصول العمود الجديد . . وعندما عاد « آل » قام بمساعدة «توم» بتركيب العمود الجديد وربط الصواميل . وعادت السيارتان إلى السير فى الطريق السريع حتى وصلتا إلى معسكر به بعض الخيام وتقف بجانبها بعض السيارات . فاستقبلهم صاحب المعسكر الذى كان يجلس على كرسى بجوار البوابة وقال : المبيت هنا سيكون بمقابل نصف دولار .

فقـال « توم » : لـن نبيت فى معسكرك . . ولكننا سنبيت هنـا على جانب الطريق .

فقال الرجل : هناك قانون فى هذه الولاية يمنع ذلك . . وستتعرضون إلى مشاكل .

وقال « توم » : إننا لسنا فى نزهة . . وإنما نحن ذاهبون إلى البحث عن عمل فى كاليفورنيا !

وأثناء هذا الحديث ، كان هناك رجل يرتدى ملابس رثة ، وأخذ يضحك عندما سمع كلمة كاليفورنيا . . وتدخل فى الحديث قائلاً : إذن انتم ذاهبون إلى كاليفورنيا للبحث عن عمل . . أنا عائد من هناك بعد أن ذهبت مع أسرتى للبحث عن عمل . . إن أصحاب الأعمال هناك يستعبدون العمال ويعطونهم أقل الأجور . . ولا توجد أعمال كافية ليعمل فيها كل الوافدين إلى كاليفورنيا . . وهأنذا عائد إلى بلدى بعد أن تضورت جوعًا أنا وأسرتى . . لقد مات طفلاى وماتت زوجتى لأننا كنا لا نجد ما يكفينا من طعام . . وظللت ألهث لمدة عام كامل محاولاً العثور على أى عمل فلم أجد سوى الجوع والذل .

واستدار الرجل ذو الملابس الرثة بعد هذا الحديث المفاجئ . . ومشى ببطء إلى أن اختفى فى الظلام . . وعاد الجميع إلى أماكنهم فى السيارتين !

* * *

واصلوا الطريق باتجاه الغرب . . وعبروا جبال نيومكسيكو . . ووصلوا إلى منطقة أريزونا المرتفعة . وقادوا السيارتين طوال الليل . . وفى ضوء الفجر شاهدوا نهر كلورادو ، فتوقفوا جوار الشاطئ . وجلسوا فوق السيارتين . وقال الأب : ها قد وصلنا . . نحن الآن فى كاليفورنيا !

فقال « توم » : مازالت الصحراء أمامنا . . وعلينا الآن أن نستريح ونحصل على ما يكفينا من الماء .

كان هناك رجل وابنه جالسين فى مكان مجاور ، فتقدم إليهما الأب وسأل الرجل : هل ستذهبان إلى الغرب . . ؟

قال الرجل بأسى : لا . . لقد عدنا من هناك . . وسوف نعود إلى بلدنا . . فمن الأفضل أن نموت من الجوع وسط أناس نعرفهم . . بدلاً من أن نموت جوعًا فى مكان أهله يكرهوننا كراهية لا تطاق ولا تحتمل !

قال الأب : انت ثانى رجل يقول لنا مثل هذا الكلام . . ونريد أن نعرف المزيد !

وقال « توم » : ولكن . . لماذا يكره أهل الغرب الوافدين عليهم . . ؟!

فقال الرجل : اذهب إلى هناك لتعرف بنفسك . . إن كاليفورنيا بلاد جميلة . . كلها بساتين وأعناب . . ولكنها ليست لكم . . لو انكم زرعتم قليلاً من القمح فسوف تتعرضون للسجن . . والناس هناك يكرهونك ويحتقرونك . . ويعتبرونك انسانًا قذرًا . . هناك ثلاثمائة من أهل بلدى يعيشون هناك عيشة الكلاب . . ولن يمكنك الحصول على عمل دائم . . وحتى إن حصلت على عمل مؤقت فسوف يعطونك أقل الأجور . . تصور أن ثمار البرتقال تملأ الأشجار . . ولكن الحراس المسلحين يقفون بالمرصاد وعلى استعداد لإطلاق النار عليك إذا لمست برتقالة واحدة . . إذهبوا إلى هناك لتروا كل شىء بأنفسكم !!

كان الجميع جالسين على الأرض تحت ظل الأشجار ، وكانت الجدة مستلقية على حشية والأم جالسة بجوارها ، ورأت الأم أحد رجال الشرطة يحمل سلاحًا ويتقدم نحوها ، وقال : هيا . . قوموا من هنا . . إذا بقيتم هنا فسوف آخذكم إلى السجن !

أخبرت الأم بقية الرجال بتهديد رجل الشرطة . . وطلبت منهم الاستعداد فورًا للرحيل . ولكن « ويلسون » قال : لا يمكننا أن نرحل معكم . . إن «سارى» مريضة ولا بد أن تستريح . . ولا يمكنها أن تعبر الصحراء وهى فى هذه الحالة . . وإذا كان رجل الشرطة سيقبض علينا . . فليقبض علينا .

والتفت « ويلسون » إلى « كاسى » وقال : « سارى » تريد أن تراك .

فقال الواعظ : هل أنت متأكد من ذلك ؟!

وذهبت الأم مع الواعظ إلى حيث ترقد « سارى » وعادت بعد قليل ولم تقل شيئًا . . وكان الرجال قد حملوا الجدة بالمرتبة التى كانت ترقد عليها ووضعوها فوق السيارة . . وأخرج الأب بعض النقود من جيبه ، وأحضر بعض البطاطس واللحم وقال « لويلسون » : نريدك أن تأخذ هذا الطعام وهذه النقود .

فقال « ويلسون » : لا . . لن أفعل ذلك .

فأخذت الأم النقود من الأب ووضعت الطعام فوقها وقالت : إذا لم تأخذها فسوف يأخذها شخص آخر .

وهنا قال « توم » : علينا أن نرحل الآن فورًا . . فالساعة قاربت الرابعة . . وأمامنا مسافة طويلة حتى ننتهى من عبور الصحراء !

وصعد أفراد عائلة « جوود » إلى صندوق السيارة . . وجلست الأم على قمة الحمولة بجوار الجدة . . وجلس « توم » و « آل » والأب فى كابينة السيارة . . أما باقى أفراد العائلة فقد جلسوا فى صندوق السيارة .

وقام الجميع بتوديع «ويلسون » وزوجته وانطلقت بهم السيارة . . وفى آخر محطة لخدمة السيارات قبل الوصول إلى الصحراء ، قام « توم » بشراء زيت ووقود ، وملأ مبرد المحرك بالماء . . وتمم على الإطارات . وانطلقت السيارة نحو الصحراء .

وكان هناك رجلان يعملان فى هـذه المحطـة . . قال أحدهما للآخر : كيف سيعبر هؤلاء الأغبياء الصحراء بهذه السيارة المتهالكة . . إنهم ليسوا من البشر مثلنا . . فالبشر لا يمكن أن يقبلوا العيش فى مثـل هذه القـذارة وهذا البـؤس .

فقال الآخر : انهم لا يدركون خطورة عبور الصحراء على هذا النحو . . ولكن لماذا تأسف عليهم . . فليذهبوا إلى الجحيم ! !

* * *

مالت الشمس إلى المغيب عندما بدأوا فى عبور الصحراء . . فقد كان من المستحيل السير فى تلك الصحراء أثناء النهار بشمسه الحارقة . . ومرت ساعات الليل والسيارة تنهب الطريق وسط الظلام . . وأحيانًا كانت تمر بهم بعض السيارات المتجهة إلى الغرب . . أو بعض الشاحنات الضخمة المتجهة إلى الشرق بهديرها المزعج . . وعندما انتصف الليل كانوا قد وصلوا إلى نقطة التفتيش عند مدخل مدينة « داجاتا » . . وخرج أحد ضباط التفتيش ومعه كشاف وطلب انزال حمولة السيارة لكى يقوم بالتفتيش . . فسأله « توم » : لماذا تفتشون . . إننا لا نحمل أشياء ممنوعة ؟!

قال الضابط : أنه تفتيش زراعى . . لنرى إذا كان معكم أية خضراوات أو حبوب . . هذه هى الأشياء الممنوعة .

وهنا نزلت الأم من صندوق السيارة وقالت للضابط : معنا يا سيدى سيدة عجوز مريضة جدًا . . ولا بد من عرضها على طبيب فى أقرب فرصة ممكنة . . إن حالتها سيئة . . سيئة جدًا !

وصعدت الأم إلى صندوق السيارة ، وكشفت عن وجه الجدة العجوز حتى يراها الضابط . فقام الضابط بتوجيه ضوء الكشاف إلى وجه الجدة ، وقال انها مريضة فعلاً . . ويمكنكم عرضها على أى طبيب فى المدينة التالية . . مع السلامة !

وانطلقت السيارة بقيادة « توم » مرة أخرى إلى أن توقف عند مدخل المدينة التالية ، وتوجه إلى صندوق السيارة . . ليسأل أمه عن حالة الجدة ، فقالت الأم : إنها على ما يرام الآن . . هيا واصل القيادة حتى ننتهى من عبور الصحراء .

وتولى « آل » قيادة السيارة بدلاً من « توم » . . وبدأ ضوء الفجر يعلو فوق خط الأفق . . فشاهدوا جبال الغرب العالية . . ثم قاموا بتزويد السيارة بالوقود والمياه . . ثم واصلوا السير عبر الجبال . . وهنا قال « توم » بفرح : الحمد لله . . لقد عبرنا الصحراء . . !

وفجـأة ، شاهدوا واديًا عظيماً تحتهم . . فتوقفت السيارة . . وصاح «توم»: انظروا . . ها هى مزارع الكروم ومزارع الخوخ تمتد على طول الوادى

الفسيح . . لقـد وصلنـا إلى كاليفورنيا . . أين أمـى لكى تشاهد هذا المنظر الجميـل .

هبطت الأم من فوق صندوق السيارة وكانت متعبة ، ولكنها قالت : شكرًا لله . . لقد وصلت العائلة إلى هذا المكان .

وسألوها عن حالة الجدة فقالت بحزن : لقد ماتت الجدة . . قبل أن نصل إلى نقطة التفتيش ليلة أمس . . لقد اتيحت لها الفرصة لكى تدفن فى أرض جميلة خضراء بدلاً من دفنها فى رمال الصحراء . . هيا . . واصلوا الطريق حتى نعرف أين سنقيم !

وقال « توم » : يجب أن نبحث عن مكان مكتب الصحة أينما وجـد . . فلا بد أن ندفن الجدة بشكل قانونى سليم .

وعادت السيارة إلى السير . . وهبطت من الطريق الجبلى فى اتجاه الوادى الأخضر .

* * *

هناك مجموعة من الحقائق لا بد من معرفتها . . فقد كانت كاليفورنيا منذ زمن بعيد مملوكة للمكسيكيين . . ثم جاء الأمريكيون وكلهم نهم وطمع فى امتلاك الأرض والاستيلاء عليها بالقوة الغاشمة . . وبعد فترة من الزمن نسى الأمريكيون طريقة استيلائهم على تلك الأراضى التى امتلكوها . . واتجهت أطماعهم إلى حب المال . . فتحولوا إلى أصحاب محلات تجارية ثم

إلى رجال أعمال . . وأصبحوا لا يعرفون شيئًا عن الأراضى المملوكة لهم ولا المحاصيل التى تزرع فيها . .

وعندما فقد المزارعون الصغار أراضيهم فى ولايات كنساس وتكساس وأوكلاهوما ، نزح أكثر من مائتى ألف جائع ومشرد إلى الغرب بحثًا عن عمل . . وازدادت أعدادهم فيما بعد . . وكان هؤلاء الوافدون الجدد يأملون فى الحصول على عمل ومأوى . . ولكنهم لم يجدوا سوى الكراهية والاحتقار . . وأصبحوا هم ومن يعولونهم من نساء وأطفال يتضورون من شدة الجوع والبؤس والضياع . . بينما كان ملاك الأراضى يعيشون مرفهين وتمتلئ بطونهم بأفخر أنواع الطعام !

وكان أصحاب المحلات التجارية يكرهون هؤلاء الوافدين لعدم وجود نقود معهم يشترون بها شيئًا . . وهكذا فقد تم إجبار هؤلاء الوافدين البؤساء على العيش فى خيام خارج المدن . . وفى عشش مبنية من الكرتون والصفيح . . ومع ذلك فقد كان أهالى كاليفورنيا يخشونهم ويحرقون الخيام والعشش باعتبارها أماكن خطرة تنتشر منها الأمراض .

وكان أهالى كاليفورنيا يخشون ظهور قائد أو زعيم يتولى قيادة وتحريض هؤلاء المئات من الآلاف من الوافدين حتى يثأروا لكرامتهم المهدرة ويحصلوا على حقوقهم الضائعة . . لذلك فقد كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم لتحطيم وتفريق هؤلاء البؤساء من المهاجرين .

* * *

وصلت السيارة إلى مدينة « بيكرز فيلد » وتوجهت إلى مكتب الصحة ، حيث حمل الأب والأم جثمان الجدة ، وخرجا بعد أن قاما باتخاذ إجراءات دفنها. وقالت الأم: هيا نواصل السير لنبحث عن عمل ومكان نستقر فيه !

وواصلوا السير حتى وجدوا معسكرًا عبارة عن مجموعة من الخيام وبعض عشش الكرتون والصفيح ، وبجوار كل خيمة أو عشة تقف سيارة قديمة . وعندئذ قالت الأم : هيا ننصب خيمتنا فى هذا المكان .

وبعد أن أنتهوا من نصب الخيمة . . رأى « توم » شابًا كان يقوم بمحاولة إصلاح سيارته ، فتقدم منه « توم » وسأله : ألا يوجد عمل هنا أو فى أى مكان قريب ؟

فقال الشاب : لا . . لا توجد محاصيل فى الوقت الحالى . . ولم يحن بعد موعد قطف العنب . . أو جمع القطن .

وقال « توم » : ولكن هناك إعلانًا يطلبون فيه ثمانمائة رجل لجمع المحاصيل.

فقال الشاب : يقولون إن ثلاثمائة ألف رجل جاءوا بناء على هذا الإعلان . . هذه هى طريقتهم فى الاستغلال . . لو إنك صاحب عمل وتقدم إليك شخص واحد فسوف تدفع له الأجر الذى يطلبه . . أما إذا تقدم إليك مائة رجل وكل منهم يعول أطفالاً ، فسوف يتقاتلون للحصول على العمل بأقل الأجور . . إن آخر عمل قمت به كانوا يدفعون لى خمسة عشر سنتًا فى الساعة .

قال « توم » : لكنى رأيت بعض المحاصيل قد نضجت تمامًا وحان قطافها وجمعها .

قال الشاب : هـذا صحيح . . فقـد نضج محصول الخوخ . . وهم فى حاجة إلى ثلاثمائة ألف رجـل لـمدة أسبوعين لجمـع المحصـول . . وبعـد ذلك فلـن يكونوا بحـاجة إليـك ويطـردونك شـر طـردة . . ويبعـدونك عـن المنطقـة .

قال « توم » غاضبًا : ولكن إذا قام العمال بالإضراب عن جمع الخوخ وتركوه حتى يفسد فأعتقد فى هذه الحالة أن أصحاب الأراضى سيدفعون الأجر المناسب .

قال الشاب : هذا صحيح . . ولكن عندما سمعوا أحد العمال وهو يتحدث بمثل هذا الكلام . . قبضوا عليه فورًا وأودعوه فى السجن .

فى ذلك الوقت كانت « روزا » جالسة بداخل الخيمة بجوار زوجها «كونى» الذى كان غاضبًا إلى أقصى حد وقال لها : لو كنت أعلم أن الأمور ستصبح بهذا القدر من السوء ما كنت قد جئت معكم إلى هنا . . ولبقيت فى بلدى وواصلت دراستى فى ميكانيكا الجرارات . . وكنت سأحصل على ثلاثة دولارات نظير قيادة جرار .

قالت « روزا » : لا تحزن يا « كونى » سوف تدرس هنا كيفية عمل وإصلاح أجهزة الراديو . . وسوف يكون لنا بيت قبل أن يأتى الطفل الذى أحمله فى بطنى !

وخرج « كونى » من الخيمة . . واستلقت « روزا » على ظهرها ، وبدأت فى البكاء !

وكانت الأم قد أوقدت نارًا خارج الخيمة لتقوم بطهى بعض الطعام . . وفجأة تجمع حولها بعض أطفال الجيران لعلها تعطف عليهم بقطعة من اللحم أو بلقمة من الخبز . . وقالت لها إحدى البنات بأدب : أستطيع أن أساعدك يا سيدتى بتكسير بعض الأخشاب .

فسألتها الأم : أتودين أن ندعوك إلى الطعام . . ؟

فقالت البنت : نعم . . أرجوك ! . . لقد بقينا فى كاليفونيا منذ حوالى ستة شهور . . وكنا نعيش فى معسكر الحكومة . وهو مكان نظيف به دورات مياه وحمامات ويمكنك غسل الملابس بماء الصنابير . . كما يقام حفل موسيقى راقص مساء كل يوم سبت . . ولكن عائلتى تركت هذا المعسكر للبحث عن عمل . . وعندما عدنا إليه . . كان المعسكر ممتلئًا عن آخـره !

وهنا تنهدت الأم وقالت لنفسها : لا بد أن نذهب إلى هذا المعسكر ونعيش هناك ! . . وطلبت الأم من « وينفيلد » أن يذهب لاستدعاء جميع أفراد الأسرة لتناول الطعام الذى أعدته الأم ووضعته فى أطباق معدنية قامت بتوزيعها على أفاد أسرتها وهى تشعر بحرج لوجود الأطفال الذين يتطلعون إلى الطعام بشغف . . فقالت لهم : هذا هو وعاء الطهى . . وعليكم أن تحصلوا على ما تبقى فيه .



وبعد أن انتهى « آل » من تناول الطعام ، قال لأخيه « توم » : هيا بنا لنساعد الشاب فى إصلاح سيارته . . لقد علمت أن اسمه « فلويد » . وقام «آل» بتقديم « توم » إلى « فلويد » حيث قام الرجال الثلاثة بالتعاون فى إصلاح السيارة . . وفى أثناء قيامهم بهذا العمل قال « فلويد » : سيكون هناك عمل فى الشمال . . فقد حان الآن موعد جمع ثمار الكمثرى . . ومزارعها تبعد بنحو مائتى ميل من هنا .

فقال « توم » بأسى : كنت أتمنى أن نجد عملاً هنا . . ونستأجر بيتًا نقيم فيه .

فقال « فلويد » : هناك أشياء يجب أن تعرفها . . فلن تتاح لك فرصة الاستقرار فى مكان ما . . فليس هناك عمل دائم .

وفى هذه اللحظة توقفت بجانبهم سيارة كبيرة جديدة نزل منها رجل قال لهم : أترغبون فى العمل أيها الرجال . . نحن فى حاجة لعدد كبير لجمع الفاكهة .

سأله « فلويد » : أين . . وكم تدفعون . . ؟

قال الرجل : فى منطقة « توليز » وسيكون الأجر ثلاثين سنتًا فى الساعة تقريبًا . . ربما يزيد أو يقل قليلاً !

قال « فلويد » : لقد صدقت هذه الألاعيب مرتين من قبل . . فقد يكون الواحد منهم فى حاجة إلى ألف رجل ، فيجد أمامه خمسة آلاف رجل . . وعندئذ يخفض الأجر إلى خمسة عشر سنتًا فى الساعة . .

وهنا قام الرجل بالنداء على رجل الشرطة الذى كان جالسًا فى السيارة ، فنزل رجل متين البنيان يضع على صدره نجمة مأمور الشرطة ويتمنطق بمسدس . . وأشار الرجل إلى « فلويد » وسأل المأمور : هل رأيت هذا الشخص من قبل . . انه يتكلم مثل الشيوعيين الحمر ويثير القلاقل !

قال المأمور بقسوة : نعم . . رأيته من قبل وهو يقود تلك السيارة المسروقة! . . هيا أصعد يا رجل إلى السيارة فأنت مقبوض عليك !

وهنا تساءل « توم » : لماذا . . إنه لم يرتكب خطأ يحاسب عليه .

فقال المأمور : لو تكلمت أكثر من ذلك فسوف نقبض عليك أنت الآخر . . فالزم الصمت .

وكان بعض الرجال قد تجمعوا ليروا ما يحدث ، فقال لهم المأمور : إن هذا المعسكر قذر ولا بد أن نزيله فورًا . . وسوف نشعل فيه النار غدًا .

وعندما أمسك المأمور بذراع « فلويد » . . ضربه « فلويد » ضربة قوية فى وجهه ، وفر هاربًا . . وعندما استدار المأمور وشرع فى الجرى خلفه ، وضع « توم » قدمه فى طريقه فسقط المأمور على الأرض منكفئًا على وجهه . وعلى الفور أخرج المأمور مسدسه وأطلق النار . . فصرخت إحدى النساء بعد أن أصابت الرصاصة أصابعها .

وعندما استعد المأمور لإطلاق النار مرة ثانية . . ظهر « كاسى » فجأة من بين الحشد المتجمع ، وركل المأمور فى رقبته . . وهنا أسرع الرجل

بالدخـول إلى السيارة التى كان يركبها وانطلق هاربًا . . فالتقط « توم » مسدس المأمور ، وأفرغه من الرصاص ، وألقاه بين الشجيرات الكثيفة .

واقترب « كاسى » من « توم » وقال له : يجب أن تهرب من هنا . . فقد رآك المأمور وأنت تمد قدمك لتعرقله . . ولا تنسى أنك مازلت تحت المراقبة ، ولسوف يرسلونك إلى السجن .

وسمع الرجال المتجمعون صوت « سارينة » سيارة شرطة قادمة من بعيد ، فتفرق الرجال على الفور ودخلوا إلى خيامهم . ولم يبق منهم سوى «كاسى» و « آل » . فقال كاسى : هيا أدخل يا « آل » إلى خيمتكم .

فسأله « آل » : ولكن ماذا عنك أنت ؟

قال « كاسى » : لا بد أن يقع العقاب على أحد الأشخاص . . وأنا ليس لدى أطفال . . أما أنت فإذا وقعت فى مشاكل فسوف يكون من السهل العثور على « توم » ويرسلونه إلى السجن .

وظلت « سارينة » سيارة الشرطة تدوى حتى توقفت بجوار « كاسى » . . ونزل منها أربعة رجال باسلحتهم . . وسأله أحدهم : ماذا يحدث هنا بحق الشيطان ؟!

قال « كاسى » بهدوء : لقد طرحت هذا المأمور أرضًا . . فقد كان يصرخ فينا وأصاب امرأة . . ولذلك فقد ضربته .

فقال أحد رجال الشرطة : هيا اركب السيارة . . أنت مقبوض عليك !

أفاق المأمور وأخذ يحملق فى « كاسى » وقال : إن هذا الرجل لا يشبه الشخص الذىِ ضربنى !

فقال « كاسى » : لا . . أنا الذى ضربته . . وسأذهب معكم دون مشاكل . . ولكن أرجوكم أن تساعدوا المرأة المصابة !

* * *

عندما علم الأب بما فعله « كاسى » من أجلهم تساءل : ما الذى جعل الواعظ يفعل كل هذا . . ؟

أجابه « توم » : كان دائمًا يقول أنه يريد أن يفعل أى شىء فى مصلحتنا !

وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق . . وكانت الأم قد انتهت من تقشير بعض حبات البطاطس وبدأت فى تقطيعها وقليها . . وبجوار الأم كانت تجلس « روزا » التى تتساءل فى حزن : أين « كونى » ؟ . . لا يجب أن يتركنى وحدى هكذا !

وكان « توم » و « آل » يتحدثان بهدوء . . وقال « آل » : لقد سألت «فلويد» عن موقع المعسكر الحكومى فقال إن علينا أن نتجه جنوبًا حتى نصل إلى الطريق السريع رقم ٩٩ ونسير فيه لمسافة إثنى عشر أو أربعة عشر ميلاً حتى نصل إلى هذا المعسكر .

وقال « توم » مخاطبًا أمه : لا بد أن نرحل من هنا . . لأنهم سيحرقون المعسكر ويطردونا من هنا .

وهنا سألته « روزا » : هل رأيتما « كونى » . . ؟

فأجابها « آل » : نعم . . لقد غادر المنطقة واتجه إلى الجنوب .

فسألته : وماذا قال لكما . . ؟

أجابها : قال إنه من الأفضل أن يبقى فى بلده ليتعلم قيادة الجرارات .

وهنا تدخل الأب وقال : كونى لم يكن ذا نفع . . فلا فائدة ترجى منه . . لقد هرب ونحن لا نريده !

فقالت الأم على الفور : لا تقل ذلك . . إن « روزا » ستلد طفلاً . . وهذا الطفل إبن « كونى » . وبعد أن أكلوا البطاطس ، بدأوا فى تحميل السيارة استعدادًا للرحيل . . وبدأت السيارات الأخرى تغادر المكان واحدة بعد أخرى . ولكن « روزا » أعلنت انها لن تغادر المكان إلا بعد عودة زوجها . . فهالت عليها الأم وساعدتها على النهوض وهى تقول : من المؤكد انه سوف يعثر علينا . . فلا تقلقى !

وبعد أن أصبح الجميع بداخل السيارة . . بدأت فى السير فى اتجاه المعسكر الحكومى الموصوف . . ولكن بعد مسافة طويلة ، ظهر صف من الأضواء الحمراء يقطع الطريق ، فأبطأ « توم » سرعة السيارة ثم توقف . . واحيطت السيارة على الفور بمجموعة من الرجال المسلحين بالعصى والبنادق . وتقدم أحد هؤلاء الرجال وسألهم : إلى أين أنتم ذاهبون ؟

قال « توم » : نحن غرباء . . وسمعنا أن هناك عملاً فى منطقة «تولير» .

قال الرجل : لقد أخطأتم الطريق . . فنحن لا نريد أى أحد من الغرباء فى هذه المدينة . . ولا تعودوا إلى هنا إلا فى موسم جنى القطن . . هيا . . عودوا من حيث جئتم !

فاستدار « توم » بالسيارة وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه . وقال : سأحاول أن ألف من خارج المدينة دون أن ندخل إليها . . وسنبحث عن طريق آخر إلى المعسكر الحكومى .

وبعد فترة ، عثروا على علامة من علامات الطرق مكتوب عليها رقم ٩٩ . . وهو رقم الطريق المؤدى إلى المعسكر الحكومى .

* * *

كان الظلام حالكًا . . كان « توم » يقود السيارة ببطء ليتعرف على معالم الطريق . . وعلى أضواء السيارة رأى سورًا من الأسلاك وفى نهاية السور رأى بوابة المعسكر . . فنزل « توم » من السيارة وقال للحارس : هل يوجد مكان لنا فى المعسكر . . ؟

قال الحارس : كم عددكم . . ؟

قال « توم » : أنا وأبى وأمى وإخوتى « آل » و « روزا » و « روث » و «وينفيلد » . . سبعة أفراد . . والأخيران طفلان .

قال الحارس : لا بأس . . من الممكن استقبالكم . . تحرك بالسيارة ثم انحرف نحو اليمين . . وستجد نفسك فى المنطقة الصحية رقم (٤) .

تساءل « توم » : ما معنى المنطقة الصحيـة . . ؟

قال الحارس : يعنى أن بها حمامات ومراحيض وأحواض للغسيل !

وهنا تساءلت الأم : هل لديكم فعلاً أحواض للغسيل ومياه جارية وصنابيـر . . ؟!

قال الحارس : نعم . . بكل تأكيد .

تنهدت الأم بعمق وقالت : الحمد لله !

وقاد « توم » السيارة إلى حيث استقبله أحد المشرفين الذى قام بتدوين البيانات الخاصة بعائلة « جوود » . . ثم قال المشرف : الإقامة فى هذا المعسكر تتكلف دولارًا فى الأسبوع . . وإذا لم يكن معكم نقود ، فيمكنكم المساعدة فى تنظيف المعسكر . . وغدًا ستقابلون اللجنة التى سيخبركم أعضاؤها بكل التعليمات المعمول بها فى هذا المعسكر . . وفى مساء كل يوم سبت يقام حفل موسيقى راقص يمكنكم الاشتراك فيه إذا أردتم . . واذهبوا الآن إلى الخيمة الخالية الموجودة فى آخر هذا الصف من الخيام .

واتجه « توم » بالسيارة إلى حيث توجد تلك الخيمة . . وأبلغ الجميع بتلك الأخبار الطيبـة . . واتجـه الجميع إلى الأسرة للنـوم حتـى الصباح . . ولكن «توم» كان قلقًا فاستيقظ عند طلوع الفجر . . وخرج يتمشى ، فرأى نارًا مشتعلة فى فرن قديم تجلس بجواره إحدى الفتيات منهمكة فى إعداد طعام الإفطار . . وتسللت إلى أنفه رائحة الخبز الطازج واللحم المشوى .

وحين تقدم « توم » نحو الفرن ، خرج من الخيمة المجاورة رجل كبير ومعه شاب . . وقالا « لتوم » : صباح الخير . . هل تقبل دعوتنا لتناول الافطار معنا ؟

قبل « توم » تلك الدعوة الكريمة بكل سرور . . وقال الشاب : نحن نعمل منذ إثنى عشر يومًا . . واستطعنا شراء ملابس جديدة . . كما أصبحنا نأكل طعامًا جيدًا . . لقد حان الآن موعد ذهابنا إلى العمل . . تعال معنا فربما نستطيع أن نجد لك عملاً .

وهكذا امتلأ قلب « توم » بالفرح . . وقال الرجل الكبير : إن مكان العمل ليس بعيدًا من هنا . . ويمكننا الوصول إليه سيرًا على الأقدام . .

وعندما مر « توم » أمام خيمتهم رأى « روث » مستيقظة فقال لها : «روث» . . قولى لهم اننى وجدت عملاً . . وقولى لأمى أننى تناولت إفطارى مع جيراننا !

ووصل الرجال الثلاثة إلى مكان العمل وهو مزرعة كبيرة للفاكهة . واستقبلهم هناك رجل ذو وجه أحمر . . قال له الرجل الكبير : صباح الخير يا مستر « توماس » . . معنا صديق . . أرجو أن تمنحه فرصة للعمل .

فقال الرجل ذو الوجه الأحمر : لا مانع . . ولكنكم لن تتقاضوا ثلاثين سنتًا فى الساعة اعتبارًا من اليوم . . فقد قررت جمعية المزارعين مساء أمس تخفيض الأجر إلى خمسة وعشرين سنتًا فى الساعة . . فهل تقبلون هذا التخفيض ؟

أطرق الرجال بوجوههم نحو الأرض وقالوا : نقبل !

ونظر « توماس » إلى ساعته وطلب من الرجال أن يبدأوا العمل فورًا بعد أن تناولوا المعاول والفؤوس . . وشرعوا فى العمل بكل همة .

وعندما استيقظت الأم لاحظت على الفور أن « تـوم » غير موجود ، فخرجت من الخيمة وشاهدت «روث» و «وينفيلد» . . فسألتهما عما إذا كانا قد شاهدا «توم» . . فأخبرتها «روث» بأنه قد وجد عملاً وخرج من المعسكر . . فاحتضنتها الأم وأخذت تقبلها وهى تقول : الحمد لله . . الشكر لله !

وقالت « روث » وهى تشير إلى مبنى الحمامات : لديهم هنا حمامات ودورات مياه وصنابير . . لقد ذهبت إلى هناك .

وانطلق الطفلان يلعبان . . بينما توجهت الأم إلى مبنى الحمامات . . ورأت دورات المياه على صف واحد . . وكل دورة لها باب . . وشاهدت الأحواض والأدشاش . . وكان كل شىء نظيفًا أبيض . . واتجهت إلى أحد الأحواض وفتحت الصنبور فتدفقت المياه الساخنة ، وفتحت صنبورًا آخر فتدفقت المياه الباردة . . فغسلت وجهها ويديها وبللت شعر رأسها بالماء . . وفجأة سمعت صوتًا غاضبًا لرجل يقول لها : ما هذا الذى تفعلينه هنا؟ . . هذا المكان مخصص للرجال . . أما المكان المخصص للنساء ففى الجهة الأخرى .

اعتذرت الأم بأنها لم تكن تعلم ذلك . . لأنهم وصلوا إلى هذا المعسكر فى منتصف ليلة أمس .

وعنـدما عـادت الأم إلى خيمـة العائلة أيقظـت الأب و « آل » و « روزا » . . وطلبـت مـن الجميـع أن يذهبـوا إلى الحمامـات ليغتسـلوا ويلبسـوا أنظـف ما لديهم من ملابس حتى يكونوا فى استقبال اللجنـة وهم فى أحسن حـالـة .

وعندما عادت « روزا » من الحمام قامت بتصفيف شعرها وارتدت حذاء أسود وأفضل فستان لديها ، وجلست بجوار الأم وسألتها : هل تعتقدين أن «كونى» سيعود اليوم . . ؟

قالت الأم : ربما نعم ، وربما لا . . سوف يعود عندما يعود . . هيا نقوم بتنظيم الأسرة وتنظيف المكان قبل حضور أعضاء اللجنة .

وبعد فترة قصيرة حضر أعضاء اللجنة وقاموا باللازم . . وبعد انصرافهم قالت « روزا » : لقد أفهمونى بأن فى إمكانى أن أعمل بالتمريض ورعاية الأطفال بعد أن أتعلم . . وقالوا إن هناك ممرضة تحضر كل أسبوع لترشدنى إلى ما يجب أن أفعله حتى يولد الطفل سليماً وقويًا . . وقالوا إن هناك طفلاً ولد فى الأسبوع الماضى وأقاموا له حفلاً وزعوا فيها الكعك !

أما الأب « وآل » فقد ركبا السيارة وخرجا للبحث عن عمل . . ومرا على معظم المزارع القريبة حيث علقت على بوابة كل مزرعة لافتة مكتوب عليها «لسنا فى حاجة إلى عمال» . . فعادا يائسين إلى الخيمة . . ولكن الأم قالت لهما : لا داعى لليأس . . فقد عثر « توم » على عمل وسوف يعود هذا المساء . . والآن يا زوجى العزيز . . إذهب إلى محل البقالة واحضر لنا بعض

البقول والسكر وقطعة من اللحم والجزر . . فسوف أعد للعائلة عشاء طيبًا هذه الليلة !

* * *

ذات مساء ، اجتمعت عائلة « جوود » كلها بعد أن تناولوا طعام العشاء. . وفجأة قالت الأم : لا بد أن نفعل شيئًا . . انظروا . . إن «وينفيلد» مريض . . و « توم » عمل لمدة خمسة أيام فقط . . ولم يجد الأب ولا « آل » أية فرصة للعمل . . وليس لدينا طعام إلا ما يكفى يومًا واحدًا . . و « روزا » ليس لديها لبن ويجب أن تتغذى جيدًا . . وأنا لا أحب أن أرى العائلة وهى تتضور جوعًا . . فماذا ستفعلون أمام كل هذا . . أليس من الأفضل أن نرحل لنبحث عن أى عمل فى أى مكان آخر ؟!

قال الأب : لكن هنا توجد حمامات ومياه ساخنة ودورات مياه !

فقالت الأم : إذا لم نأكل فلن نذهب إلى دورات المياه ! . لا بد أن نرحل صباح الغد !

قال « آل » : لقد قال لى أحد الأشخاص إن محصول القطن فى منطقة قريبة من هنا تجاه الشمال ، قد نضج وحان وقت جنيه .

فقالت الأم : إذن علينا أن نرحل بمنتهى السرعة .

خرج « آل » من الخيمة وأخذ يتمشى ، ثم جلس فى مكان عند طرف المعسكر . . وبعد دقائق قليلة ، جاءت فتاة شقراء جميلة الوجه وجلست

بجواره . وسرعان ما أخبرها بأن عائلته سترحل غدًا إلى الشمال للبحث عن عمل . . فسألته الفتاة : كيف ؟ . . لقد وعدتنى بأننا سنتزوج قريبًا ؟!

قال « آل » : ومازلت عند وعدى . . واعتقد أننا سنتغيب حوالى شهر !

وبعد الفجر بقليل فى صباح اليوم التالى ، قامت الأم بإيقاظ كل أفراد العائلة وقالت لهم : لا بد أن نرحل مبكرين . . ليس لدينا قهوة ولا إفطار سوى بعض البسكويت سنأكله فى الطريق . . هيا يا رجال . . قوموا فورًا بتحميل السيارة !

وبعد أن انتهى الرجال من تحميل السيارة ووضعوا المراتب فوق الحمولة . . قام « توم » بقيادة السيارة ببطء حتى خرجت من بوابة المعسكر . . ثم اتجه فورًا نحو الطريق رقم ٩٩ . . واستمر فى القيادة . . وقالت الأم التى كانت جالسة بجانبه : الشتاء أصبح على الأبواب . . وسمعت أن المطر يسقط بغزارة فى هذه المناطق . . ولا بد أن نقيم فى بيت حتى نتحاشى سقوط المطر .

وعلى جانب الطريق كانت تقف سيارة أطل منها رجل نادى على سيارة العائلة ، فتوقف « توم » بجواره ، وقال الرجل : هل تبحثون عن عمل ؟

قال « توم » : نعم يا سيدى .

وتساءل الرجل : هل يمكنكم جمع الخوخ ؟

قال « توم » يمكننا جمع أى شىء يا سيدى .

قال الرجل : هناك فرصة عمل لكم جميعًا . . عليك أن تسير حوالى أربعين ميلاً نحو الشمال حتى تصل إلى « بيكسلى » . . ثم انحرف شرقًا لمسافة ستة أميال . . واسأل هناك عن مزرعة « هوبر » . . وهناك ستجد عملاً كثيرًا .

وقام « توم » بتقديم الشكر لهذا الرجل . . وقاد السيارة عبر الحقول . . وقالت الأم : لو وفقتم فى الحصول على عمل فى هذا اليوم ، فباستطاعتنا أن نشترى بالأجل بعضًا من البن والدقيق واللحم والصابون واللبن . . يجب الحصول على اللبن من أجل « روزا » .

وعندما وصلوا إلى « بيكسلى » اتجه « توم » شرقًا عبر طريق ضيق . وبعد فترة شاهدوا بعض السيارات الواقفة على جانب الطريق . واستوقفهم أحد رجال الشرطة وسألهم : إلى أين أنتم ذاهبون ؟

قال « آل » : نحن نبحث عن عمل فى جمع الخوخ !

فقال رجل الشرطة : هيا . . انضموا إلى هذه السيارات وسيروا معًا حتى تصلوا إلى معسكر جمع الخوخ .

كان هذا المعسكر يتكون من خمسين وحدة سكنية أشبه بالصناديق ، لكل منها باب ونافذة . وهناك خزان للمياه على طرف المعسكر ، وبجانبه محل صغير للبقالة .

واستقبلهم أحد المشرفين وأخبرهم بأنهم سيقمون فى البيت رقم ٦٣ . . كما أخبرهم بأن الأجر هو خمس سنتات مقابل كل صندوق . .

وعندما وصلوا إلى البيت رقم ٦٣ ، فتحت الأم الباب ، ودخلت . . كانت الأرضية قذرة ، وكان البيت عبارة عن حجرة واحدة بها موقد قديم ولا شىء غير ذلك .

وقام الرجال بتفريغ حمولة السيارة وإدخالها إلى البيت . . ثم جاء أحد الكتبة وسأل : كم عدد الذين سيقومون بالعمل . . ؟

قال « توم » : ثلاثة رجال . . ولكن هل العمل صعب . . وهل يمكن أن يشترك هذان الطفلان معنا . . ؟!

أجاب الكاتب : إن العمل هو جمع ثمار الخوخ ووضعها فى الصناديق . . وهذا عمل يستطيع أن يقوم به أى شخص . . وسوف تحصلون على خمس سنتات مقابل كل صندوق مملوء . . والآن تعالوا معى حتى أريكم منطقة العمل !

وعندما وصلوا إلى هناك شاهدوا مجموعة كبيرة من العمال يقومون بجمع ثمار الخوخ من فروع الأشجار ويضعونها فى سلال ، ثم يقومون بتفريغ تلك السلال فى صناديق . . ثم يحملون تلك الصناديق إلى « الفراز » . . وقال الكاتب قبل أن ينصرف : عليكم أن تجمعوا الثمار بعناية شديدة . . فنحن لا نحسب الثمار الفاسدة ولا الثمار المخدوشة . . ها هى السلال . . وها هى الصناديق . . هيا !!

انطلق الأب و « توم » و « آل » فى جمع الثمار بسرعة . . وعندما أكمل «توم» ملء صندوق . . حمله واتجه إلى « الفراز » . . فقال الفراز على الفور :

لا يمكن محاسبتك على هذا الصندوق . . فجميع الثمار مخدوشة لأنك قطفتها بسرعة وبدون عناية . . هيا اعمل بهدوء وعناية !

قال « توم » : حاضر يا سيدى . .

واتجه إلى كل من « آل » وأبيه وقال لهما : انهم لا يقبلون الثمار المخدوشة . . وعليكما قطف الثمار بعناية . . ووضعها فى السلال بعناية . . ثم وضعها فى الصناديق بعناية .

ثم جاءت الأم ومعها « روث » و « وينفيلد » واشتركوا فى جمع الثمار حتى ملأوا عشرين صندوقًا فى آخر النهار . . فحمل « توم » و « آل » هذه الصناديق وقدموها إلى الفراز الذى فحصها بعناية . . وقال « توم » : لقد ملأنا عشرين صندوقًا . . فهل يمكننا أن نشترى بالأجل مقابل الدولار الذى عملنا به . .

قال الفراز : طبعًا . . سوف أعطيك ورقة تشترى بها ما تحتاجه فى حدود دولار واحد .

أخذ « توم » الورقة وأعطاها لأمه لكى تذهب بها إلى محل البقالة لشراء ما تحتاجه الأسرة فى حدود دولار واحـد . وسألته الأم بفـرح : ماذا تريد أن تأكـل؟

قال « توم » : لحم وخبز وكمية من البن للقهوة المحلاة بالسكر !

وذهبت الأم إلى محل البقالة . . وهناك فوجئت بأن أسعار جميع الأشياء

أعلى بكثير من أسعارها المعروفة . . فناقشت البقال فى ذلك ، فاعترف لها بأن الأسعار مرتفعة فعلاً ، ولكنه لا يملك شيئًا فى ذلك ، لأن الشركة هى التى حددت تلك الأسعار وعليه تنفيذ أوامر الشركة . . وهكذا قامت الأم بشراء بعض قطع من الهامبورجر والخبز والبن فى حدود دولار واحد . ثم تذكرت السكر . . فقالت للبقال . . هل يمكنك أن تعطينى بعض السكر بما يعادل عشرة سنتات سأعطيها لك غدًا فنحن نعمل فى جمع الخوخ ومن المؤكد أننا سنحصل على أجر آخر غدا . .

قال البقال : لا أستطيع أن أعطى شيئًا دون الحصول على ثمنه فورًا . . إن ذلك يعرضنى للمسئولية وربما يقبضون على !

ومع ذلك فقد أخرج البقال من جيبه عشرة سنتات ووضعها فى الدرج وقام بوزن بعض السكر وأعطاه للأم التى اندهشت من هذا التصرف الكريم . وقالت للبقال : لقد علمتنى درسًا رائعًا . . وهو أنك إذا وقعت فى ورطة أو كنت فى حاجة إلى المساعدة . . فعليك أن تلجأ إلى الناس الفقراء ، فهم وحدهم الذين يقبلون مساعدة الفقراء من أمثالهم ! !

وعندما عادت الأم إلى البيت ، شرعت على الفور فى إيقاد الموقد وقامت باعداد الطعام . . ثم قامت بتوزيع الطعام فى الأطباق . . كل طبق يحتوى على قطعتين من الهامبورجر وحبة من البطاطس ، وثلاث شرائح من الخبز . وبدأ الجميع يأكلون فى صمت . ولكن « توم » قال : هل لديك المزيد من الطعام يا أمى . . فأنا مازلت جائعًا . . ؟!

قالت الأم : هذا كل شىء استطعت شراءه مقابل الدولار الواحد . . فالأسعار هنا مرتفعة جدًا . . وغدًا سنعمل يومًا كاملاً . . وسيكون فى استطاعتنا أن نحصل على المزيد من الطعام !

* * *

بعد أن تناول « توم » طعامه القليل ، خرج ليتمشى عبر الحقول حتى وصل إلى سور المزرعة المصنوع من السلك ، فتسلل من تحته حتى أصبح فى الطريق العام . . وكان هناك جسر حجرى فوق مجرى مائى صغير ، وأسفل الجسر رأى خيمة بداخلها فانوس مضيىء . . اقترب « توم » من الخيمة فخرج رجل يسأل : من هناك . . ؟! فقال « توم » : أنا مجرد عابر سبيل . . !

كانت هناك مفاجأة غير متوقعة . . فقد تعرف « توم » على « كاسى » . . كما تعرف « كاسى » على « توم » . . فاحتضنا بعضهما . . وأخذه «كاسى» إلى داخل الخيمة حيث يجلس ثلاثة رجال آخرين . . قال لهم «كاسى» هذا هو « توم جوود » الذى حدثتكم عنه . . ثم سأله « كاسى » عن أحواله وأحوال عائلته . . فشرح له « توم » باختصار ، انهم يعملون فى جمع الخوخ مقابل خمس سنتات للصندوق ولكنه مبلغ غير كبير ويكفى بالكاد لطعام متواضع يأكله الإنسان .

وبعد فترة صمت قصيرة قال « كاسى » : اسمع يا « توم » . . لقد جئنا نحن أيضًا مع مجموعة كبيرة من الرجال لنعمل فى جمع الخوخ مقابل خمس سنتات للصندوق . . ولكن أصحاب العمل خفضوا هذا الأجر إلى سنتين

ونصف . . فقررنا الإضراب عن العمل . . فأحضروا لنا الشرطة وطردونا خارج المعسكر . . ولكن لو كان بقية العمال أضربوا مثلنا لاضطر أصحاب العمل إلى أعطائنا خمس سنتات للصندوق خوفًا من فساد المحصول على أشجاره . . والآن « يا توم » عليك أن تحكى هذا الموقف للعمال الآخرين . . وحرضهم على الاضراب عن العمل . . هذه هى الطريقة المثلى للتعامل مع هؤلاء الطماعين الذين تجردوا من أى إحساس إنسانى ! . . وتأكد «يا توم» ان الدور سيأتى عليكم غـدًا . . ولـن يدفعـوا لكم سوى سنتين ونصـف لكل صنـدوق .

ولكن « توم » قال : إنهم مازالوا يدفعون خمس سنتات للصندوق . . فلـن يستمع أحـد لكلامى . . لقـد كـدنا نمـوت جـوعًـا . . أمـا الآن فنحن نأكل لحمًا . . وروزا أختى فى حاجة إلى لبن . . ولن تقبل أمى أن تضحى بجنين ابنتها من أجل بعض أشخاص يتصايحون وينادون بالاضراب عن العمل .

وفى تلك اللحظة سمع الرجال أصوات رجال آخرين قادمين نحو الخيمة وهم يحملون كشافًا له ضوء مبهر يعمى البصر . . وصاح أحد هؤلاء القادمين : ها هم هناك !

وخرج « توم » و « كاسى » والرجال الثلاثة من الخيمة . . وتقدم رجل قصير قوى البنية ويحمل عصا غليظة نحو « كاسى » وهو يشير إليه قائلاً : ها هو ذا المحرض على الإضراب !

ورفع الرجل عصاه الغليظة ووجه ضربة قوية شجت رأس « كاسى » الذى سقط على الأرض فاقد النطق . . ولم يحتمل « توم » رؤية هذا المنظر ، فانقض على الرجل القصير وخطف منه العصا الغليظة ، وانهال بها على رأس الرجل القصير فسقط هو الآخر على الأرض فاقد النطق . . ثم فوجىء «توم» بضربات قوية تنهال على وجهه فانطلق يعدو هاربًا قبل أن يتمكن الرجال المهاجمون من قتله .

وأخذ يجرى بكل ما يستطيعه من سرعة حتى وصل إلى سور المزرعة فتسلل إلى داخلها . . وكان أنفه متورمًا والدماء تتدفق من ذقنه . . فاستلقى على بطنه وغسل وجهه ببعض الماء المتجمع فى حفرة . . ثم قام واتجه نحو البيت . . فوجد الأم مازالت سهرانة . . وفوجئت برؤية وجه «توم» المتورم والدماء التى مازالت تنزف من جرح بذقنه ، فسألته الأم : ماذا حدث لك يا « توم » . . ؟!

استيقظ الجميع ، وشرح لهم « توم » ما حدث فقال وهو يعانى من شدة الألم : لقد عثرت على « كاسى » وعلمت أنه تزعم الدعوة إلى الاضراب عن العمل بعد أن خفضوا الأجر إلى سنتين ونصف . . فجاء بعض الرجال وقتلوه . . فجن جنونى . . وأمسكت العصا التى قتل بها « كاسى » وضربت من قتله حتى سقط على الأرض ولا أدرى إن مات أو لم يمت . . وأنا اعتقد انهم سيدفعون سنتين ونصف للصندوق اعتبارًا من اليوم . . خصوصًا بعد مجىء مجموعة من العمال يطلبون العمل بأى ثمن .

قامت الأم وغمرت قطعة من القماش فى الماء الساخن وطلبت من «توم» أن يضع تلك الكمادة على وجهه . . ثم طلبت من جميع أفرارد العائلة أن يقولوا إن « توم » مريض إذا سأل أحد عنه .

وقال « تـوم » : لا بـد أن أهـرب . . فأنا لا أريـد أن أتسبب لكم فى مشاكل .

فقالت الأم بغضب : لن تهرب يا « توم » . . العائلة هكذا ستتفسخ . . و «روزا» ستلد طفلها . . ونحن فى حاجة إليك لتساعدنا على ما نحن فيه . . وسوف نذهب الآن للعمل حتى نحصل على بعض النقود .

وخرج جميع أفرادُ العائلة للعمل فيما عدا « روزا » التى قالت « لتوم » : لقد قتلت شخصًا . . وهذا هو ثانى شخص تقتله . .

فقال « توم » : لا ترفعى صوتك . . أتريدين أن يحضر أحدهم إلى هنا ليقبض على . . ؟!

قالت « روزا » بصوت مرتفع : وماذا يهمنى فى ذلك ؟! . . يا للظروف السيئة التى سألد فيها طفلى ! . . لقد رحل زوجى « كونى » . . ولا أتغذى جيدًا . . ولا أجد لبنًا أشربه . . ثم تأتى أنت الآن وتقتل رجلاً آخر ! . . أنا لا أريد أن أرى وجهك !!

وغطت رأسها بملاءة وأخذت تبكى .

* * *

قبل حلول المساء عادت الأم والأب و « آل » . . فسألهم « توم » : هل خفضوا الأجر كما كنت أتوقع . . ؟!

قال الأب : نعم خفضوه إلى ستتين ونصف !

وقالت الأم : لا بد أن نرحل من هذا المكان . . لا بد أن نرحل ! سأعد لكم عصيدة من دقيق الذرة !

وفجأة دخلت « روث » وقالت بصوت متقطع : ماما . . « وينفيلد » مريض جدًا . . لونه شاحب وسقط على الأرض . . لقد ظل يأكل الخوخ طوال اليوم !

أسرعت الأم وهى تجرى بصعوبة مع ابنتها الصغيرة . . وحملت «وينفيلد» بين ذراعيها وعادت إلى البيت وأرقدته فوق إحدى المراتب . . وقال «توم» إن الولد جائع . . ولا بد أن يشرب بعض اللبن حتى يسترد قواه . .

فسألت الأم زوجها : كم حصلنا من نقود فى هذا اليوم . . ؟

أجاب الأب : دولار وخمسة وأربعين سنتًا .

فقالت الأم : إذن . . إذهب إلى محل البقالة واحضر علبة لبن «لوينفيلد» .

وعندما عاد الأب بعلبة اللبن ، ملأت الأم كوبًا وناولته «لوينفيلد» الذى قال انه لا يستطيع أن يشربه حتى لا يتقيأ . وهنا قالت « روزا » : أنا لم أشرب لبنًا منذ فترة . . يجب أن أشرب هذا اللبن !

فقالت الأم : لا . . انك لست مريضة مثل هذا الولد ! . . والآن علينا أن نقوم بتحميل السيارة حتى نرحل فى الصباح الباكر .

قال «توم» : ارحلوا أنتم . . أما أنا فسوف أبحث عن مكان أختبئ فيه .

قالت الأم : قلت لك من قبل انك ستكون معنا فى جميع الأحوال . . وعندما نقوم بتحميل السيارة فسوف نضع مرتبة على أرضية الصندوق لترقد عليها وسنضع بقية المراتب فوقك لنخفيك عن الأنظار وسوف نترك مسافة لكى تستطيع التنفس . . هذا ما سوف نفعله ولا جدال فى ذلك !

وهذا ما فعلوه فعلاً . . ثم ركب الجميع فى أماكنهم بالسيارة . . وبدأ «آل» فى قيادتها ببطء حتى وصل إلى بوابة المعسكر ، فسألهم الحارس : هل سترحلوا الآن ؟ . . وأجابه « آل » : نعم . . فقد حصلنا على عمل بأجر معقول .

وانطلقت السيارة فى الطريق السريع رقم ١٠١ وهو الطريق الذى يربط الجنوب بالشمال . . ثم انحرفت بعد ذلك إلى طريق فرعى توجد على جانبيه حقول القطن . وشاهد « آل » لافتة مكتوب عليها «مطلوب عمل لجنى القطن» . . وعلى جانب الطريق كانت هناك مجموعة من الحاويات مدهونة باللون الأحمر . . وتعيش بداخلها عائلات العمال الذين يعملون فى جنى القطن . وعندما توقفت السيارة بجوار إحدى الحاويات الخالية قال «توم» : يمكنكم أن تسكنوا فى هذه الحاوية أما أنا فسوف اختفى بداخل هذه الشجيرات الكثيفة الموجودة بالقرب منكم . . وأثناء الليل يمكنكم أن تحضروا لى شيئًا آكله !

وأخذ « توم » بطانية قديمة ليتلحف بها وقال للجميع : تصبحوا على خيـر!

وقالت الأم : لا شك أن هذه الحاوية ذات سقف يحمينا من المطر !

* * *

كانت عائلة « جوود » محظوظة فقد حصلت على عمل فى جنى القطن وفر لهم بعض النقود ، كما حصلوا على مأوى بداخل إحدى الحاويات . . حيث كانت كل حاوية مقسمة بداخلها إلى قسمين متساويين تفصلهما ملاءة مفرودة فى المنتصف . . وكانت هناك عائلة أخرى تعيش فى النصف الثانى من الحاوية هى « عائلة وينرايت » التى تتكون منه ومن زوجته وإبنـة فى السادسة عشرة من عمرها اسمها « آجيى » .

وفى أول يوم سبت توجهت عائلة « جوود » إلى المدينة حيث اشتروا بعض الملابس وموقدًا صغيرًا . . وفى مساء كل يوم ، بعد أن يعود أفراد العائلة من العمل كانت الأم تقوم باعداد عشاء من اللحم والخبز الطازج .

وفى إحدى الأمسيات ، جاء « وينفيلد » وقال لأمه : ماما . . لقد تكلمت « روث » عن موضوع « توم » المختبىء . . حين تشاجرت مع إحدى الفتيات . . فقالت « روث » إنها ستحضر أخاها الأكبر « توم » الذى قتل رجلين . . وهو على استعداد أن يقتل أفراد عائلة تلك الفتاة كلهم !

صعقت الأم لدى سماعها هذا الكلام . . وفى تلك اللحظة جاءت «روث» وكانت الدماء تقطر من أنفها بسبب الشجار مع الفتاة الأخرى ،

وألقت بنفسها فى أحضان أمها وبدأت فى البكاء . . وقالت لها الأم : انك لم تدركى خطورة ما قلتيه لتلك الفتاة عن أخيك « توم » . . ولكن علينا أن نتصرف الآن بحكمة .

وتناولت الأم أحـد أطباق الطعام وغطتـه بقطعـة من ورق الجـرائد ، وخرجت من البيت وأخذت طريقها إلى حيث يختبئ « توم » . . واستقبلها «توم» بعد أن خرج من مخبئه وشكرها على رعايتها له . . وعندما بدأ فى أكل الطعام قالت له الأم : « توم » . . لقد حدثت مشكلة . . لقد تشاجرت «روث» مع إحدى الفتيات . . وحكت كل شىء عنك . . وعن سر اختبائك لأنك قتلت رجلين . . ويجب أن ترحل من هذا المكان فورًا . . ولكن اخبـرنى عن جـرحك وهل التأم الآن . . إنى أرى أن أنفـك مـازال متـورمًا . . !

قال « توم » : ربما كان ذلك فى صالحى . . فسوف لا يتعرف على أحد!

وواصلت الأم كلامها : لا بد أن ترحل يا « توم » فى أسرع وقت ممكن . . وقد أحضرت لك سبعة دولارات حتى يمكنك أن تركب الأتوبيس لترحل إلى مكان بعيد!

فقال « توم » : لن آخذ النقود يا أمى . . فأنتم أولى بها . . واعلمى ان أثناء وجودى فى هذا المخبأ وحيدًا ، فكرت فيما كان يقوله « كاسى » ورأيت انه كان محقًا فى كل أقواله . . لا بد أن يتكاتف العمال معًا . . وسأدعوهم للعمل سويًا وأن يحافظوا على حقوقهم . . ولا بد أن يتكاتف الجميع لكى

يعودوا إلى زراعة أراضيهم التى طردوا منها . . سأقنع جميع أهالينا بأن نعود إلى بلدنا لنزرع أرضنا ونعيش فى بيوتنا .

وقامت الأم بتوديع ولدها . . وكانت عيناها تترقرتان بدموع حبيسة . . وسارت فى الطريق عائدة إلى البيت . . وفجأة ظهر رجل بجوارها وقال : مساء الخير . . يبدو أن السماء ستمطر !

قالت الأم : أرجو ألا يحدث ذلك . . لأن جنى القطن سيتوقف فور سقوط المطر . . ونحن نعمل فى جنى القطن وسيتوقف عملنا بالتالى .

قال الرجل : وأنا أيضًا فى حاجة إلى جنى القطن قبل سقوط الأمطار الغزيرة . . لدى عشرون هكتارًا مزروعة بالقطن . . وأنا فى أشد الحاجة إلى عمال لجنى هذا المحصول .

قالت الأم : نحن خمسة عمال . . فهل يمكننا أن نعمل عندك . . ؟!

قال الرجل : بكل سرور . . وسوف أعلق لافتة أطلب فيها عمالاً لجنى القطن .

وقالت الأم : سنكون عندك صباح الغد !

وعندما وصلت الأم إلى الحاوية ، رأت زوجها جالسًا مع « وينرايت » فأخبرتها بموضوع الرجل الذى يبحث عن عمال لجنى القطن . . فسألها «وينرايت» : هل يمكن أن نعمل نحن أيضًا معكم فى جنى القطن . . ؟

قالت الأم : بكل تأكيد . . فالرجل يبحث عن عمال آخرين . . ويمكنكم أن تركبوا السيارة معنا عندما نرحل صباح الغد .

وهنا قال الأب مخاطبًا زوجته : « وينرايت » لديه مشكلة . . كنا نتحدث فيها قبل مجيئك .

وأطرق « وينرايت » ببصره إلى الأرض وقال ببطء : ابنتنا « آجيى » فتاة صغيرة عمرها ستة عشر عامًا . . وهى تتجول مع ابنكم « آل » طوال الليل . . وأخشى أن تكون قد وقعت فى مشكلة . . فماذا يحدث لو رحلتم أنتم أو رحلنا نحن . . ثم اكتشفنا أن « آجيى » فى ورطة . . إننا لا نود أن يلحق العار بعائلتنا !

قالت الأم : لن يلحق بكم أى عار بسببنا . . وسوف نتحدث مع «آل» فى هذا الشأن !

وعندما اطمأن « وينرايت » قام وذهب ناحية الستارة التى تفصل بين قسمى الحاوية وجلس مع زوجته . . وفى هذه اللحظة وصل « آل » فقالت له الأم : تعال يا « آل » واجلس بجانبنا . . لقد كنا نتحدث بخصوصك !

فقال « آل » : وأنا أيضًا أريد أن أتحدث معكم . . فسوف أرحل من هنا . . لقد اتفقنا أنا و « آجيى » على الزواج . . وسوف أحصل على عمل فى جراج ونستأجر بيتًا !!

قالت الأم : ونحن سعداء بقرارك يا « آل » . . فأنت الآن رجل ناضج وفى حاجة إلى زوجة . . ولكننا نرجوك أن تبقى معنا حتى الربيع . . فمن سيقود لنا السيارة . . ؟!

وبطبيعة الحال ، فقد سمعت مسز « وينرايت » ما قاله « آل » لأمه وأبيه

. . عن اتفاقه مع « آجيى » على الزواج . . لذلك فقد دخلت إلى القسم الذى تعيش فيه عائلة « جوود » وقالت : لقد سمعنا أن « آل » سيتزوج «آجيى» . . وهذا أمر يستحق أن نصنع كعكة ! !

فقالت الأم . . سأقوم أنا بصنع هذه الكعكة وسأصنع قهوة أيضًا !

فقالت مسز « وينرايت » : لدينا سكر . . يمكنك أن تستخدميه ! . . أما « آجيى » فسوف ترتدى فستانها الجديد . . وستكون معكم فى خلال دقيقة واحدة .

* * *

وبعد انتهاء هذا الحفل الذى فرحت به العائلتان . . ناموا جميعًا حتى يمكنهم الاستيقاظ فى الصباح الباكر . . وعندما استيقظوا . . أصرت «روزا» على الذهاب للعمل معهم . . بالرغم من أن الأم حاولت منعها بسبب ظروفها الصحية وهى فى أواخر أيام الحمل . . وأمام هذا الاصرار من جانب «روزا» طلب منها الأم أن تأخذ معها بطانية تحميها من لسعات البرد .

ودارت السيارة وهى تحمل عائلتى « جوود » و « وينرايت » واتجهت فورًا إلى مزرعة القطن التى تقع على بعد ميلين . . وقالت الأم : سنكون أول من يصل إلى هناك !

ولكن عندما وصلوا إلى المزرعة رأوا الساحة مليئة بالسيارات . . واستقبلهم صاحب المزرعة ودون اسماءهم فى دفتر ثم قال : الآن يمكنكم البدء فى العمل .

وبالرغم من هبوب ريح عاتية شديدة . . وظهور سحب سوداء ثقيلة محملة بالمطر الذى لم يبدأ فى السقوط . . واصل العمال جنى القطن بسرعة يسابقون بها الزمن . . وفى الساعة الحادية عشرة كان حقل القطن قد اكتمل جنيه . . ووقف العمال فى صف ليقبضوا أجورهم . . وعاد العمال إلى سياراتهم فى صمت .

وما كادت عائلة « جوود » وعائلة « وينرايت » تصعدان إلى السيارة حتى بدأ المطر فى السقوط بغزارة شديدة . . ولاحظت الأم أن « روزا » بدأت ترتجف . . فصرخت الأم قائلة : اسرع يا « آل » . . إن « روزا » ترتجف . . يبدو أنها أصيبت بنزلة برد . . ويجب أن تتدفأ وأن تضع قدميها فى ماء ساخن !

وعندما وصلوا إلى الحاوية التى تعيش فيها العائلتان . . حاولت «روزا» النزول من السيارة والسير غير أنها لم تستطع إلا بعد أن ساعدتها أمها ومسز «وينرايت» التى قالت : يبدو أن ساعة وضعها قد حانت .

وطلبت الأم أن يجمع الرجال أكبر قدر من قطع الأخشاب للمدفأة . . وجلس أفراد العائلتين حول نار المدفأة وهم يسمعون رخات المطر الغزير وهى تضرب سقف الحاوية . وقالت « روزا » : غطينى يا أمى . . فأنا أشعر ببرودة شديدة فى كل أنحاء جسمى .

فقامت الأم بتغطيتها بكل البطاطين الموجودة . . وقال الأب : يا إلهى . . المطر اكتسح المنطقة كلها .

وبالفعل ظل المطر الغزير يهطل ساعة بعد ساعة دون انقطاع . . وأخذت المياه تشكل بركًا صغيرة اختلط فيها الطين بمياه الأمطار . . وارتفع منسوب المياه فى المجرى المائى القريب وفاض على الجانبين وبدأت المياه فى الوصول إلى القواعد التى توجد عليها الحاويات . وقال الأب : لو ارتفع منسوب المياه أكثر من ذلك فسوف تدخل المياه إلى الحاويات . . وسوف نواجه مصيبة مؤكدة .

وهنا أطلقت « روزا » صـرخـة حـادة . . أعقبتها صرخات أخـرى . . وامتلأ وجهها رعبًا . . فنادت الأم على مسز « وينرايت » وقالت لها : انظرى . . يبدو أن موعد ولادتها قد حل . . وربما تكون الحمى قد عجلت بموعد الولادة !

وقالت الأم « لروزا » كى تشجعها : ستلدين طفلاً جميلاً . . هيا قومى لكى تتمشى قليلاً بداخل الحاوية .

ولكن « روزا » لم تستطع السير سوى لبضع خطوات قليلة ، فأرقدوها على مرتبة وهى تصرخ وتصرخ . . وأخيرًا حل صمت . . لا يسمع فيه سوى قطرات المطر وهى تتساقط باستمرار . . وارتفع منسوب المياه تحت السيارات . . وحاول « آل » أن يدير المحرك دون جدوى . . فقد كان المحرك غارقًا فى المياه . . واستطاعت بعض السيارات أن تدير محركاتها . . وعندما قادها أصحابها غرزت عجلاتها فى الطين وعجزت عن الحركة .

وعندما تساءل الأب عما إذا كان الطفل قد ولد أم لا . . قالت له مسز

«وينرايت» وهى تشـير إلى صنـدوق : إذا لم يتنفس الطفل . . فلن تكتب له الحيـاة!

* * *

قالت مسز « وينرايت » : إن وجود هذا الطفل الميت يسبب ألمًا وحزنًا لنا جميعًا . . فهل يمكنكم دفنه ؟!

قال الأب : أنت على صواب . . صحيح أن ذلك مخالف للقانون ولكنى سأفعله . .

وتناول الأب جاروفًا وناولته مسز « وينرايت » الصندوق . . وقام الأب بدفن الطفل فى مكان مرتفع جاف . . وبعد عودة الأب من تلك المهمة . . قالت له الأم : لا بد أن نرحل من هنا فقد ارتفعت المياه فى أرضية الحاوية .

وعندما استيقظت « روزا » من نومها سألتها الأم عن حالها ، فأخبرتها «روزا» بأنها متعبة جدًا . . ثم سألت الأم عن مصير طفلها وهل هو على ما يرام . . فقالت الأم بصوت متقطع : سيمكنك إنجاب طفل آخر فى المستقبل . . لقد بذلنا كل ما فى وسعنا . . ولكن . . . !

وهنا أدركت « روزا » أن طفلها قد مات . . فغطت عينيها بذراعيها وانخرطت فى بكاء صامت .

وقالت الأم : لا بد أن نرحل . . فقد ارتفعت المياه فى أرضية الحاوية وأصبح من المستحيل البقاء فيها . . لا بد أن نرحل أنا و « روزا » و « روث »

و « وينفيلد » إلى مكان أعلى يكون جافا . . ولا أدرى ماذا سيكون حال «روزا» لو استمر البرد والمطر وهى فى هذه الحالة من الضعف .

وطلبت الأم من الأب أن يساعد « روزا » على المشى حتى تصل إلى الطريق العام للبحث عن مكان جاف . . وقالت « لآل » : عليك أن تبقى هنا . . وسوف نعود عندما تنحسر مياه الأمطار وتصبح السيارة صالحة للسـير.

كان المطر قد توقف قليلاً عندما وصلت الأم وأبناؤها إلى الطريق العام . . وبعد عدة خطوات بطيئة شاهدوا حظيرة صغيرة فوق أرض عالية فتوجهوا إليها . وفتحت الأم باب الحظيرة وقالت : شكرًا لله . . هناك قش يمكننا أن نستريح فوقه . .

ولكن « وينفيلد » قال وهو يشير إلى ركن بالحظيرة : انظرى يا أمى . . هناك شخصان !

وتطلعت الأم إلى ركن الحظيرة فشاهدت رجلاً عجوزًا مستلقيًا على ظهره وصبيًا يجلس بجواره . . ونهض الصبى واقفًا ببطء وسأل : هل أنتم أصحاب هذا المكان ؟!

فقالت الأم : لا . . لقد جئنا إلى هنا لكى نحتمى من المطر المنهمر بالخارج . . ومعنا فتاة مريضة . . هل لديكم بطانية جافة ؟!

ذهب الصبى إلى ركن آخر بالحظيرة وقدم بطانية قديمة قذرة . . فشكرته الأم على ذلك وسألته عن الرجل الراقد . . فقال الصبى : إنه أبى . . وهو

مريض جدًا . . يكاد يمـوت من شـدة الجـوع . . لأنـه لم يأكل منذ ستة أيام!! . . سيموت أبى إذا لم يحصل على شىء قليل من اللبن . . !

وهنا تطوعت « روزا » بأن تسقيه لبنًا من صدرها . . وتمددت بجانب الرجل المريض الذى أخذ يهز رأسه من جانب إلى جانب . . وقالت له «روزا» : يمكنك أن ترضع من صدرى . . هيا إشرب . . إشرب !!

وأسندت رأسه بحنان . . وبدأ الرجل المريض فى الرضاعة . . !!

* * *

أنّا سويل

الجمال الأسود

BLACK BEAUTY

ANNA SEWELL

١٣٣

أصبحت الآن حصانًا كبيرًا . . وحتى أحكى لكم قصتى كاملة . . فسوف أبدؤها بذكرياتى عن أيام الطفولة حينما كنت مهرًا صغيرًا أرضع من ثدى أمى لأنى كنت لا استطيع أن آكل العشب . . وطوال النهار كنت أجرى بجوار أمى . . وعندما يحل الليل ، كنت أنام بجانبها .

وكنا نعيش فى مزرعة بها أشجار خضراء كثيرة . . وكان بها أيضًا ستة أمهر صغيرة أخرى كنت ألعب معهم ألعابًا ممتعة . . حيث نتبادل الركلات والرفس أو نعض بعضنا . . وعندما شاهدتنى أمى وأنا أعض وأرفس ، نادت على وقالت بحنان :

ـ لا تتعلم من الآن تلك العادات السيئة . . فلا تركل أو ترفس أو تعض أحدًا . . !

كنت أحب أمى كثيرًا وأسمع كلامها وأطيع نصائحها . . وقد لاحظت أن سيدنا صاحب المزرعة ـ وهو رجل طيب وحنون ـ يحنو كثيرًا على أمى ويطلق عليها اسم « بيت » ويفضلها عن بقية الجياد الأخرى ، وهى التى كانت تجر عربته عندما يذهب إلى السوق . . وكان كثيرًا ما يربت على

ظهرها ويسألها عن ابنها « بلاكى » . . وكان السيد يطلق علىّ هذا الاسم بسبب لونى الأسود . .

وكان هناك صبى سيىء الطباع اسمه « ديك » يأتى إلى المزرعة بين حين وآخر ليأكل من ثمار التوت حتى يشبع . . ثم يقوم بعد ذلك بإلقاء الحصى على الجياد الموجودة فى المزرعة . وفى يوم ما شاهده صاحب المزرعة وهو يقوم برمينا بالحصى ، فأمسك به وشد أذنه وقال له : إنك ولد شرير . . هيا أخرج من المزرعة وإياك أن تحضر إلى هنا مرة أخرى .

وهكذا تخلصنا مـن هـذا الصبى الشـرير . . وقام السيد بتعيين السايس « دانيال » العجوز ليتولى خدمتنا ورعايتنا . . وكان هذا الرجل طيبًا عطوفًا علينا مثل السيد تمامًا .

● وعندما بلغت السنة الرابعة من عمرى ، جاء شخص اسمه «سكوير جوردون» وأخذ يفحص فمى وأسنانى ، وعينىّ وسيقانى ، وشاهدنى وأنا أمشى ببطء ، ثم وأنا أجرى بسرعة ، وأعجب بى الرجل غاية الإعجاب ، ثم قال لسيدى : سوف يكون هذا الحصان الصغير على ما يرام بعد أن يتم ترويضــه .

ولعلكم تعلمون أن ترويض أى حصان ليس بالأمر السهل . . فلابد من تعليمه وتدريبه على استخدام السرج واللجام . . وكيف يحمل راكبًا يمتطى ظهره . . وكيف يجر عربة خفيفة أو عربة ثقيلة . . وكيف يمشى بالسرعة التى يرغبها الراكب أو قائد العـربة . . وكيف يتعلم ألا يصهل أو يرفس أو يعض .

وقد تولى سيدى أمر ترويضى وتدريبى على كل ذلك ، وكان يعطينى بعض الحبوب كلما استجبت لأوامره وأطعته . . ومع ذلك فقد كنت أتألم كثيرًا عندما كان سيدى يضع « الشكيمة » فى فمى . . وهذه الشكيمة كما تعرفون مصنوعة من المعدن ، وهى فى سمك الإصبع ، وتوضع بين فكى الحصان فوق لسانه ، وتثبت فى مكانها بأحزمة من الجلد تلف حول الرأس والأذنين وتحت الذقن حتى يصبح من المستحيل التخلص من ذلك الشىء الفظيع . . ومع ذلك فقد تحملت كل هذا العذاب لأنى رأيت أن كل الجياد تتحمل وجود تلك الشكيمة فى أفواهها .

ثم جاء الدور على الحدوات الحديدية التى لا بد أن توضع فى كل قدم من أقدامى . . فأخذنى سيدى إلى الحداد الذى بدأ بتقليم حوافرى ، ثم قام بتسمير الحدوات الحديدية الأربع فى أقدامى . . فشعرت بأن أقدامى أصبحت ثقيلة إلى حد ما ، ولكنى سرعان ما اعتدت عليها .

ثم أعطانى سيدى أجازة لمدة أسبوعين قضيتهما فى حقل واسع قريب من خط السكة الحديد حيث تمر عليه القطارات بأقصى سرعة . وفى بداية الأمر كنت أفزع فزعًا شديدًا كلما رأيت أو سمعت صوت القطار . فكنت أجرى بأقصى سرعة بلا هدف . . ولكنى فى نهاية الأمر أصبحت لا أخاف من مرور القطارات بعد أن اعتدت عليها . . بل وأصبحت أضحك كثيرًا عندما كنت أرى خيولاً أخرى يصيبها الفزع والذعر عندما كانت ترى قطارًا يمر .

وواصلت أمى نصائحها لى بأن أحسن التصرف مع سيدى حتى يعاملنى معاملة حسنة . . وقالت لى أن هناك كثيرًا من الرجال أغبياء وقساة القلوب

ويسيئون التعامل مع الجياد . . وأصابنى قولها هذا بكثير من الرعب ، خوفًا من أن أكون فى يوم ما مملوكًا لأحد هؤلاء الرجال المستهترين الأشرار .

● وفى أحد الأيام علمت أن سيدى باعنى إلى السيد « سكوير جوردون » الذى يعيش فى منطقة « بيرتويك بارك » . . وشعرت بالحزن لفراق سيدى الذى ربت على ظهرى وقال برقة : وداعًا يا بلاكى . . وأرجو أن تكون سعيدًا مع سيدك الجديد .

كان السيد « سكوير جوردون » يعيش فى بيت واسع كبير ، وبه اسطبل واسع له نافذة كبيرة تطل على فناء البيت . . وكان الاسطبل نظيفًا وجيد التهوية . . ولاحظت وجود فرس صغير بجانبى . . كان ممتلىء الجسم ذا شعر رمادى وله عرف وذيل كثيفان ، ورأس جميل وعينان جريئتان . . وشعرت بالاطمئنان نحوه ، فتشجعت وسألته : ما اسمك يا عزيزى ؟ !

قال بكثير من اللطف : اسمى « ميرى ليجز » . . وأنا فرس جميل كما ترى . . وأتمتع بحب جميع أهل البيت . . وفى بعض الأحيان أقوم بجر العربة الصغيرة الخاصة بسيدة البيت . . وفى أحيان أخرى تركب السيدات الصغيرات على ظهرى . . هل ستعيش معنا فى هذا الاسطبل؟

هززت رأسى وقلت : نعم !

فقال « ميرى ليجز » :

ـ أهلاً بك . . وأرجو أن تكون حسن الطباع ، فلا ترفس أو تعض !

وعندما انتهى حديثى مع ميرى ليجز على هذا النحو ، رأيت مهرة كبيرة

ذات شعر كستنائى اللون ، ترمقنى بعينين غاضبتين ، فحاولت التحدث إليها ، ولكنها لم تستجب ولم ترد .

وفى فترة بعد الظهر ، أوضح لى ميرى ليجز حكاية هذه المهرة فقال إن اسمها « جينجر » . . وأن السبب فى سوء طباعها هو أن ملاكها السابقين كانوا يعاملونها معاملة قاسية . . ولكنها منذ أن جاءت إلى هنا ، أصبحت تلقى معاملة حسنة من السائس « جون » . . ويبدو انها تحاول تغيير طباعها السيئة .

● لم يكن يغضبنى شىء سوى بقائى محبوسًا بداخل الاسطبل ليل نهار ، بالرغم من انهم كانوا يقدمون لنا طعامًا جيدًا . . إلا انى بدأت أشعر بأنى فقدت حريتى ، فلم أعد أرمح وأجرى كما كنت أفعل كل يوم حينما كنت أعيش فى مزرعة سيدى السابق . . وكان على أن أظل محبوسًا بالاسطبل طوال الأسبوع حتى يأتى يوم الأحد ، فيسمحوا لنا بالخروج من الاسطبل وأن نجرى ونرمح كيفما نشاء .

● وفى أحد أيام الآحاد ، سنحت لى الفرصة لكى أتحدث مع المهرة «جينجر» بينما كنا نقف أنا وهى تحت ظل شجرة يانعة . . وفى بداية الحديث سألتنى جينجر عن حياتى السابقة وعن الكيفية التى روضونى بها . . فحكيت لها كل شىء . .

وعندئذ قالت جينجر :

ـ كان من الممكن أن أكون مثلك لو كنت قد تلقيت هذه المعاملة الكريمة . . ولكن ظروفى كانت صعبة للغاية .

فسألتها : هل تثقين بى ؟ . . إذن أرجو أن تخبرينى بحكايتك !

وهكذا بدأت « جينجر » حكايتها فقالت إنهم انتزعوها من أمها حينما كانت صغيرة جدًا . . ووضعوها مع بعض الأمهر الصغيرة الأخرى دون أن يكون هناك أحد يرعاهم . . وكان هناك صبى صغير يتسلى بقذف الحصى والأحجار على الجياد الواقفة . .

وعندما أرادوا أن يروضوها قام بذلك بعض الرجال قساة القلوب الذين عاملوها بمنتهى الخشونة والعنف . . وكانوا يجلدونها بالسياط حتى تقرحت جروحها . . وكان ابن السيد الذى اشتراها شابًا غليظ القلب كان يوسعها ضربًا بالكرباج ويعاملها بكل ما كان يستطيعه من عنف وقسوة ، إلى أن اضطرت إلى رفسه حتى وقع على الأرض وفرت هاربة إلى حقول لا تعرفها ولا تعرف أصحابها ، وظلت مختبئة حتى انهكها الجوع وشدة العطش . إلى أن جاء إلى الحقل رجل عجوز طيب ، فأحضر لها بعض الحبوب لتأكل وبعض الماء لتشرب ، ثم قام بتنظيف جروحها . . ثم قام هذا الرجل باختيار مدرب طيب قام بتدريبها وتعليمها .

● وواصلت جينجر حكايتها فقالت إنها بعد أن تم ترويضها ، اشتراها رجل متأنق وصحبها معه إلى المدينة . . ولأن الرجل أراد أن يتبع تلك الموضة السخيفة السائدة فى المدن ، حيث كان أصحاب الجياد يحكمون وضع الشكيمة المؤلمة فى فم الحصان . . وكانت الشكيمة التى وضعت فى فمها تؤلمها بشدة وجرحت لسانها . . كما كان الرجل يشتمها بكلمات بذيئة قاسية

ويلهب ظهرها بالكرباج . . ولكى تدافـع جينجـر عن نفسها ، أخذت ترفس أى شخص يقتـرب منها ، وأخيرًا هربت عندما سنحت لهـا فرصـة الهـرب .

ثم بيعت بعد ذلك لعـدة ملاك . . وأخـذت تنتقل بين مالك وآخـر. . وكان هؤلاء الملاك يتخلصون منها خوفًا من سوء طبعها وقدرتها على الرفس والعض .

وفى النهاية قالت جينجر إنها منـذ جـاءت لتعيش معنا فى هذا البيت ، شعرت بأن السائس جـون والسائس جيمس يعاملانها بكثيـر من الرقـة والعطف ، الأمـر الذى جعلها تتخلى عن طباعها السيئة .

● وفى يوم ما جاء إلى القرية المستر « بلومفيلد » ومعه بعض أطفاله الذين كانوا يحبون ركوب « ميرى ليجز » . وفى ذلك اليوم ظل الأطفال يركبونه لعدة ساعات حتى بدأ يشعر بالتعب . . ومع ذلك فقد أخذ الأطفال يضربونه بفروع من الأشجار حتى يستمر . . وعندما ضربه الصبى الذى كان يركبه قام ميرى ليجز بالقائه من فوق ظهره .

وعندما أعاده السائس إلى الاسطبل ، قال ميرى ليجز إنه لقن هؤلاء الأطفال درسًا لن ينسوه ، حتى يعرفوا أن الحصان كائن حى له مشاعر ومن الممكن أن يشعر بالتعب وبالغضب . ومع ذلك فإنى نادم على ما فعلت مع الصبى الذى كان يضربنى بفرع الشجرة . . ولن أفعل ذلك مـرة أخـرى ، حتى لا يعتبرونى سيىء الطبـاع ويضطروا إلى بيعى . . وربما أجـد نفسى

تحت سيطرة بعض الرجال القساة الذين قد يضربونى بالسياط . . لهذا فلن أفعل ذلك مرة أخرى !

● وفى يوم مشمس، أخرجونا من الاسطبل لنتمتع بدفء الشمس. . وبينما كنت أتجول فى بستان قريب ، شاهدت « أوليفر » وهو حصان عجوز على قدر كبير من الجمال يتميز بكثير من الحكمة والرزانة ، ولكن ذيله كان قصيرًا جدًا ويبدو كما لو كان قطع فى حادث . . وسنحت لى الفرصة فى أن أسأله عن السبب فى قصر ذيله .

قال أوليفر بحزن : لقد كان ذلك فعلاً مخزيًا أثيمًا . . فحينما كنت مهرًا صغيرًا ، أخذونى إلى مكان يقومون فيه بقطع ذيول الخيل ، وقيدونى حتى لا أستطيع الحركة أو المقاومة، وقطعوا ذيلى بلحمه وعظمه وشعره.

فقلت مندهشًا : هذا أمر فظيع جدًا . . ولكن لماذا كانوا يفعلون ذلك؟

أجاب أوليفر : هو أمر فظيع ومؤلم ، ويعتبر إهانة لأى حصان يتعرض لمثل هذا العمل المؤسف ، فأنت تعلم أننا نستعمل ذيولنا فى هش الذباب الذى يضايقنا وفى طرد الهوام والحشرات الطائرة التى تلدغ جلودنا . . ومع ذلك فقد كان أصحاب الخيول يقطعون ذيولها لأنها الموضة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، حيث كانوا يقولون إن الذيول القصيرة تجعل الخيول أجمل شكلاً !

فتساءلت قائلاً : الموضة . . الموضة . . إنى اسمع كثيرًا هذه الكلمة ولكنى لا أفهم معناها بالضبط !

فقال أوليفر : الموضة تعنى أن شخصًا ما دارت فى رأسه فكرة ما فنفذها وهو يظن أن فكرته تجعل الأشياء أكثر جمالاً . . ثم يقوم الآخرون بتقليده . . واعتقد أن الموضة تعتبر من أسوأ الأمور التى ينشغل بها الآدميون . . وكذلك فقد سادت بينهم موضة قطع ذيول الكلاب وقطع آذانها لكى تصبح أكثر جمالاً ! . . تصوروا كيف تفعل الموضة بالناس !

كان جينجر وميرى ليجز بالقرب منا ويستمعان إلى حديثنا . . فقالت جينجر :

ـ إن هؤلاء الناس الذين يفعلون ذلك أشرار وحمقى !

ولكن ميرى ليجز تدخل فى الحديث قائلاً :

ـ إذا كان هؤلاء الناس أشرارًا وحمقى . . فهناك كثير من البشر طيبون وذوو قلوب رحيمة ويعطفون على الحيوانات ويعاملونها معاملة حسنة . . أنظروا مثلاً . . كيف يعاملنا سيدنا والسائسان جون وجيمس . . إن علينا أن نكون شاكرين لذلك .

وهكذا انتهت أحاديثنا ، وبدأنا نأكل بعض ثمرات التفاح التى سقطت من الشجر !

● وفى صباح أحد الأيام ، جاء سيدى وأخذ يربت على رأسى بحنان ، ويبدو أنه كان يريد أن يطلق علىّ إسما مناسبًا . . بعد فترة قصيرة استدعى السائسين جون وجيمس وقال لهما : سأسميه « بلاك بيوتى » [أى الجمال الأسود] . . فما رأيكما فى هذا الاسم الجميل ؟!

قال جون : انه اسم جميل ومناسب تمامًا يا سيدى !

وفى الحقيقة ، فقد شعرت بالفخر بهذا الاسم الجديد . .

ولأن سيدى كانت لديه مهمة يقوم بها فى المدينة ، فقد أمر السائس جون أن يجهزنى لكى أجر العربة الخفيفة التى سيركبانها للذهاب إلى المدينـة.

وما أن شرعنا فى السير حتى بدأت عاصفة عاتية شديدة وانهمرت أمطار غزيرة ، ولكنى مع ذلك واصلت السير بسرعة مناسبة حتى وصلنا إلى جسر خشبى كان علينا أن نعبره . . وهناك أخبرنا حارس الجسر بأن مياه النهر ترتفع بسرعة وعلينا أن نكون حذرين عند عبور الجسر وعند مواصلة السير فى الطرق التى أصبحت غارقة بمياه الأمطار.

وعندما وصلنا إلى المدينة حظيت ببعض الراحة . . وبعد أن انتهى سيدى من إنجاز عمله ، بدأنا رحلة العودة فى وقت متأخر من بعد الظهر.

وكانت العاصفة قد بلغت ذروتها ، وأخذت الرياح تهز الأشجار على جانبى الطريق هزًا عنيفًا يكاد أن يخلعها من جذورها . . وسمعت سيدى يقول لجون : انها عاصفة مفزعة لم أر مثلها فى حياتى . . وأتمنى أن نعود إلى بيتنا سالمين !

وعندما وصلنا إلى الجسر الخشبى ، وقفت خائفًا ولم أتحرك خطوة واحدة. . انزعج سيدى وبدأ يضربنى بالكرباج برفق ولكنى لم أتحرك. . فنزل السائس جون ليسحبنى ولكنى رفضت الحركة . . وفى تلك اللحظة ظهر حارس الجسر وهو يلوح لنا بشعلة يرفعها بيده وقال لنا محذرًا ، إن مياه

النهر ارتفعت وجرفت جزءًا كبيرًا من منتصف الجسر . . وهنا أدرك سيدى أن امتناعى عن الحركة أنقذ حياتنا جميعًا . . وقال لجون : لولا بلاك بيوتى لغرقنا كلنا فى مياه النهر .

وواصلنا السير بالرغم من حلول الظلام عبر طريق طويل آخر ، حتى وصلنا إلى مدخل بيتنا سالمين . . وقالت السيدة لزوجها : لم استطع النوم . . كنت قلقة عليكم . . فماذا حدث لكم أثناء تلك العاصفة المرعبة ؟!

قال سيدى : لقد عدنا سالمين بحمد الله . . ولولا « بلاك بيوتى » لكنا جميعًا غرقى فى مياه النهر . .

ولم أسمع المزيد من حديث سيدى مع سيدتى . . فقد أخذنى جون إلى الاسطبل ، وأعد لى فراشًا من القش الجاف ، وقدم لى وجبة شهية من الحبوب .

● وفى أحد أيام شهر ديسمبر ، دخل سيدى إلى الاسطبل ونادى على جيمس وقال له : إن زوج أختى أرسل إلى خطابًا يطلب فيه أن أرشح له سائسًا شابًا وذا خبرة لكى يرعى خيوله . . وإنى أرشحك لشغل تلك الوظيفة . . فما رأيك .

أجاب جيمس : كما ترى يا سيدى . . بالرغم من إنى سأحزن كثيرًا لفراق هذا البيت الكريم . . وفراق زميلى جون . . وفراق الخيول التى تحبنى وأحبها .

وفى تلك الليلة سمعنا حديثًا دار بين جون وجيمس . . وعلمنا إن بعد رحيل جيمس سيحل محله صبى عمره أربعة عشر عامًا ، واسمه «جو

جرين» . . وقد وصف جون هذا الصبى بأنه ولد ذكى ولديه استعداد ليتعلم المهنة بسهولة .

وفى اليوم التالى وصل « جو جرين » إلى الاسطبل . . وبدأ كل من جون وجيمس فى تعليمه كيف يرفع التبن والقش ، وكيف ينظف الاسطبل، وكيف يسوس الخيول .

وبعد ثلاثة أيام رحل جيمس . . وشعرنا جميعًا بالحزن على فراقه لدرجة أن ميرى ليجز رفض تناول الطعام لفترة طويلة .

● وفى وقت متأخر من إحدى الليالى بعد رحيل جيمس . . كنت نائمًا . . واستيقظت فجأة على صوت جون وهو يقول لى :

- هيا يا بلاك بيوتى . . ستقوم بمهمة خطيرة . . عليك أن تنجزها بمنتهى السرعة .

وبدون أن يمنحنى فرصة للتفكير ، وضع سرجى ولجامى وقادنى إلى باب البيت حيث رأيت أحد الخدم واقفًا وبيده مصباح . وقال الخادم : إن السيدة مريضة جـدًا وحياتها فى خطـر . . وعلينا أن نقوم باستدعاء الطبيب « الدكتور وايت » فورًا .

وقال جون : والآن يا بلاك بيوتى . . عليك أن تأخذ هذا الخادم وتجرى بسرعة لاحضار الطبيب . . فحياة السيدة متوقفة عليك .

وطبعًا أخذت أجرى بأقصى ما استطيعه من سرعة ، حتى وصلنا إلى بيت الطبيب فى الثالثة صباحًا . وقال الطبيب بعد أن عرف المطلوب ، إن



حصانه مريض ، وإن عليه أن يركبنى لآخذه إلى بيت السيدة . . وكان الطبيب عجوزًا ولا يجيد ركوب الخيل ، ومع ذلك قمت بتوصيله إلى البيت فى الوقت المناسب .

كنت مرهقًا وأشعر بتعب شديد بعد أن أديت هذه المهمة . . وأدخلنى الصبى « جو » إلى الاسطبل ، وأحضر قطعة من القماش ومسح بها العرق الذى يتصبب فوق ظهرى وصدرى وسيقانى . . ولكنه لم يضع بطانية دافئة على ظهرى . . ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أشعر بالبرد وأخذت أرتجف وأرتعد . . وأصبت بآلام شديدة فى كل أعضاء جسمى . . وسقطت مريضًا لعدة أيام . . وأحضروا لى طبيب الخيول الذى أعطانى دواء قويًا عدة مرات حتى تحسنت حالتى .

● وبعد مرور ثلاث سنوات قضيتها سعيدًا فى هذا البيت الكريم ، تولد لدى شعور بأن أشياء محزنة سوف تحدث . . فقد كانت السيدة مريضة جدًا . . وكان الطبيب يحضر لزيارتها عدة مرات فى أوقات متقاربة . . وقرر الطبيب فى نهاية الأمر أن السيدة لا بد أن تنتقل إلى منطقة ذات جو دافىء لبضع سنوات ، ولا بد من نقلها فى أسرع وقت ممكن . . وهكذا قام السيد باتخاذ كل الإجراءات للرحيل .

وعلمنا أن السيد قد باعنا أنا وجينجر لصديق له . . أما ميرى ليجز فقد أصبح من نصيب قس القرية .

وعندما حان موعد رحيل السيد والسيدة ساد الحزن علينا جميعًا ، وأخفى جون وجو دموعهما . . ثم قام جون باقتيادنا إلى بيتنا الجديد ، حيث قابل

مستر يورك . . وأفهمه جون أننا فرسين طيبين مطيعين مادمنا نلقى معاملة حسنة . وطلب منه جون ألا يستعمل الشكيمة وألا يضعها فى فم أى من هذين الحصانين .

فقال مستر يورك : أنا أفهم ذلك . . وكذلك المالك الجديد يتفهم هذا الأمر . . ولكن السيدة ـ بكل أسف ـ ستصر على استخدام الشكيمة لتساير الموضة الشائعة .

وفى اليوم التالى جاء مالكنا الجديد ليرانا ، وأخبره المستر يورك بما قاله جون عن عدم استخدام الشكيمة مع أى من هذين الفرسين لأنهما لم يعتادا عليها . . ويبدو أن المالك قد تفهم ذلك . . ولكنه قال لمستر يورك إن السيدة ستصر على استخدام الشكيمة والزمام الكابح مسايرة للموضة . . وأن عليه أن يقوم بتعويد الحصانين عليها .

وعنـدما جـاءت السيدة أمـرت مستر يورك باعداد العربة التى ستخرج بها ، فقام مستر يورك باعداد اللجام والسرج ، كما قام بوضع شكيمة فى فم كل منا . وطبعًا كانت هذه الشكيمة تؤلمنى ، وتؤلم لسانى ، وتجعلنى غير قادر على رفع رأسى إلى أعلى .

وفى اليوم التالى ، قالت السيدة لمستر يورك : لا بد من إحكام وضع الشكيمة وتضييقها طبقًا للموضة . . فقام بذلك مضطرًا . . وبالتالى فقد ازدادت آلامى فى سيقانى وفى فمى وفى ظهرى ، وبدأت روحى المعنوية تنخفض إلى حد كبير . . أما جينجر فقد ازدادت اضطرابًا وأصبحت لا تتحدث إطلاقًا كما لو كانت قد فقدت القدرة على النطق .

● وذات يوم طلبت السيدة من يورك أن يحكم وضع الشكيمة أكثر وأكثر، وأطاع يورك أمر السيدة صاغرًا . . وعندما أحكم وضع الشكيمة فى فمى أصبح رأسى مشدودًا إلى الوراء فى وضع مؤلم لا يحتمل . . وعندما شرع يورك فى وضع الشكيمة فى فم جينجر ، أصيبت بحالة من الهياج ، وقفزت إلى أعلى فجأة فأصيب يورك فى أنفه وكاد أن يسقط على الأرض . . وازداد هياج جينجر فأخذت تشب وترفس وتلقى بنفسها هنا وهناك حتى ارتطمت بعامود العربة وسقطت على الأرض جريحة وبها العديد من الرضوض والكدمات .

أمـا أنـا فقـد كان على أن أواصل جر العربة ، بالاشتراك مع حصان آخر لا أعـرفه .

وكانوا يضعون الشكيمة فى فمى كل يوم حتى كدت أفقد صحتى وطباعى الحسنة . . فقد كانت تلك الشكيمة الحادة تؤلم لسانى وفكى وتجعل تنفسى صعبًا للغاية . . وعندما كنت أعود إلى الاسطبل فى كل مرة ، كنت أشعر بالتعب وبألم شديد فى صدرى ورقبتى ، حتى تملكنى اليأس من استمرار الحياة على هذا النحو المؤلم .

● وفى بعض الأحيان كان يورك يغيب عن الاسطبل لمدة يومين أو ثلاثة أيام . . وعندئذ كان يترك الاسطبل فى رعاية رجل اسمه «روبين سميث» . . وهو رجل طيب وله خبرة فى رعاية الخيل بطريقة سليمة ، ولكنه كان للأسف مدمنًا على شرب الخمر حتى يفقد وعيه .

وذات يوم كلفوا روبين بقضاء مهمة فى إحدى القرى القريبة . . فاعتلى ظهرى وذهبنا إلى تلك القرية . . وهناك تركنى روبين فى اسطبل صغير ضيق، وذهب ليقضى المهمة المكلف بها . . ولاحظ سائس هذا الاسطبل أن هناك مسمارًا مفكوكًا بحدوتى . . وعاد روبين فى الساعة التاسعة ليلاً ، فأخبره السائس بوجود هذا المسمار المفكوك فلم يهتم ، وكان من الواضح أنه قد شرب كثيرًا من الخمر ، وقفز فوق ظهرى وبدأنا رحلة العودة فى ظلام الليل الحالك .

ولم يلاحظ روبين أن الحدوة قد انخلعت وبدأت أعرج لأن حافرى كان يؤلمنى . . ومع ذلك فقد ظل يحثنى على الجرى بخطوات سريعة حتى تشققت جوانب حافرى وتكسرت وأصبحت أشعر بآلام لا تحتمل . . فتعثرت خطاى وسقطت على ركبى الأربع . . وسقط روبين بالتالى من فوق ظهرى وارتمى على الأرض وهو يتأوه .

تحاملت على نفسى ووقفت على أقدامى وأخذت أعرج حتى وصلت إلى جانب الطريق . . وظل روبين راقدًا على أرض الطريق دون أى حركة . . وبالرغم من شدة آلامى فقد كان لدى أمل فى انقاذى .

● وقرب منتصف الليل ، سمعت وقع حوافر حصان قادم . . ولا أدرى كيف تصورت أنها وقع أقدام صديقتى جينجر . . فأخذت أصهل عندما تأكدت من أنها هى بنفسها وكانت تجر عربة خفيفة يركبها رجلان .

تباطأت العربة ووقفت بالقرب منى ومن روبين الراقد على الأرض بلا

حراك. ونزل أحد الرجلين وركع بجوار روبين وأخذ يفحصه . . وبعد دقيقة أو دقيقتين قال الرجل : أنه ميت . . وتفوح من فمه رائحة الخمر!

ونزل الرجل الثانى ، وأخذ الرجلان يفحصانى أنا الآخر . . فوجدا ركبى الأربعة مجروحة . . ولاحظا حوافر قدمى المشققة والمكسورة وأدركا أنها كانت بلا حدوة .

وبكل شهامة حمل الرجلان جثة روبين ووضعاها على العربة . . وربطانى بجوار جينجر وبدأنا رحلة العودة الحزينة إلى البيت .

وعندما وصلت إلى الاسطبل . . قاموا بغسل قدمى الجريحة وضمدوها . . ولفوا قطعًا من القماش الرطب حول ركبى الأربع . وبالرغم من شدة آلامى فقد استلقيت على القش الناعم واستغرقت فى النوم .

وفى صباح اليوم التالى جاء طبيب الخيول وفحص سيقانى وركبى ، وقال انه سيعالجنى إلى أن تلتئم جروحى ، ولكن هذه الجروح ستترك عاهات مستديمة فى ركبى .

● وبعد أن التأمت جروحى ، أخذونى إلى حقل مجاور لأمضى فيه بضعة أيام حتى استريح واستعيد صحتى . . وشعرت بشىء من السعادة ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت مهمومًا لشعورى بالوحدة . . وكنت أشعر بحنين دائم لصديقتى الحميمة جينجر . وعندما كنت اسمع صوت أى خيول تمر على الطريق المجاور للحقل ، كنت أصهل دون أن يكون لصهيلى أى رد .

ومع ذلك ففى يوم ما أحضروا جينجر إلى الحقل لكى تستريح من شدة ما كانت تعانيه من تعب وإرهاق . . وصهلت فرحًا حين رأيتها . . ولكنى فوجئت بأنها كانت مكتئبة وحزينة وهزيلة وتكاد أن تكون مدمرة تمامًا . . وتقدمت جينجر نحوى ، ونظرت إلى بحزن عميق ، وقالت بكلمات متقطعة : أرأيت يا بلاك بيوتى . . لقد أصبحت الحياة شاقة بالنسبة لنا . . لقد أصبحنا حطامًا بالرغم من اننا ما زلنا فى عز الشباب!

وبالرغم من كل تلك الأحزان ، فقد سعدت بصحبة جينجر ، وسعدت هى بصحبتى . .

وقعت كل هذه الأحداث فى غيبة السيد والسيدة اللذين كانا يقومان برحلة طويلة . . وعندما عادا من تلك الرحلة ، جاء السيد ليرانا ويطمئن علينا وكان معه مستر يورك . .

وقد فوجىء السيد عندما رآنا فى تلك الحالة المزرية . . فقال ليورك : إنى آسف جدًا لمصيرهما التعس . . وعلينا أن نحتفظ بجينجر لعدة شهور حتى نرى ما سوف تكون عليه حالتها . . أما بالنسبة لبلاك بيوتى فإن من الصعب أن نحتفظ به فى الاسطبل وهو بمثل هذه الركب المشوهة . . واقترح يورك أن من الممكن بيع الحصان لصديق له فى مدينة بعيدة .

وهكذا رحلت بالقطار إلى تلك المدينة حيث استلمنى المالك الجديد، وكان صاحب بعض الخيول والعربات التى يقوم بتأجيرها لمن يرغب فى استئجار عربة ، ولمن يرغب فى ركوب الخيل .

وقبل أن أحضر إلى ذلك المكان ، لم يركبنى سوى الأشخاص الذين يجيدون ركوب الخيل . . أما الآن فقد اختلف الأمر ، وركبنى كل أنواع البشر . الطيبون الذين كانوا يعاملوننى برفق ، وقساة القلوب الذين كانوا يلهبون جسمى بالسياط .

وبعد عدة شهور من هذه المعاناة اليومية القاسية ، اشترانى رجل طيب يجيد ركوب الخيل وكان يعاملنى معاملة حسنة ، ولكن السائس الذى كان يعمل عنده كان يسرق طعامى من الحبوب ويبيعها لحسابه حتى أصابنى هزال شديد .

وخلال الشهور التالية ، أصبحت انتقل بين مالك وآخر . . وكان أغلب هؤلاء الملاك من أصحاب عربات نقل البضائع أو عربات نقل الركاب . . وكان معظمهم يستغلون الخيل أسوأ استغلال ولا يتيحون لها أى قدر من الراحة .

وذات يوم ، كانت العربة التى أجرها واقفة على جانب الطريق فى انتظار أى زبون يستأجرها ، مرت بجوارى عربة قذرة متهالكة ، تحمل على ظهرها جثة أحد الخيول . . وعندما تأملت فى تلك الجثـة ، فوجئت بأنها صديقتى الحميمة جينجر . . فأصابنى حـزن شديد لتلك النهاية المفجعة . . ومع ذلك فقد أدركت أن هذه المسكينة قـد استراحت أخيرًا من كل ما كانت تعانيه من عـذاب . . وظـل نظـرى متعلقًا بالعربة إلى أن اختفت ولا أدرى أين ذهبت .

● أما أنا ، فقد ظللت أعانى أنواعًا كثيرة من العذاب المؤلم . . فقد كان على أن أجر عربات محملة ببضائع ثقيلة . . أصعد بها فوق الطرق المنحدرة فى التلال العالية . . تحت لهيب السياط وضربات الكرابيج . . وانتقل من مالك ظالم مفترى ، إلى مالك أكثر ظلمًا وافتراءً ، حتى أصابنى المرض ، وبدأت أشعر بأن الحياة أصبحت غير جديرة بالاستمرار. . وفى نهاية الأمر عرضونى للبيع فى سوق الخيول ، وأوقفونى فى المكان المخصص للخيول العواجيز والخيول المرضى .

وكان من ضمن الزبائن الذين فحصونى ، رجل عجوز يبدو انه من المزارعين ، وكان يصحب معه صبيًا صغيرًا اسمه « ويلى » . . وما أن شاهدنى هذا الصبى حتى قال للرجل العجوز : انه حصان جميل يا جدى . . واعتقد انك قادر على شفائه من مرضه وأن تعيد إليه شبابه .

وبعد أن فحصنى الرجل العجوز بشكل جيد قال لحفيده : هذا الحصان ليس عجوزًا حتى أعيد إليه شبابه . . إنه يبدو كما لو كان قد تعرض إلى معاملات سيئة . . وهو قابل للشفاء لو عومل معاملة حسنة وتغذى بشكل جيد . . وسوف اشتريه يا ويلى .

وكان ويلى فى تلك الأثناء يربت على رقبتى بعطف وحنان جعلنى أشعر بسعادة غامرة .

وهكذا اشترانى الرجل العجوز وأخذنى إلى مزرعته . . وهناك تولى ويلى رعايتى ، وكان يقدم إلى غذاء من الحبوب كل صباح وكل مساء ، وفى أثناء

النهار كان يأخذنى إلى الحقل حيث كنت آكل بعض الحشائش الخضراء ، وكان ويلى يعطينى الجزر وهو يربت على رقبتى وجسمى .

وبطبيعة الحال فقد تم شفائى وتحسنت حالتى وعادت الى السعادة التى كدت أن أفقدها تمامًا .

● وفى أحد أيام فصل الصيف ، لاحظت أن السائس بذل عناية فائقة وهو ينظفنى ويمشط شعرى ، ويعدنى لجر العربة ، وما أن بدأت السير حتى سمعت ويلى يقول لجده : أنا متأكد يا جدى أن الآنسات سوف يعجبن ببلاك بيوتى . . وسوف يعاملنه معاملة حسنة لأنه جميل وطيب . . وأنا متأكد أيضًا أن بلاك بيوتى سيكون سعيدًا فى حياته الجديدة .

وفهمت من هذا الحديث أن حياتى توشك أن تتغير . ووصلنا أخيرًا إلى بيت صغير تحف به الأشجار . وقام ويلى بدق الجرس فانفتح الباب وخرجت منه ثلاث آنسات شابات . . وما أن رأيننى حتى ابتسمن وبدا عليهن الابتهاج .

وقالت إحدى الآنسات بعد أن عرفت ان اسمها « إلين » : يا له من حصان جميل !

وألقت الآنسات أسئلة كثيرة لكى يعرفن كل شيء عنى . . وقال الجد العجوز إن هذا الحصان كان قد تعرض فيما مضى إلى معاملة سيئة . . ولكنه الآن فى حالة ممتازة . . وكل ما يحتاج إليه هو أن يعيش فى بيت يعامل فيه بحب وعطف .

وقـررت الآنسات أن أبقى معهن لفترة تجريبية . . وهنا احتضننى ويلى وجـده ، وأخذا يربتان على ظهرى ورقبتى وهما يودعانى .

وجاء سائس شاب ، وسحبنى بلطف إلى الاسطبل الملحق بالبيت ، ولاحظت على الفور انه اسطبل نظيف ومرتب أحسن ترتيب ، وقدم إلى السائس غذاء جيدًا من الحبوب . . ولاحظت أن السائس كان يحملق فى بدهشة حين كنت أتناول طعامى . . ثم قال وهو يربت على ظهرى : إنك تشبه حصانًا أعرفه جيدًا . . كان له شعر أسود . . وكانت له غرة بيضاء فى رأسه وغرة بيضاء أخرى فى إحدى أقدامه . . مثلك تمامًا . . لا بد أنك بلاك بيوتى نفسه . . هل تعرفنى . . أنا جو جرين . . هل تذكر ذلك الصبى الذى كاد أن يتسبب فى موتك حين نسى أن يغطيك بالبطانية منذ سنوات فى تلك الليلة ذات البرد القارس ؟!

واحتضننى جو جرين بكل عطف وحنان وهو يعبر عن سعادته بعودتى إليه بعد كل هذه السنوات . .

وهكذا عشت فى هذا البيت حياة منتظمة هادئة . . حيث كنت أجر عربة الآنسات حين يردن الخروج . . وحيث يرعانى جو جرين رعاية فائقة . . وكان ويلى وجده يحضران بين حين وآخر للاطمئنان على . . وأصبحت أشعر بأنى أسعد حصان بين الخيول كلها . . !!

* * *

للكاتب الانجليزى :

جــورج أورويــل

مزرعة الحيــوان

ANIMAL FARM

GEORGE ORWELL

مستر « جونس » هـو صاحب مزرعـة يربى فيها مجمـوعة كبيـرة من الحيوانات . . وفى إحدى الأمسيات قام وهو يترنح بإغلاق حظيرة الدجاج ونسى أن يغلق نوافذها الصغيرة . . وعاد وهو يترنح إلى غـرفة نومه ، وألقى بنفسه على السرير بجـوار زوجتـه « مســز جونس » التـى كانت مستغرقة فى النـوم .

وبعد أن اطمأنت جميع حيوانات المزرعة إلى أن « مستر جونس » قد نام هو الآخر ، بدأوا يتجمعون فى فناء المزرعة لكى يستمعوا إلى تفاصيل الحلم الذى رآه الخنزير « ميجور العجوز » ليلة أمس . . خصوصًا وأن هذا الخنزير له اعتبار كبير لدى جميع حيوانات المزرعة . . فقد كان فى الثانية عشرة من عمره ، واكتسب كثيرًا من الحكمة والخبرات الطويلة .

وبدأ حضور الحيوانات واحدًا بعد الآخر . . وكان أول من وصل هم الكلاب الثلاثة « بلوبل » و « جيسى » و « بينشر » . . ثم جـاءت الخنازير وجلست أمام المنصة . . ثم قفزت الدجاجات إلى حـواف النوافذ . . وحط الحمام على العـوارض الخشبية . . وجـاءت الأغنام والأبقار وجلست وراء الخنازير . . ثم وصل الحصان « بوكسر » والفرسة « كلوفر » . . ووصلت

بعدهما العنزة البيضاء « موريل » . . وأخيرًا حضرت المهرة « موللى » ثم الحمار « بنجامين » الذى كان لا يضحك أبدًا !

وبعد أن تأكد الخنزير « ميجور العجوز » أن جميع الحيوانات قد حضروا وأخذوا أماكنهم وأوضاعهم المريحة ، تنحنح وبدأ حديثه قائلاً :

أيها الرفاق . . قبل أن أذكر لكم تفاصيل الحلم الذى رأيته بالأمس . . أود أن أحدثكم عن طبيعة الحياة التى نعيشها على تلك الأرض . . إن حياتنا تعيسة . . هذه هى الحقيقة . . إننا نكد ونكدح لصالح الإنسان . . إن نتاج عملنا يسرقه منا بنو البشر . . إن الإنسان هو عدونا الحقيقى . . إنه لا يدر اللبن الحليب ولا يضع البيض . . وهو ضعيف لا يمكنه جر المحراث إلا بمساعدتنا له . . فأنت أيتها الأبقار التى أراها أمامى . . كم من آلاف جالونات الحليب أخذها منك الإنسان وأفرغها فى جوفه . . وأنت أيتها الدجاجات كم من آلاف البيضات التى يستولى عليها الإنسان كل صباح . . وأنت يا « كلوفر » أين ذهبت مهراتك الأربع التى أنجبتها . . لقد باعوها لآخرين .

وبالرغم من هذه الحياة التعيسة التى نحياها مجبرين ، فانهم سيذبحوننا بالسكاكين فى نهاية الأمر . . كلنا سنذبح وسنواجه هذا الرعب القاتل . . الأبقار . . والخنازير . . والدجاج . . والأغنام . . !

أليس من الواضح أيها الرفاق أن كل الشرور فى حياتنا سببها الإنسان وطغيان البشر . . ومع ذلك فإن الحل فى أيدينا . . وعلينا أن نقوم بالثورة

ضد بنى البشر . . ويجب عليكم أن تبلغوا رسالتى هذه إلى من سيأتى بعدكم من أجيال قادمة .

تذكروا جيدًا أن كل من يمشى على قدمين هو عدو لنا . . وكل من يمشى على أربع أو له أجنحة فهو صديق لنا . .

أمـا عن الحلم الذى رأيته فى منامى ليلة الأمس ، فهو حلم غريب ذكرنى بأيام طفـولتى عنـدما كانت أمـى والخنـزيرات الأخـريات ينشـدن أغنيـة لأطفالهن الصغار . . ويبدو أن هـذه الأغنية كان يغنيها جميع الحيوانات فى العالم عنـد بدايـة ظهور الإنسان على الأرض . والآن سأنشد لكم كلمات الأغنية بألحانها القديمة . . إن صـوتى أجش لأنى عجـوز . . لكن عنـدما ترددون الأغنيـة ورائى ، فسوف يمكنكم غنـاءها بطـريقة أفضل . . فهيا معـى :

سوف يأتى اليوم حتمًا . .

لنعيش فى مستقبل سعيد . .

حين نطيح بالإنسان الطاغية . .

وستصبح الأرض كلها ملكًا لنا . .

ولن يلسعنا أحد بالسياط ليجبرنا على العمل . .

ولن يستولى أحد على بيضنا . . وحليبنا . .

ولن يذبحنا أحد ليأكل لحومنا . .

علينا أن نكدح فى سبيل الحرية . .

وعلينا أن نلقن هذا الدرس لأبنائنا . .

حتى نطيح بالإنسان الطاغية .

وهكذا بدأت حيوانات المزرعة تردد كلمات وألحان تلك الأغنية وراء الخنزير « ميجور » . . وكان كل حيوان منها يشترك فى الغناء بصوته المميز . . وبلغت بهجة الجميع بالأغنية حدًا جعلهم ينشدونها خمس مرات متتالية . . وساد الصخب جميع أرجاء المزرعة .

وهنا قفز « مستر جونس » من سريره بعد أن ظن أن ثعلبًا يهاجم حيوانات المزرعة ، فأمسك بالبندقية الموضوعة بجانبه . . وأطلق فى الهواء ستة أعيرة نارية متتالية ، فانفض اجتماع الحيوانات ، وأسرع كل حيوان إلى المكان المخصص لنومه . .

* * *

توفى الخنزير « ميجور العجوز » بعد ثلاثة أيام من إلقاء كلماته التى يحض فيها الحيوانات على الثورة ضد طغيان الإنسان ، وتم دفنه فى نهاية المزرعة .

وكان هناك خنزيران ذكيان . . اسم الأول « سنوبول » . . واسم الثانى «نابليون» . . اشتركا مع خنزير ثالث اسمه « سكويلر » فى قيادة حيوانات المزرعة . . وكانوا يعقدون اجتماعات سرية كل ليلة بعد أن ينام « مستر جونس» يحضرها جميع الحيوانات . .

وقام هؤلاء الخنازير الثلاثة بتطوير الأفكار الثورية التى وضعها «ميجور العجوز» إلى نظام فكرى متكامل أطلقوا عليه اسم « الحيوانية » .

وكان « مستر جونس » قـد أصيب بخسارة مالية كبيرة فى إحدى القضايا . . فثبطت عزيمته وأصبح كسولاً . . أما الرجال الذين كانوا يعملون عنده فقد كانوا أكثر منه كسلاً . . فامتلأت المزرعة بالأعشاب البرية ، وتعرضت أسوارها للإهمال . . وأصيب جميع الحيوانات بالجوع ، لأن الرجال لم يهتموا بتقديم الغذاء الكافى لتلك الحيوانات .

وفى شهر يونيو ، أصبح البرسيم جاهزًا للحصاد ، ولم يهتم الرجال بتغذية الحيوانات . . وعندما حل المساء . . كانت الحيوانات تعانى الجوع الشديد . . ولم يعد فى استطاعتها الاحتمال أكثر من ذلك . . فقامت إحدى الأبقار بكسر باب مخزن الطعام ، وتبعها جميع الحيوانات الأخرى وصاروا يأكلون ما تحتويه صناديق الخزين من حبوب .

ونتيجة لهذا الصخب والضجيج ، استيقظ « مستر جونس » واصطحب معه أربعة من رجاله يحملون السياط وأخذوا يلسعون بها ظهور الحيوانات .

وبالرغم من أن ذلك لم يكن مخططًا من قبل ، اندفعت جميع الحيوانات وانقضت على الرجال الخمسة بكل ما تستطيعه من النطح والرفس . . وقد أذهلت هذه الثورة الفجائية الرجال الذين أصيبوا بالذعر ففروا هاربين ، ولاحقتهم الحيوانات حتى خرجوا من المزرعة . .


قطب

وتطلعت « مسز جونس » من نافذة حجرة النوم ، ورأت هروب الرجال من المزرعة ، فسارعت بالهروب هى الأخرى . . هكذا تمت الثورة بنجاح تام، وأصبحت المزرعة ملكًا خاصًا بالحيوانات التى كانت تعيش فيها !

وفى البداية لم تصدق الحيوانات نجاح ثورتها إلى هذا الحد . . فأخذت تدور حول أرجاء المزرعة حتى تتأكد من عدم وجود أى إنسان مختبئ . . كما قامت بتجميع كل السكاكين والسلاسل وألقت بها فى أعماق البئر . أما سيور اللجام والسياط فقد ألقت بها فى نار أشعلوها فى فناء المزرعة . .

وهكذا دمرت الحيوانات كل شىء يذكرها « بمستر جونس » . . وقام الخنزير « نابليون » بقيادة الحيوانات إلى مخزن الحبوب . . وقدم حصة كبيرة لكل حيوان ، كما قدم قطعتين من البسكويت لكل كلب . . وقام الجميع بإنشاد أغنية الثورة سبع مرات متتالية . . ثم ذهبوا ليناموا وهم فى غاية السرور.

وعندما استيقظوا فى صباح اليوم التالى . . تناولوا طعام الإفطار . . ثم توجهوا إلى القصر الذى كان يعيش فيه « مستر جونس » وعائلته . . وتجولوا فى جميع الحجرات حجرة بعد حجرة وهم يسيرون على أطراف أقدامهم حتى لا يفسدوا أو يحطموا أى شىء . . وشاهدوا الفخامة فى الأسرة المفروشة ، والمخدات المحشوة بالريش ، والأرائك والمرايا والسجاجيد . . وعندما وصلوا إلى المطبخ شاهدوا بعض القطع من لحوم الخنازير المحمرة معلقة ، فأنزلوها ودفنوها . . أما برميل البيرة فقط حطمه الحصان « بوكسر » برفسة قوية من حافره .

وفى أعقاب تلك الزيارة ، قام الخنزيران « سنوبول » و « نابليون » بدعوة الحيوانات إلى اجتماع هام اتخذوا فيه قرارات هامة منها قرار بالابقاء على القصر كمتحف . .

وفى أثناء هذا الاجتماع قام « سنوبول » بتعليق لافتة على باب المزرعة كتب عليها « مزرعة الحيوان » . . وقال : لقد قمنا أنا ونابليون بتقسيم مبادىء «الحيوانية» إلى سبع وصايا ستكون هى الدستور الذى يجب أن يلتزم به جميع حيوانات المزرعة . . !

وقام بتعليق لافتة كبيرة فى فناء المزرعة مكتوب عليها بخط واضح نصوص هذه الوصايا وهى :

١ ـ كل ما يسير على قدمين هو عدو .

٢ ـ كل ما يسير على أربع أو له أجنحة فهو صديق .

٣ ـ يحظر على الحيوان ارتداء الملابس .

٤ ـ يحظر على الحيوان النوم فى سرير .

٥ ـ يحظر على الحيوان تعاطى الخمور .

٦ ـ يحظر على الحيوان قتل أى حيوان آخر .

٧ ـ جميع الحيوانات متساوية .

وقبيل نهاية الاجتماع ألقى « سنوبول » خطبة قصيرة قال فيها : والآن أيها

الرفاق علينا أن نذهب معًا لحصاد البرسيم . . وهـو عمل قد يستغرق طـول النهـار . .

وفى تلك اللحظة بدأت البقـرات الثلاث فى الخـوار بصوت مرتفـع . . وأخبرت الحيوانات الأخرى بأن حلب اللبن من أثدائها قد توقف منذ أربع وعشرين سـاعـة . . وأصبحت أثداؤها على وشـك الانفجـار . وقامت الخنازير فورًا باحضار خمسة « جرادل » وحلبت البقرات حتى امتلأت «الجرادل» بالحليب الدسم . . وتطلعت الحيوانات إلى هذا الحليب . . وتساءل أحدهم : ماذا سيحدث لكل هذا الحليب ؟! . . فأجابت إحدى الدجاجات : كان « جونس » يمزج بعضًا منه فى طعامنا !

وهنا تدخل « نابليون » وصاح : لا تهتموا بأمر الحليب . . أيها الرفاق . . هيا إلى حقل البرسيم لنبدأ الحصاد . . إلى الأمام أيها الرفاق !

وانطلقت الحيوانات إلى حقل البرسيم . . وظلوا يحصدون طول النهار . . وعندما عادوا فى المساء . . لاحظوا أن الحليب قد اختفى !!

* * *

بذلت الحيوانات جهدًا عظيمًا فى حصاد البرسيم وتخزينه . . وكان كل حيوان يعمل بقدر طاقته وحسب امكانياته . . وكان الجميع مقتنعين بأنهم أصبحوا ينتجون الطعام بأنفسهم ولأنفسهم . . وكان الحصان « بوكسر » أكثرهم عملاً اعتمادًا على قوة عضلاته وقوة تحمله . . لدرجة انه عقد اتفاقًا مع ديك شاب ليؤذن لإيقاظه بساعة قبل أى حيوان آخر .

أما الخنازير فلم تكن تشارك الحيوانات الأخرى فى العمل الشاق . . واكتفت بالتوجيه والإشراف على الآخرين وقيادتهم أثناء أدائهم للأعمال المنوطة بهم . . فكانوا يقولون مثلاً : إلى الأمام أيها الرفاق . . إلى الخلف أيها الرفيق . . وهكذا !

والحقيقة أن جميع الحيوانات كانوا فرحين لأنهم تخلصوا من البشر الذين كانوا يستغلونهم لمصالحهم الخاصة . . وفى كل يوم من أيام الآحاد يأخذون أجازة ويقيمون احتفالاً اسبوعيًا يرفعون فيه علم المزرعة وينشدون أغنية الثورة عدة مرات . وكان علم المزرعة عبارة عن قطعة خضراء من القماش رسموا عليها حافرًا وقرنًا . . كرمز لجمهورية الحيوانات التى ستقام فى المستقبل بعد أن يطيح الحيوانات فى كل مكان بالجنس البشرى المستغل .

وتعلمت حيوانات المزرعة كيفية التصويت عند اتخاذ القرارات التى كان يعرض مشروعاتها كل من الخنزيرين « سنوبول ونابليون » . . وقد لاحظت الحيوانات أن هذين الخنزيرين ليسا على وفاق فى جميع الأحوال . وكان كل خنزير منهما يحاول اكتساب المزيد من المؤيدين .

وقد استولت الخنازير على إحدى الحجرات بداخل القصر وحولتها إلى «مركز قيادة» . . كما بدأت تتعلم الحدادة والنجارة وبعض الحرف والفنون الأخرى من الكتب التى وجدتها فى أحد رفوف المكتبة . . وشغل «سنوبول» نفسه بتكوين مجموعات أطلق عليها اسم « لجان الحيوان » . . مثل « لجنة انتاج البيض » . . و « لجنة الصوف الأكثر بياضًا » الخاصة بالأغنام . . كما أنشأ بعض الفصول الدراسية لتعليم الحيوانات القراءة والكتابة !

أما « نابليون » فلم يهتم إطلاقًا بتلك اللجان التى أنشأها « سنوبول » . . وكان يقول دائمًا إن تربية الصغار أهم بكثير من تلك اللجان .

وعندما أنجبت الكلبتان « جيسى وبلوبل » تسعة كلاب صغيرة . . أخذها « نابليون » بعيدًا ووضعها فى مكان مرتفع يصعب الوصول إليه .

وقد اتضح فيما بعد لغـز اختفاء الحليب الذي كانت تدره الأبقار . . فقد كان يمزج مع طعام الخنازير . . كما أن التفاحات التى كانت تتساقط من الأشجار كانت تجمع فورًا لتأكلها الخنازير دون الحيوانات الأخرى . . فساد التذمر ضد هذه الأوضاع غير العادلة . . لذلك فقد اتفقت الخنازير فيما بينها على إيفاد الخنزير « سكويلر » لإفهام الحيوانات الأخرى حقيقة الأمر . . وعقد اجتماعًا قال فيه :

أيها الرفاق . . إياكم أن تظنوا أن الخنازير يحصلون على الحليب والتفاح لأنهم أنانيون ويريدون التميز عليكم . . لا . . وألف لا . . إن كثيرًا من الخنازير لا تحب الحليب ولا التفاح . . وأنا شخصيًا لا أحبهما . . ولكن هدفنا الوحيد هو المحافظة على صحتنا . . لأننا نحن الخنازير نعمل بعقولنا . . ونحن ندير هذه المزرعة من أجل مصلحتكم . . ومن أجلكم أنتم نشرب هذا الحليب ونأكل التفاح . . ولعلكم تعلمونْ ماذا سيحدث لو فشلنا فى إدارة المزرعة . . سوف يعود « جونس » ليستولى على المزرعة ويستولى عليكم . . فهل يرغب أحد منكم فى عودة « جونس » ؟! . .

وبطبيعة الحال فلم يوافق أى حيوان على عودة « جونس » . . وعلى ضوء

هـذا الإيضـاح ، أصبـح جليًـا تمـامًا أهميـة أن تكـون الخنـازيـر بصحـة جيـدة . . وأن يكون من حقها الحصول على كـل الحليب وعلى كـل محصول التفـاح !

* * *

انتشرت أخبار « مزرعة الحيوان » فى معظم أنحاء البلاد المجاورة . . فقد كان كل من « سنوبول ونابليون » يرسلان أسرابًا من الحمام للاختلاط بحيوانات المزارع الأخرى واخبارها بقصة « الثورة » ولتعليمها كلمات وألحان أغنية الثورة . . وقد شاع الخوف بين أصحاب المزارع خشية أن تقوم الحيوانات بالثورة ضدهم !

وكان « مستر جونس » يمضى معظم وقته فى حانة « الأسد الأحمر » ببلدة «وليجدون» المجاورة ، وكان يشكو حـاله لأصحاب المزارع ويحـرضهم على ضرورة مساعدته فى إعـادة السيطرة على مزرعتـه حتى لا يكون مصيرهم مثل مصيـره .

ويبدو أن أسراب الحمام التى كان يرسلها « سنوبول ونابليون » قد حازت بعض النجـاح . . حيث سـادت موجـة من العصيان من جـانب بعض الحيوانات فى المزارع الأخرى . . وأخذت هذه الحيوانات تنشد أغنية الثورة بين حين وآخر . ولذلك فقد قرر اثنان من أصحاب المزارع القريبة مساعدة «مستر جونس» فى الهجوم لاستعادة مزرعته .

وكان مثل هذا الهجوم أمرًا متوقعًا فى « مزرعة الحيوان » . . فقد كان

«سنوبول» قد أعد جميع الاستعدادات للدفاع عن المزرعة، وذلك بعد أن قرأ كتابًا قديمًا عن حملات «يوليوس قيصر» كان قد عثر عليه فى مكتبة القصر.

وما أن بدأت طلائع الهجوم فى الاقتراب من « مزرعة الحيوان » حتى صدرت الأوامر بسرعة وأخذ كل حيوان موقعه فى المكان المخصص له ليقوم بالدفاع عن نفسه وعن المزرعة .

وعندما بدأ المهاجمون فى الدخول من باب المزرعة بدأ خط الدفاع الأول فى عمله ، فأخذ الحمام يطير ذهابًا وإيابًا فوق رؤوس المهاجمين . . واندفعت جماعات من الأوز وأخذت تنقر سيقانهم بشكل مزعج . ونجحت هذه المناورة فى خلق الكثير من الفوضى والارتباك بين المهاجمين . . وعندئذ بدأ خط الدفاع الثانى فى عمله . . وانطلقت على الفور مجموعة من الخراف راحت تنطح المهاجمين من كل جانب .

ومع ذلك فقد واصل المهاجمون هجومهم . . وتقدموا حتى أصبحوا داخل فناء المزرعة . وهنا بدأ خط الدفاع الرئيسى . . فاندفعت نحوهم الجياد الثلاثة والأبقار الثلاثة وجميع الخنازير بقيادة « سنوبول » . . وصوب «مستر جونس» بندقيته نحوه وأطلق رصاصة أصابت « سنوبول » فى ظهره بخدوش دامية . . غير أن الحصان « بوكسر » بدأ يرفع أرجله الخلفية ويضرب بحوافره الحديدية . . وأصابت ضربته الأولى أحد الفتيان المهاجمين فارتمى على الأرض فاقد النطق . . وعندما شاهد المهاجمون هذا المنظر ، ألقوا بعصيهم على الأرض وانتابتهم حالة من الذعر ولاذوا بالفرار .

وانطلقت على أثرهم جميع حيوانات المزرعة ، وأشبعتهم عضًا ورفسًا ودوسًا . . كل حيوان بطريقته الخاصة . . حتى القطة قفزت من فوق السطح على كتفى أحد المهاجمين وغرزت مخالبها فى عنقه . . وفى خلال دقيقة واحدة أصبحت « مزرعة الحيوان » خالية من أى إنسان !

وبعد أن عادت الحيوانات إلى فناء المزرعة ، وجدت الحصان « بوكسر » واقفًا بجوار الفتى الملقى على الأرض منذ أن رفسه رفسة قوية . . وكان «بوكسر» يشعر بحزن عميق حين قال « لسنوبول » : لقد مات الفتى . . ولم أكن أقصد قتله . . فليست لدى رغبة فى قتل أحد حتى ولو كان من البشر.

قال « سنوبول » : الحرب هى الحرب يا صديقى . .

وعندما اجتمعت الحيوانات للاحتفال بنصرهم المؤزر . . أخذوا ينشدون أغنية الثورة عـدة مـرات . . وقـرروا بالإجماع ابتكار وسام عسكرى أطلقوا عليه «بطل الحيوانات من الدرجة الأولى » . . وابتكروا وسامًا آخر أطلقوا عليه « بطل الحيوانات من الدرجة الثانية » وانعموا به على خروف قد قتل أثناء المعركة .

وعندما عثروا على بندقية « مستر جونس » . . علموا أن هناك مخزونًا من الذخيرة فى إحدى حجرات القصر . . وقرروا وضع هذه البندقية عند أسفل سارية العلم كقطعة مدفعية كما قرروا إطلاقها فى أول ذكرى سنوية للمعركة التى خاضوها دفاعًا عن المزرعة !

* * *

فى بداية فصل الشتاء ، أصبحت الفرسة « موللى » تثير كثيرًا من المشاكل . . وكانت تمتنع عـن العمل بعـد أن تقـدم أعـذارًا غيـر مقنعة . . وفى يوم ما بينما كانت تسير فى الفناء معجبة بنفسها ، استوقفتها الفرسة « كلوفر » وسألتها : « موللى . . لقد رأيتك هذا الصباح وأنت تتطلعين من فوق السور الذى يفصل مزرعتنا عن المزرعة المجـاورة . . ورأيتك وأنت تتحدثين إلى صـاحب تلك المـزرعـة الـذى كـان يربـت على رأسـك . . فما معنـى ذلك يا موللى». . ؟!

وصاحت « موللى » قائلة : هذا غير صحيح !

وقالت « كلوفر » : ولكنى رأيت ذلك بعينى !

وكـررت « موللى » قولتها : هـذا غير صحيح . . ثم انطلقت هاربة نحو الحقـل . .

وبعد ثلاثة أيام اختفت « موللى » من المزرعة . . وأفادت الحمامات بأنها رأتها فى المزرعة المجاورة . . ورأت صاحب المزرعة وهو يعطيها بعض قطع السكر فى فمها .

وفى تلك الأيام ازدادت الخلافات بين « سنوبول » و « نابليون » . . فقد اقترح « سنوبول » على الحيوانات التى تقوم بانشاء طاحونة يمكن تشغيلها لمولد كهربائى يوفر الضوء فى كل الحظائر كما يوفر الدفء أيام الشتاء ، كما يقوم بتشغيل ماكينة حلب كهربائية . . وقام « سنوبول » باقناع الحيوانات

بأن هذه الآلات ستوفر الراحة للحيوانات وستقلل من أعمالهم بحيث لن تحتاج الحيوانات لأكثر من ثلاثة أيام عمل فى الأسبوع .

وعلى الفور عارض « نابليون » مشروع هذه الطاحونة بمنتهى القوة ، وقال : إن مهمتنا هى زيادة انتاج الطعام . . وإذا ضيعنا الوقت فى انشاء تلك الطاحونة فستموت الحيوانات كلها من الجوع . .

وهكذا انقسمت حيوانات المزرعة إلى حزبين ، واتخذ كل حزب شعارًا خاصًا به . . فقد اتخذ حزب « سنوبول » شعار « صوتوا لسنوبول ولثلاثة أيام عمل فى الأسبوع » . . واتخذ حزب « نابليون » شعار « صوتوا لنابليون من أجل المزيد من الطعام » !

ومع ذلك فقد استمر « سنوبول » فى وضع الخطط الخاصة بانشاء الطاحونة . . وألقى خطبة صور فيها بعبارات براقة ما ستكون عليه المزرعة حين يرفع عبء العمل عن كاهل الحيوانات . . حيث أن الآلات الكهربائية ستقوم بعمليات حراثة الأرض، وتمهيد الأرض المحروثة، وأعمال الحصاد ودرس الحبوب بالاضافة إلى توفير الإضاءة والماء الساخن والبارد . . وهنا لم يعد هناك شك فى أن تصويت الحيوانات سيكون فى صالحه .

وعلى الفور أطلق « نابليون » صفارة ، فظهرت تسع كلاب ضخمة تعوى عواء مخيفًا وهجمت مباشرة على « سنوبول » الذى وثب من مكانه ولاذ بالفرار . . ولكن الكلاب أخذت تجرى وراءه إلى أن انزلق فى حفرة عند السور ، ولم يره أحد بعد ذلك .

احتارت الحيوانات فى أمر تلك الكلاب الشرسة وتساءلت من أين جـاءت . . ثم انكشف الأمر حين علمت بأنها الكلاب التسعة التى أخذها « نابليون » وقام بتربيتها على الشراسة والتوحش والطاعة لكل أوامره .

وعندما استتب الأمر وأصبح « نابليون » الحاكم الآمر الناهى لمزرعة الحيوان ، أعلن ان الاجتماعات ستتوقف من الآن . . وقال إنها غير ضرورية ومضيعة للوقت . . وأعلن تكوين لجنة مختصة من الخنازير يترأسها هو ، للبت فى جميع الأمور المتعلقة بالعمل فى المزرعة . وستقوم اللجنة باخبار الحيوانات بما يتقرر . . وأن فى إمكان الحيوانات الاجتماع صباح كل أحد لتحية العلم وإنشاد أغنية الثورة ، وتتسلم أوامر الأسبوع . . ولكن لن يكون هناك جدال أو نقاش !

وحاولت بعض الحيوانات التذمر احتجاجًا على هذه الأوضاع الجديدة . . ولكن الكلاب نبحت عليها نباحًا عاليًا فسكتت الحيوانات على الفور .

وقد اعتاد « نابليون » الجلوس على منصة عالية وبجواره الخنزير «سكويلر» وخنزير آخر اسمه « مينيموس » كانت له موهبة فى تأليف الأغانى ونظم قصائد المديح فى « نابليون » ونظام حكمه .

وبعد حوالى أسبوعين من طرد « سنوبول » واختفائه . . أعلن «نابليون» ضرورة انشاء الطاحونة دون أن يعطى أى سبب لتغيير رأيه . . وقام «سكويلر» بإفهام الحيوانات بأن فكرة الطاحونة كانت من أفكار «نابليون» وأن تصميم الطاحونة الذى ادعاه « سنوبول » قد سرق من بين أوراق

«نابليون» . . وهنا تساءلت بعض الحيوانات : ولكن لماذا كان « نابليون » يعارض فكرة إنشاء الطاحونة فى بداية الأمر ؟!

فقال « سكويلر » : لقد تظاهر بأنه يعارض الطاحونة كمناورة للتخلص من « سنوبول » . . وهذا أيها الرفاق ما يسمى بالتكتيك . . التكتيك يا رفاق قد يكون صعبًا على أفهامكم . . ولكنه التكتيك أولاً وأخيرًا . . !!

* * *

وعلى مدى الأيام والأسابيع والشهور ، ظلت الحيوانات تعمل كالعبيد ، ولكنها كانت تحصل على طعامها المناسب . . كما تضخمت شخصية «نابليون» إلى حد كبير وكثرت أوامره ونواهيه التى كان يصدرها منفردًا . . وكان يعتمد على « سكويلر » لشرح وتبرير هذه الأوامر .

وكانت هناك عدة صعوبات تعترض إنشاء الطاحونة . . منها مشكلة تقطيع الأحجار الكبيرة إلى قطع صغيرة ، وهى عملية شاقة بذلت فيها الحيوانات كثيرًا من الجهد . وظهر فى المزرعة شعار جديد هو « نابليون دائمًا على حق » . وكان على الحيوانات أن تردده بين حين وآخر ، وفور صدور أى أمر من أوامر « نابليون » .

وفى خلال فصل الصيف ، ظهرت الحاجة الملحة إلى مجموعة من الأشياء الناقصة مثل الزيت والمسامير والخيوط وبسكويت الكلاب ، والحديد الخاص بنعال الجياد . . بالإضافة إلى الحاجة إلى البذور والسماد . . علاوة على الماكينات الخاصة بالطاحونة . . ولم يكن أى حيوان من حيوانات المزرعة يعرف أى طريقة لتدبير هذه الاحتياجات والحصول عليها .

وفى أحد الاجتماعات التى تعقد صباح أيام الأحد ، أعلن « نابليون » انه قرر تنفيذ سياسة جديدة للمزرعة . . حيث تقوم المزرعة بالتعامل التجارى مع المزارع الأخرى المجاورة ، وتبيع منتجاتها فى سوق بلدة «ويلينجدون» المجارة حيث يمكن بيع البيض الذى تنتجه الدجاجات . . وهنا شعرت الحيوانات بالقلق ، لأنها تذكرت التوصيات التى اتخذتها عندما تم طرد «مستر جونس» من المزرعة ، حيث تقرر عدم مزاولة التجارة وعدم التعامل مع البشر.

وعندئذ قال « نابليون » إنه سيأخذ الأمر على عاتقه ، وإنه قد اتفق مع «مستر ويمبر» وهو أحد المحامين الذين يعملون فى بلدة « ويلينجدون » على أن يزور المزرعة صباح كل يوم إثنين ليتلقى أوامره وينفذ طلباته . . وأنهى «نابليون» حديثه بهتاف : « تحيا مزرعة الحيوان » . . وطلب من الحيوانات أن تنشد معًا أغنية الثورة !

وبالفعل بدأ « مستر ويمبر » يحضر إلى المزرعة فى المواعيد المتفق عليها ليتلقى أوامر « نابليون » .

وفى أحد الأيام علمت الحيوانات بأن الخنازير أصبحت تنام على الأسرة بداخل حجرات القصر . . وهو أمر يخالف تمامًا الوصية رقم (٤) التى تقول : « يحظر على الحيوان أن ينام على سرير » . وبدأت الحيوانات فى التذمر، فأسرع « سكويلر » بشرح الأمر وتوضيح السبب فى نوم الخنازير على الأسرة فقال : إن الخنازير تبذل جهدًا فى إدارة المزرعة ومن حقها أن تنام على

أسرة تكون غير مفروشة بالملاءات . . واصطحب الحيوانات لقراءة الوصية رقم (٤) حيث وجدوها مكتوبة هكذا : « يحظر على الحيوان أن ينام على سرير له ملاءات » . . وأدرك بعض الحيوانات الأذكياء أن هاتين الكلمتين الأخيرتين قد أضيفتا عمدًا إلى نص الوصية .

وفى خلال شهر نوفمبر ، هبت رياح عنيفة جدًا فاهتزت مبانى المزرعة وطارت أسقفها . . وسقطت سارية العلم . . كما وقعت مصيبة كبرى . . فقد تحطمت مبانى الطاحونة عن آخرها ! !

عقد « نابليون » اجتماعًا فوريًا وألقى خطبة قال فيها : أيها الرفاق . . هل تعرفون من هو المسئول عن كل هذه المصائب ؟! . . انه عدونا اللدود «سنوبول» الذى حضر ليلاً وحطم الطاحونة . . وإنى على استعداد أيها الرفاق أن أمنح « وسام بطل الحيوانات من الدرجة الثانية » بالإضافة إلى مكيال من التفاح إلى أى حيوان يقبض على هذا العدو البغيض . . وإن أعلن لكم انى أصدرت حكم الاعدام على هذا العدو . . والآن لنهتف جميعًا : « تحيا مزرعة الحيوان » ! !

* * *

● بالرغم من برودة فصل الشتاء ، بذلت الحيوانات جهودًا مضنية لمحاولة إعادة بناء الطاحونة بشكل أفضل . . وكان « سكويلر » يلقى بين حين وآخر خطبًا ممتازة عن متعة الخدمة العامة وحب العمل . وفى خلال شهر يناير حدث نقص فى كميات الطعام التى كانت تقدم للحيوانات ،

وتم إنقاص حصص الذرة ، كما فسد محصول البطاطس فى المخازن بسبب البرد والجليد . . وبطبيعة الحال فقد كان لا بـد من إخفاء هذه الأخبار عن أصحاب المزارع المجـاورة لمزرعة الحيوان ، وقـد استغل « نابليون » المستر «ويمبر» فى ترويج أخبار زائفة عن عدم وجـود أية مشكلة غذائيـة فى مزرعـة الحيـوان .

ومع ذلك فقد كان لابد من تدبير الحبوب اللازمة لغذاء الحيوانات ، وقد قل ظهور « نابليون » خارج القصر . . وعندما ظهر أخيرًا ، كانت تحيط مجموعة الكلاب الشرسة التى تكشر عن أنيابها عند اقتراب أى حيوان . وفى أغلب الأحيان كان « سكويلر » يتولى إبلاغ جميع الحيوانات بالأوامر والقرارات التى يصدرها « نابليون » .

وفى صباح أحد أيام الأحد أعلن « سكويلر » أن « نابليون » قـرر توريد أربعمائة بيضة كل أسبوع لتباع فى الأسواق القريبة وتوجيـه ثمنها لشراء الحبوب . . وعنـدما سمعت الدجاجات هذا القرار أطلقت صرخات عالية مدويـة . . وتزعمت ثلاث دجاجات سوداء هذا الاحتجاج فأمر «نابليون» باعـدامهم فـورًا ، وتولت الكلاب هـذه المهمـة . . كما أمـر بتنفيـذ حكـم الإعـدام فى تسع دجاجات أخـرى . . أما البيض فقـد كان يسلم فى موعده كل أسبوع .

وفى خلال تلك الفترة ذاعت فى أرجاء المزرعة إشاعات تقول إن «سنوبول» يحضر إلى المزرعة كل ليلة تحت جنح الظلام ، ويقوم بسرقة

الذرة، ويسكب أوعيـة الحليب ، ويهشم البيض ، ويحطـم أشجار الفاكهة . . وأن أى خطـأ يحـدث فى المزرعـة ينسب فـورًا إلى « سنوبول » . وقـام «سكويلر» بإلقاء خطبـة بليغـة ذكر فيها أن « سنوبول » قد باع نفسه لأصحاب المزرعـة المجـاورة وتحالف معهم على إلحاق الأذى بالمزرعة وبكل ما فيها من حيوانات .

ولكن بعض الحيوانات بدأت تدافع عن « سنوبول » وشجاعته أثناء المعركة التى خاضوها ضد « جونس » ورجاله . . عندئذ أمر «نابليون» بعقد اجتماع فورى فى ساحة المزرعة . . وظهر وهو يتحلى بميدالية « بطل الحيوانات من الدرجة الأولى ». التى منحها لنفسه . . وميدالية « بطل الحيوانات من الدرجة الثانية » . وكانت معه كلابه التسعة وهى تزمجر وتنبح نباحًا عاليًا أوقع الرعب فى قلوب جميع الحيوانات . . وعلى الفور أصدر «نابليون» أمرِه باعدام جميع الحيوانات التى دافعت عن « سنوبول » أو قالت عنه كلمة طيبة .

وبعد انفضاض هذا الاجتماع الدموى ، بدأت الحيوانات فى الانصراف وهى تنشد « أغنيـة الثـورة » بطـريقة فاترة . . وهنا استوقفها « سكويلر » وأعلن أن « الرفيق نابليون » أصدر قرارًا بالغاء هذه الأغنية حيث لم يعد لها أى لـزوم . . وقـرر بدلاً منها أغنيـة جـديدة من تأليف الخنـزير الشاعر «مينيموس» تقول كلماتها :

مزرعة الحيوان . . مزرعة الحيوان . .

لن يصيبك أذى عن طريقى . . !

وتقرر انشاد هذه الأغنية الجديدة فى صباح كل يوم أحد بعد رفع العلم . . ولكن الحيوانات كانت تشعر بأن كلمات الأغنية أو لحنها ليسا فى مستوى أغنية الثورة .

* * *

وتناقشت الحيوانات فيما بينها حول نص الوصية السادسة التى تقول : «يحظر على الحيوان قتل أى حيوان آخر» وتساءلت كيف تم تنفيذ عمليات الاعدام والقتل بالرغم من نص هذه الوصية . وقام « سكويلر » على الفور بتوضيح هذا الأمر ، فاصطحب الحيوانات إلى المنصة الكبية التى كتبت عليها الوصايا السبع وقال لهم : يبدو انكم نسيتم نص هذه الوصية . . فهى تقول بوضوح : « يحظر على الحيوان قتل أى حيوان آخر دون سبب » . . وقد تم تنفيذ اعدام وقتل الحيوانات الخونة الذين تحالفوا مع «سنوبول» . . وهنا أيضًا أدرك بعض الحيوانات الأذكياء أن كلمتى « دون سبب » قد أضيفتا عمدًا إلى نص الوصية الأصلى .

وبمرور الوقت لم يعد « نابليون » يذكر باسم « الرفيق نابليون » فقط . . بل أصبح يذكر بطريقة رسمية مثل « قائدنا الرفيق نابليون » كما ابتدعت له ألقاب جديدة مثل « والد جميع الحيوانات » . . و « مرعب البشر » . . و«حامى قطيع الخراف» . . و « صديق البط » . . إلخ . .

وكان « سكويلر » فى خطبه يتحدث والدموع تتساقط على خديه . . عن

«حكمة نابليون . . وطيبة قلبه . . وحبه العميق لجميع الحيوانات» . وكثيرًا ما كانت تقول إحدى الدجاجات : تحت رعاية قائدنا الحبيب الرفيق نابليون وضعت خمس بيضات فى ستة أيام .

كما نظم الخنزير الشاعر « مينيموس » قصيدة رقيقة تحت عنوان «الرفيق نابليون» قال فيها :

« يا صديق اليتامى . . يا منعم القوت والغذاء . . كم تنبهر روحى حين أنظر إليك . . وأرى الوداعة فى عينيك . . أيها الرفيق نابليون . . أنت واهب كل ما تحبه كائناتك . . تهبها الطعام المشبع مرتين فى اليوم . . والقش النظيف الذى تنام عليه فى سلام . . بداخل حظائرها . . تنام فى سلام لأنك ترعاها . . أيها الرفيق نابليون . . إن كل خنزير يولد سيكون مخلصًا لك . . وسيهتف باسمك !! » .

وعندما ذاعت إشاعة جديدة بأن المزرعة ستتعرض للهجوم من جانب أصحاب المزارع المجاورة ، اتخذت تدابير وقائية لحماية « نابليون » . . حيث قامت أربعة كلاب بحراسة سريره عندما ينام . . كما تم تكليف خنزير صغير اسمه « بينكى » بتذوق طعامه قبل أن يتناوله ، خشية أن يكون الطعام مسمومًا !

وفى فصل الخريف ، وبعد مجهود شاق ، أكملت الحيوانات مبنى الطاحونة ، وبقى تركيب الآلات والماكينات . . وقام « نابليون » بتفويض مستر « ويمبر » فى أمر شرائها . . وحتى يمكن تدبير الثمن ، فقد أمر

«نابليون» ببيع كمية من الأخشاب كانت موجودة بالمزرعة إلى صاحب المزرعة المجاورة « مستر فريدريك » . . وكان صاحب مزرعة مجاورة أخرى اسمه «بلكينجتون» قد عرض شراء هذه الأخشاب مقابل ورقة تسمى شيك ، إلا أن « نابليون » رفض هذا العرض ، وباع الأخشاب لمستر « فريدريك » مقابل أوراق نقدية من فئة الخمسة جنيهات . . وكان المبلغ المدفوع كافيًا لشراء ماكينات الطاحونة .

ولكن بعد ثلاثة أيام تبين أن النقود التى دفعها « فريدريك » مزورة ولا تساوى شيئًا . . وعندئذ قام « نابليون » باستدعاء جميع الحيوانات فورًا ليخبرهم بهذا الخبر الفظيع ، وبأنه قد أصدر حكمًا باعدام هذا المجرم بإلقائه فى الماء المغلى حيًا بعد القبض عليه . . كما أخبر الحيوانات أيضًا بأن من المحتمل أن يقوم هذا المجرم المسمى «فريدريك» بالهجوم على مزرعة الحيوان فى أية لحظة . . ولذلك فقد أمر بتشديد الحراسة على جميع منافذ المزرعة ، واستنفار جميع الحيوانات للدفاع عن المزرعة عند الهجوم المتوقع عليها .

وفى صباح اليوم التالى وقع الهجوم المرتقب . . حيث جاء «فريدريك» ومعه خمسة عشر رجلاً يحملون ست بنادق ، أخذوا يطلقونها صوب الحيوانات فسقط بعضهم قتلى . . وسقط آخرون جرحى . . وفرت بقية الحيوانات مختبئة داخل حظائرها . وراحت ترقب ما سوف يقوم به المهاجمون بعد ذلك . . فرأوا بعض الرجال يحفرون ثقبًا فى جدار الطاحونة ووضعوا فيه المتفجرات . . وبفعل الانفجار الكبير طارت مبانى الطاحونة فى الهواء وأصبحت كأن لم تكن !

ويبدو أن نسف الطاحونة بهذا الشكل قد استفز الحيوانات فخرجوا جميعًا من مخابئهم وبدأوا هجومًا شرسًا ضد المهاجمين الرجال ، كما اندفعت الكلاب الشرسة نحو المهاجمين وأشبعتهم عضًا ورعبًا ، كما قامت الجياد برفس المهاجمين بكل قوة وعنف إلى أن لاذوا جميعًا بالفرار طلبًا للنجاة من هذا الهجوم المباغت الشرس ، وخرجوا من المزرعة مهزومين .

لقد انتصرت الحيوانات فى نهاية الأمر ، ولكنها كانت متعبة ومرهقة ومثخنة بالجراح . . وعندما شاهدت جثث قتلاها مسجاة فوق العشب ، سالت دموعها . . وأخيرًا ظهر « سكويلر » الذى كان مختبئًا طول الوقت وقال بابتهاج وهو يهز ذيله : « إن قائدنا الرفيق نابليون » أمر باطلاق سبع طلقات من البندقية احتفالاً بانتصارنا على الرجال المهاجمين . . كما أمر باعداد جنازة تليق بالحيوانات الذين قتلوا فى المعركة . . وتخصيص يومين حدادًا عليهم . . كما أمر بابتداع وسام جديد هو « وسام الراية الخضراء » وقد منحه لنفسه . . وأمر كذلك بتقديم تفاحة كهدية خاصة لكل حيوان ، مع منح أوقيتين من القمح لكل طائر ، وثلاثة قطع من البسكويت لكل كلب!

* * *

كان الحصان « بوكسر » قد أصيب بشق فى حافره أثناء دفاعه المجيد فى المعركة . . ولكنه كان يتناسى آلامه ولا يبوح بها لأحد سوى صديقته الفرسة «كلوفر» عندما كانا يستريحان من العمل أثناء المساء . وكانت « كلوفر »

تعالجه بكمادات من الأعشاب التى تعدها بعد مضغها . . وكانت تنصحه بألا يبذل كل جهده فى الأعمال الشاقة التى يقوم بها ، ولكنه كان يرفض تلك النصيحة ويقول دائماً إن أمله الوحيد أن يساهم بكل جهده فى إعادة بناء الطاحونة حتى يراها وهى تبدأ العمل قبل أن يبلغ سن التقاعد فى أواخر الصيف القادم .

وفى الحقيقة كان العمل أثناء فترة الشتاء شاقًا للغاية ، خصوصًا بعد أن تم تخفيض حصص الطعام بالنسبة لجميع الحيوانات باستثناء الحصص التى كانت تصرف للخنازير والكلاب . . وقد احتج بعض الحيوانات على هذا التمييز . ورفعوا شكواهم إلى « سكويلر » قائلين إن هناك وصية تقول : «جميع الحيوانات متساوية » . . فرد عليهم بكل بساطة قائلاً إن هذه الوصية قد عدلت وأصبح نصها : « جميع الحيوانات متساوية . . ولكن بعضها أكثر مساواة عن الآخرين » ! !

وكان « القائد الرفيق نابليون » قد أمر بإقامة مظاهرة لرفع الروح المعنوية للحيوانات تقام مرة كل أسبوع وذلك للاحتفال بتمجيد العمل والكفاح والانتصارات التى حققتها مزرعة الحيوان . . وفى هذه المظاهرة تجتمع الحيوانات فى تشكيل عسكرى فى مقدمته الخنازير ثم الجياد فالأبقار فالخراف وفى مؤخرته طوابير الدجاج . . وبطبيعة الحال فقد كان « القائد الرفيق نابليون » يسير على رأس هـذا التشكيل العسكرى ومن حـوله الكلاب التسعة . . أمـا الحصان « بوكسر » والفرسة « كلوفر » فكانا يحملان الراية

الخضراء التى تحمل شعار « الحافر والقرن » وشعارًا آخر كتب عليه « يحيا الرفيق نابليون » .. وبعد ذلك يستمع الحيوانات إلى قصائد المديح التى تلقى على شرف « نابليون » . . وإلى إحدى الخطب البليغة التى يلقيها «سكويلر» والتى يؤكد فيها دائمًا ان الانتاج الغذائى قد ارتفع بمعدل ٢٠٠٪ أو ٣٠٠٪ أو ٥٠٠٪ حسب الأحوال .

وفى شهر ابريل أعلن « نابليون » تحويل مزرعة الحيوان إلى جمهورية . . وأصبح من الضرورى انتخاب رئيس لهذه الجمهورية . . ولم يكن هناك سوى مرشح وحيد لشغل هذا المنصب وهو « نابليون » الذى تم انتخابه بالتزكية وباجماع تام .

وبعد شفاء حافر « بوكسر » عاود العمل الشاق بجهد أكبر . . ولكنه أصبح ضعيف الجسم مهدود القوى . . ومع ذلك فقد واصل العمل دون كلل إلى أن سقط على الأرض ولم يستطع النهوض . . وهرعت إليه جميع حيوانات المزرعة . . فوجدوه ممددًا لا يقوى على رفع رأسه ، وكانت عيناه تلمعان وجسمه يتصبب عرقًا ، ويسيل من فمه خيط رفيع من الدم . وانزعجت « كلوفر » وطلبت من أحد الحيوانات أن يسرع بإبلاغ «سكويلر» بما حدث .

وجاء « سكويلر » وتعاطف مع « بوكسر » وقال إن « الرفيق نابليون » قد علم ببالغ الأسف بما حدث لواحد من أخلص العاملين فى المزرعة . . وانه قام بترتيبات إرسال « بوكسر » للعلاج فى المستشفى البيطرى ببلدة

«ويلينجدون» . . وانزعجت الحيوانات عندما سمعت بأن « بوكسر » سيخرج من المزرعة . . وطلبوا من « سكويلر » أن علاجه بداخل المزرعة . . لكن « سكويلر » أقنع الحيوانات بقدرة الطبيب البيطرى فى المستشفى على علاج « بوكسر » وشفائه فى أقل وقت ممكن .

وعندما استعاد « بوكسر » بعض قوته قام متثاقلاً . . ونام على فراش مريح من القش أعدته « كلوفر » بداخل الحظيرة . . وظل راقدًا لمدة يومين . . وفى اليوم الثالث وصلت العربة التى ستأخذ «بوكسر» إلى «ويلينجدون» وتزاحمت الحيوانات حول العربة وهى تصيح : وداعًا يا بوكسر . . وداعًا .

ولكن أحد الحيوانات صاح فيهم قائلاً : أيها الأغبياء . . ألا ترون ما هو مكتوب على جوانب هذه العربة ؟! . .

وهنا قام أحد الحيوانات بقراءة الكتابة وقال بانزعاج : « ألفريد سيمونز . . ذابح جياد . . وصانع غراء . . وتاجر جلود الحيوانات !! » . . ثم صاح قائلاً : إنهم سيأخذون « بوكسر » إلى هذا التاجر الذى سيقوم بذبحه وتقديم لحمه طعامًا للقطط والكلاب . . وسيقوم ببيع جلده !

وعندئذ بدأت الحيوانات فى الصياح والصراخ وأخذت تنادى على «بوكسر» بعد أن قام سائق العربة بغلق الباب عليه : بوكسر . . بوكسر . . أخرج يا بوكسر ! اخرج بسرعة . . !!

ولكن العربة أسرعت بالسير . . بينما كان « بوكسر » يرفس جوانبها بكل

ما كان يستطيعه من قوة . . ولكن واأسفاه . . فقد خرجت العربة من المزرعة منطلقة بأقصى سرعة ، واندفعت مختفية على الطريق . . ولم يظهر «بوكسر» بعد ذلك أبدًا . . !

وبعد نحـو ثلاثة أيام ، أعلن « سكويلر » أن « بوكسر » قـد توفى فى المستشفى بالرغم من علاجه بأكبر قـدر من العناية والرعاية . . وذكـر أن «الرفيـق نابليون» لم يبخل بتكاليف العلاج بالأدوية الغالية ولا بأجر الطبيب البيطـرى .

ثم جاء « نابليون » بنفسه وألقى خطبة قصيرة قال فيه انه يشعر بالحزن والأسى لفراق « بوكسر » . . وقال انه لم يكن من الممكن إعادة جثمان «بوكسر» ليدفن فى المزرعة . . لذلك فقد أمر بارسال إكليل كبير من أجمل الزهور ليوضع على قبره . . وفى النهاية قام « نابليون » بتذكير الحيوانات بحكمة « بوكسر » التى كان يقول فيها « سأبذل كل جهدى فى العمل » . . والحكمة الأخرى التى كان يقول فيها « نابليون دائمًا على حق » . . وأوصى جميع الحيوانات بأن تعمل طبقًا لهاتين الحكمتين تمجيدًا لذكرى «بوكسر» .

❊ ❊ ❊

ومرت سنوات . . وازدادت أعداد الحيوانات فى المزرعة نتيجة للتوالد . . ومات العديد من الحيوانات التى كانت تعيش فى المزرعة منذ أيام « جونس » وأيام الثورة . . وأصبحت أفكار الثورة مجرد ذكريات تتحدث بها الحيوانات الجديدة . . وترهل جسم « نابليون » وأصبح سمينًا للغاية . . وتغيرت

أحوال كثيرة فى طريقة عمل الحيوانات فى المزرعة . خصوصًا بعد أن اكتمل بناء الطاحونة من جديد وتزويدها بالآلات والماكينات اللازمة .

ومن الغريب أن الخنازير تعلمت الوقوف والمشى على قدميها الخلفيتين تقليدًا لبنى البشر . . واستطاع « نابليون » أن يقيم علاقات ودية مع جميع أصحاب المزارع المجاورة . . بل وكان يدعوهم للحضور إلى المزرعة ليتفقدوا بأنفسهم أحوال العمل فى المزرعة واستقرار الأمن والنظام بين جميع الحيوانات التى تعيش تحت قيادته .

ومن الغريب أيضًا أنه سمح للخنازير وحدهم بتناول المشروبات الروحية بالرغم من الوصية التى تقول : « يحظر على الحيوانات شرب الخمر » . . وقد قام « سكويلر » بتبرير هذا الاستثناء بأن الخنازير يبذلون جهودًا كبيرة كل يوم فى أعمال غامضة تستعصى على أفهام بقية الحيوانات الأخرى . . مثل إعداد « الملفات » و « التقارير » و « محاضر الجلسات » وكتابة «المذكرات» . . ولذلك فمن حقهم أن يروحوا على أنفسهم بعد هذا العناء .

وفى فترة بعد الظهر فى أحد الأيام ، وصلت إلى المزرعة بعض العربات التى تحمل مجموعة من أصحاب المزارع المجاورة الذين تمت دعوتهم لزيارة المزرعة . . حيث قام هؤلاء المزارعون بالتجول فى أرجاء المزرعة . . وأبدوا إعجابهم بطريقة سير العمل . . كما أبدوا اعجابهم الشديد بالطاحونة وطريقة تشغيل آلاتها وماكيناتها . . وازداد إعجابهم أكثر وأكثر حين شاهدوا حيوانات المزرعة وهى تقوم بانشاء طاحونة ثانية .

وقرب المغرب دخل أصحاب المزارع إلى الصالة الكبرى بالقصر الملحق بالمزرعة حيث يعيش « نابليون » وجلسوا على مائدة كبيرة مع مجموعة الخنازير وعقدوا اجتماعًا برئاسة « نابليون » .. وسرعان ما تحول هذا الاجتماع إلى احتفال صاخب تبودلت فيه كؤوس الخمر بين الخنازير وبين المزارعين البشر ، كما تبودلت فيه أيضًا بعض الخطب الحماسية الى تعبر عن الصداقة والود الحميم بين هؤلاء البشر وهؤلاء الخنازير .

وبعد انتهاء الخطب ، بدأوا فى لعب « القمار » بأوراق « الكوتشينة » .. ولكن فى خلال فترة قصيرة حدثت ضجة كبيرة اشترك فيها الجميع بعد أن اكتشفت الخنازير أن البشر يغشون فى اللعب .. وازداد الصياح والصراخ وتحول اللعب إلى شجار يصعب التمييز فيه بين صياح هؤلاء البشر وصياح هؤلاء الخنازير .. !!

* * *

لأديب مصرى قديم مجهول

ســـنوحى

● **قبل قراءة القصة :**

من المؤكد أن هذه القصة كتبت فى أوائل عصر الأسرة الثانية عشرة وبداية عصـر الدولة الوسطى حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وهى مكتوبة بصيغة المتحـدث ، حيث يروى لنا بطلها « سنوحى » مـا مـر بحيـاته مـن أحـوال وأحداث منذ أن غادر مصر هاربًا إلى أن عاد إليها معززًا مكرمًا .

وقد ذاعت هذه القصة وانتشرت منذ كتابتها على مدى مئات السنين بعد أن أصبحت من المقـررات الدراسية فى المدارس المصـرية القديمة ، وبالتالى فقـد ظلت تنسخ وتقـرأ ـ كلها أو بعض فقـراتها الهامة ـ بواسطة تلاميذ المدارس وطلبـة العلم ، باعتبارها مثالاً راقيًا لأروع ما كتبـه الأدباء المصريون القـدمـاء .

وتتميز قصة سنوحى بأنها مزيج جيد من الخيال ووقائع وأحداث تاريخية حدثت بالفعل ، بالإضافة إلى أسلوبها الانشائى البليغ فى وصف الأحداث ووصف الشخصيات المصرية والأجنبية الذين ورد ذكرهم فيها .

وقد قام المؤرخ وعالم الآثار الشهير « جاردنر » بترجمة هذه القصة عن

نصها المكتوب باللغة المصرية القديمة إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩١٥ ، وقال عنها إنها تعد من روائع الأدب الكلاسيكى العالمى ، وتدل على مهارة الأديب المصرى القديم وقدرته الفائقة على الصياغة الأدبية بأسلوب يتميز برقة التعبير عن الأحاسيس الانسانية .

كذلك فقد قام المؤرخ وعالم الآثار الشهير « إرمان » بترجمتها إلى اللغة الألمانية ضمن كتابه الرائع عن « الأدب المصرى القديم » . . كما ترجمت إلى اللغة الفرنسية ، ثم قام بعض النقاد ومؤرخى الأدب بدراسة القصة وتقييمها فى ضوء مفاهيم النقد الأدبى الحديث .

وكما كانت قصة سنوحى محل اهتمام المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب . . فقد كانت أيضًا محل اهتمام المصريين القدماء باعتبارها من أحب القصص إلى قلوبهم وأذهانهم ، لما فيها من المغامرات التى قام بها أحد المصريين فى البلاد الأجنبية ، ولما تتضمنه من مثل عليا تحفز المصريين على حب وطنهم الغالى فى الأرض المصرية ، ولما تدعو إليه من تمجيد للمشاعر الوطنية والأخلاقية المصرية الصميمة .

ولهذه الأسباب فقد تفاوت تقييم هذه القصة عندما درسها نقاد ومؤرخو الأدب المحدثون . . فقد صنفها بعضهم ضمن « أدب الرحلات » . . وصنفها آخرون ضمن الأدب السياسى والقصص ذات الطابع الوطنى .

وهناك نصان عربيان لتلك القصة الرائعة . . النص الأول ترجمة قام بها المؤرخ وعالم الآثار الأستاذ الدكتور سليم حسن ، وردت فى الجزء الأول من

كتابه « الأدب المصرى القديم » . . والنص الثانى ترجمة قام بها المؤرخ وعالم الآثار الأستاذ الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف ، وردت فى كتابه « فى الأدب المصرى القديم » . وقد ورد فى هذا الكتاب الأخير تعليق على القصة كتبه المؤرخ وعالم الآثار الأستاذ الدكتور محمد أنور شكرى . . وقد اعتمدنا على هاتين الترجمتين فى تقديم هذا الموجز لقصة « سنوحى » .

* * *

أنا « سنوحى » الأمير الوراثى ، ومدير ضياع الملك فى البلاد الآسيوية ، والخادم المحبب لقلب الملك « أمنمحات الأول ، وخادم الأميرة صاحبة الثناء العظيم ، زوجة الأمير « سنوسرت » .

وفى السنة الثلاثين ، فى اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان صعدت روح الملك « أمنمحات الأول » إلى السماء . . فامتلأت القلوب حزنًا وأسى . . وأغلق باب القصر الملكى . . وجلس رجال القصر ورؤوسهم على ركبهم ، والناس من حولهم يبكون من شدة الحزن .

وكان جلالته قد أرسل جيشًا بقيادة ابنه البكر « سنوسرت » لتأديب الليبيين فى الصحراء الغربية الذين كانوا يهاجمون تخوم الدلتا لممارسة أعمال السلب والنهب . . وقد انتصر الجيش المصرى عليهم ، وتم أسر الكثيرين منهم ، والاستيلاء على أنواع من المواشى لا حصر لها .

أرسل القصر الملكى مندوبين ليخبروا الأمير « سنوسرت » بالحادث الذى وقع فى البلاط . فلم يتأخر الأمير لحظة ، وانطلق على الفور عائدًا إلى القصر

الملكى دون أن يخبر جيشه بشىء . . ثم جاء رسل آخرون ليخبروا أبناء الملك الآخرين المشتركين فى الجيش بالحادث الذى وقع لأبيهم . . وقد سمعت ما قاله هؤلاء الرسل للأمراء لأنى كنت قريبًا منهم . . وعندئذ انتابنى خوف شديد وكاد قلبى أن يحترق ، وارتخت ذراعاى وارتعدت جميع أعضاء جسمى . . وأخذت أبحث عن مكان أختبئ فيه (*) .

وكان أن وليت وجهى نحو الجنوب . . وقررت ألاّ أعود إلى القصر ، خوفًا من حدوث أية فتنة لا أضمن حياتى بعدها . . وعبرت مزارع الجميز، وقضيت النهار . . وعندما استأنفت الرحيل قابلنى رجل قام بتحيتى باحترام شديد ، ومع ذلك فقد خفت منه وواصلت السير . . وعبرت النهر فى زورق بلا مجاديف ولا شراع معتمدًا على ريح الغرب إلى أن وصلت إلى منطقة « الجبل الأحمر » . . ومن هناك واصلت السير نحو الشمال إلى أن ظهرت أمامى « قلعة الأمير » التى شيدناها لصد هجمات البدو القادمين من الشمال أو من الشرق . . وهناك اختبأت فى خميلة بين الشجيرات خوفًا من أن يرانى الحراس القائمين بالمراقبة ليل نهار .

وعندما حل ظلام الليل ، واصلت السير فى الصحراء حتى تباشير الفجر . . وعندئذ سقطت على الأرض من شدة الإعياء والتعب والعطش . . وضاق صدرى وصعب تنفسى والتهب حلقى . . فقلت لنفسى :

(*) ربما كان خوف « سنوحى » راجعًا إلى احتمال حدوث شجار بين الأمراء أو احتمال حدوث حرب أهلية ويزج باسمه فى ذلك الشجار أو فى تلك الحرب . . وهذا أمر لم يحدث فى الواقع . فقد تولى العرش «سنوسرت الأول » باعتباره الابن البكر للملك «امنمحات الأول» والوارث الشرعى لعرش البلاد بعد. وفاة أبيه .

«هذا هو طعم الموت» . ولكنى استجمعت قواى حين سمعت خوار بعض المواشى . . وشاهدت بعض البدو قادمين من بعيد . . وقد تعرف على شيخ هؤلاء البدو ، لأنه قد قام بزيارة لمصر منذ فترة . . فقدم إلى الماء ولبنًا ، وذهبت معه إلى قبيلته وهناك عاملونى بشفقة واحترام .

ثم واصلت السير أيامًا طويلة ، متنقلاً من بلد إلى بلد حتى وصلت إلى «جبيل» ومنها إلى « قدمى » وقضيت هناك نصف عام . . فقد استقبلنى «ننشى» أمير « رتنـو » [فلسطين] وقال لى ستكون مستريحًا وآمنًا معنا . . وهنا ستسمع لغة المصريين بلهجتهم المعروفة . . لقد كان هذا الأمير يعرف قدرى ومنزلتى فى مصر ، وسمع الكثير عن حكمتى . . وقد شهد له بذلك جماعة من المصريين كانوا عنده .

وسألنى الأمير : لماذا تركت مصر وجئت إلى هنا . . هل حدث شىء فى القصر الملكى دفعك إلى ذلك . . ؟!

فقلت له : أبدا . . ولكن عندما سمعت برحيل الملك « أمنمحات » وكنت فى حملة ضد الليبيين . . ارتعـدت فرائصى ودفعنى قلبى هائمًا فى الصحراء . . ومع ذلك فلم ينم على أحـد أو ذكرنى بسوء . . ولا قيلت فى حقى عبارة لـوم . . وأنا لست أدرى ماذا جاء بى إلى هنا . . ربما هو القضاء والقـدر . .

وقال الأمير : ولكن كيف تكون حال مصر بعد أن مات هذا الملك الجسور الذى كان مهابًا فى البلاد كلها . . ؟!

قلت على الفـور : إن ابنـه البكـر « سنوسرت » دخـل القصـر وتولى العـرش بعد أبيه . . وهو ملك منقطع النظير ولا يفوقه أحد . . وهو حازم فى كل أمر وصاحب إرادة قوية . . وهو الذى أخضع البلاد الأجنبية ويحرز النصـر بشجاعته وساعده القـوى ويفـر الأعـداء من أمـامه . . وهـو قـادر على تحطيم أى عـدو مهما كانت قـوته . . وهو يقبض على درعه ويدوس الأعـداء تحت أقـدامه . . وأهل مصـر يحبونه أكثر من أنفسهم . . والرجال والنساء يمـرون أمام قصـره فرحين بـه . . إنه منحـة من الله . . ومن المؤكد انه سيفتح البلاد الجنوبية . . ولكنه إلى الآن لم يلتفت إلى البلاد الشمالية . . وعليـك أن تكتب لـه حتى يعـرف اسمك . . فهـو يحب أن تكـون البلاد المجـاورة مسالمة لـه .

وهكذا عشت فى كنف الأمير الذى أكرم وفادتى ، وجعلنى على رأس أبنائه . . وزوّجنى كبرى بناته ، ومنحنى أرضًا واسعة ، وحقولاً شاسعة مزروعة بالتين والأعناب ، وشهدها غزير ، وزيتونها كثير ، والمراعى التى تمرح فيها الأغنام وكافة أنواع المواشى . . كما عيننى رئيسًا على أحسن قبيلة من قبائل بلاده ، وقائدًا لجيشه .

وقضيت سنوات طويلة متمتعًا بحب الناس . . وانجبت أولادًا كثيرين شبوا ونموا وأصبحوا رجالاً أشداء . . وكان الرسل الذين يرسلهم ملك مصر إلى بلاد الشمال ينزلون فى بيتى . . وأعطيت الماء لكل عطشان ، والطعام لكل جوعان ، وكنت استضيف كل من يمر ببابى . . وأرشد التائه أو الضال إلى الطريق الصحيح . . وأحمى أى انسان يتعرض للنهب أو الأذى .

وعندما بدأ البدو يخرجون عن طاعة الأمير ويقاومون رؤساء الصحارى كنت أقود الجيش لتأديبهم وكبح جماحهم .

وذات يوم جاء رجل قوى من فلسطين يريد أن يبارزنى . . وكان هذا الرجل بطلاً منقطع النظير وأخضع كل فلسطين تحت أمره وأقسم بآلهته على أن يحاربنى ويقضى على ليستولى على كل ممتلكاتى غنيمة له ولقبيلته .

وجاء الأمير ليشاورنى فى أمر هذا الرجل الذى يريد أن يتحدانى . . فقلت له أننى لا أعرف هذا الرجل ولا رأيته من قبل . . ولا كانت بينى وبينه أى صلة أو تعامل . . ولم اقتحم عليه داره . . ولكن يبدو أن الحقد والحسد قد أوغرا صدره وقلبه . . فإذا كان يريد أن يبارزنى فأنا على استعداد لتلك المبارزة وليفعل الله ما يريد .

وعندما أقبل الليل ، شددت قوسى وأعددت سهامى وشحذت خنجرى وصقلت أسلحتى . . وعندما لاح ضوء النهار أقبلت فلسطين كلها لترى نتيجة المبارزة . . وأقبل جميع أنصارى وقلوبهم تحترق من أجلى . . وكان الرجال والنساء يصيحون قائلين : « أما من رجل شجاع يساعدنى ويحارب معى ! » .

وأقبل على غريمى مستأسدًا . . وأنا منتصب القامة فى ثبات . . وبدأ غريمى فى تصويب السهام نحوى . . فتفاديتها ببراعة وطاشت سهامه كلها . . فرفع فأسه وتقدم نحوى يريد أن ينقض على ، ولكنى عاجلته بسهم اخترق عنقه ، فأطلق صرخة عالية ثم انكفأ على وجهه وسقط على الأرض

. . فأجهزت عليه بفأسه ، ووضعت قدمى فوق ظهره وصحت بصيحة النصر . . وإذا بجميع أنصاره يتأوهون ويبكون . . وحمدت إلهى الذى شد أزرى وساعدنى على تحقيق انتصارى .

وتقدم الأمير وأخذنى بين ذراعيه معلنًا فرحه . . وقال إن من حقى أن استولى على جميع ممتلكات عدوى ، فازدادت ثروتى بممتلكات لا تعد وأغنام لا تحصى . . وهكذا أصبحت غنيًا أملك العبيد وبيتًا فخمًا ومكانة رفيعة . . لقد فعل ربى ما فعل رحمة بها أضله الهوى ففر إلى بلد غريب .

واعتبرت يوم النصر علامة على رضوان الإله عنى . . لقد كنت بالأمس أهيم لاجئًا فى الفيافى ، وأصبحت اليوم أجد من ينتصر لى ويؤازرنى . . لقد كنت هاربًا أعانى من العطش والجوع والألم . . ولكنى الآن أطعم الجيران من زادى . . وكنت أهيم بعيدًا عن وطنى . . ولكنى اليوم أعيش فى دار أنيقة واسعة الرحاب جميلة الأثاث . . وقد ارتفع ذكرى وشاعت شهرتى حتى وصلت إلى القصر الملكى ببلادى الحبيبة .

يارب ! . . يا من قدرت على أن أفر هاربًا من بلدى . . كن رحيمًا بى وأعدنى إلى بلدى لكى يدفن جسدى فى الأرض التى ولدت فيها . . يارب هيئ لى رؤية بلدى الذى يحن إليه قلبى . . ارحمنى يارب !

هل لملك مصر أن يكون رحيمًا بى ويعفو عنى وأن أعيش فى ظل كرمه . . هل يأذن لى برعاية شئون الملكة التى تسكن فى قصره لأسمع أوامرها وأوامر بنيها . .

وعندما وصلت أخبارى وأحوالى إلى مسامع ملك مصر العظيم . . أرسل إلى جلالته هدايا من الفيض الملكى حتى ينشرح صدرى . . كما كتب إلى أولاد الملك بها ملأ قلبى بالفرح والسعادة .

وكان أسعد يوم فى حياتى كلها ، يوم أن وصلنى قرار الملك العظيم «سنوسرت الأول» بالعفو عنى والسماح لى بالعودة إلى مصر الحبيبة . . وقد قام الرسول الذى أوفده الملك بقراءة هذا القرار وكان نصه كما يلى : قرار ملكى إلى التابع « سنوحى » . . انظر . . إن قرار الملك هذا قد أرسل إليك ليعلمك بما هو آت : لقد اخترقت الأراضى الأجنبية ، وذهبت إلى فلسطين والأراضى السورية بمشورة قلبك . . فأنت لم تفعل شيئًا تستحق عليه اللوم . . ولم يكن فى قلبى شىء ضدك . . وكذلك الملكة فهى مازالت تذكرك هى وأولادها دون أى سوء . . وليتك تعيش طويلاً على الأشياء الطيبة التى سيمنحونها لك .

تعال ثانية إلى مصر لكى تنال نصيبك بين رجال القصر . . لقد ضيعت شبابك وأصبحت اليوم متقدمًا فى السن ، ففكر فى يوم رحيلك إلى الدار الآخرة وذهابك إلى النعيم . . فعندما تحل ساعتك سيحنط جسدك وتلف بالأكفان . . وسيكون غطاء مومیائك من الذهب واللازورد . . وسيوضع تابوتك فوق عربة تجرها الثيران ويمشى أمامك المغنون والنائحات . . وستقدم القرابين أمام قبرك الذى سيقام بجوار مقابر أبناء الملك ومقابر كبار رجال الدولة المشيدة بمقربة من هرم الملك . . وعلى ذلك فلن تموت فى خارج بلدك ، ولن يدفنك الآسيويون ، ولن تكفن بجلد غنم » .

كان هذا هو نص القرار الملكى الكريم . . وعندما انتهى الرسول من قراءته، انبطحت على بطنى ، وأهلت التراب على شعر رأسى ، ومشيت حول معسكرى وأخذت أصيح معلنًا فرحى وسعادتى . . وكتبت إلى جلالة الملك ردًا على قراره الكريم قلت فيه : « سلام عليك أيها الملك الطيب صاحب الجلالة . . وليقع كل ما تشرق عليه الشمس تحت سلطانك . . إن هروبى لم يكن أمرًا مدبرًا ، ولم يكن فى قلبى ولا فى ذهنى . . بل ولم أفهم ذلك الشىء الذى دفعنى إلى الفرار . . لقد كان ذلك مثل كابوس حدث فى أحلامى . . فلم يكن هناك أى شىء أخافه . . ولم يطاردنى أى إنسان . . ولم اسمع أى كلام معيب . . وكل ما حدث انى أحسست برعدة فى جسمى . . ولم تستطع قدماى أن تحملنى ثابتًا . .

وعندما وصلنى عفوك عنى . . أقمت الصلوات لكل آلهة مصر وإلاهاتها . . حمدًا وشكرًا لك ولهم . . واستأذنت من الرسول الذى حمل إلى قرار عفوك أن أبقى يومًا واحدًا لكى أوصى بأملاكى إلى أولادى . . وأقمت ابنى الأكبر شيخًا على قبيلتى . . ونقلت إليه ملكية كل أرضى وحقولى وبساتينى وعبيدى وكل أنواع المواشى التى كنت أملكها » .

وبعد ذلك توجهت نحو الجنوب قاصدًا بلدى . . فسلكت طريق «حورس» العظيم حتى وصلت إلى منطقة المستنقعات ، فأوفد قائدها رسولاً إلى القصر الملكى ليعلن وصولى . . وإذا بجلالة الملك يرسل سفينة محملة بالهدايا لكى أقدمها للبدو الذين رافقونى . . ثم استأنفت رحيلى حتى وصلت إلى العاصمة .

وفى الصباح الباكر جاء عشرة رجال ليصحبونى إلى القصر . وما أن وصلت إلى بابه حتى صافحت الأرض بجبهتى . . واستقبلنى أبناء الملك بابتهاج عند باب القصر . . وأرشدنى بعض رفاق الملك إلى القاعة الرئيسية بالقصر . . وهناك رأيت جلالته جالسًا على عرش من الذهب فانبطحت على بطنى . . وتزلزلت أعضاء جسمى ، ولم أشعر بها إذا كنت حيًا أو ميتًا .

ثم قال جلالته لأحد رجاله : دعه ينهض ليتحدث إلى .

وحدثنى جلالته بمنتهى اللطف قائلاً : ها أنت يا « سنوحى » قد عدت إلى وطنك بعد أن ذرعت البلاد الأجنبية أثناء فرارك . . وها أنت قد بلغت الشيخوخة وجئت لتعيش بقية أيامك فى وطنك . . ولكن لا تبق هكذا صامتًا . . هيا . . تكلم وحدثنى بما يطيب له قلبى وقلبك !

وكنت أخشى العقاب فقلت خائفًا : هأنذا بين يديك يا صاحب الجلالة . . وحياتى ملك لك ، ولتفعل بى ما تشاء !

وهنا أمر جلالته بدخول أولاده وزوجته الملكية وقال لها : انظرى . . ها هو ذا « سنوحى » وقد عاد أسيويًا وكأنه بدوى خالص . . فصاحت الملكة وصاح الأمراء : كأنه ليس « سنوحى » الذى نعرفه يا صاحب الجلالة . . دعنا نحتفل بعودة « سنوحى » إلى مصر بعد أن أصبح شيخًا . . لقد فر من بلده وهجر وطنه خوفًا منك بعد أن امتلأ قلبه رعبًا . . فقال جلالته : لا خوف عليه ولا هو يحزن . . ومن الآن سوف يكون سميرًا لى بين الأشراف ورجال الحاشية . . هيا اذهبوا به إلى قاعة الزينة لتكونوا فى خدمته . . وألبسوه ملابس مصرية فاخرة بدلاً من تلك الملابس البدوية التى يرتديها . .


قطب

وأسكنونى فى بيت مثل بيوت أبناء الملك . . وهو بيت مجهز بأثاث فخم وحمام أنيق ونظيف مزين بالزخارف الجميلة . . وألبسونى ملابس من الكتان المصرى الفاخر . . وزودونى بالبخور والعطور الثمينة التى تخص الملك والنبلاء . . وكان الخدم يقومون بأعمالهم فى صمت وكل عناية . . وأزيلت عن أعضائى آثار سنوات المنفى الكئيبة . . وأزالوا لحيتى فأشرق وجهى . . ومشطوا شعر رأسى ، ودلّكوا جسمى بأحسن أنواع الزيوت العطرية . . وأصبحت أنام على سرير مفروش بفراش ناعم . . وتركت الرمال لمن ينامون عليها فى البلاد الأجنبية .

ثم منحونى دارًا أخرى بين الحدائق . . وشيدوا لى مقبرة مبنية بالحجر الأبيض وسط مقابر أبناء الملك وكبار رجال الدولة القريبة من هرم الملك .

وهأنذا أحظى بما يناله رجال حاشية الملك من عطف واحترام . . وسأظل متمتعًا بهذا النعيم الدنيوى إلى أن تحين ساعة انتقالى إلى النعيم الخالد فى مدينة الموتى !



جـى دى مـوبـاسـان

قطعة من الحبل

GUY DE MAUBASSANT

كان اليوم هو يوم السوق فى قرية « جودرفيل » الصغيرة . وبطبيعة الحال فقد كانت كل الطرق المؤدية إلى تلك القرية مزدحمة بالفلاحين والفلاحات الراغبين فى شراء ما يحتاجونه أو بيع ما يريدون بيعه فى السوق . وكانوا جميعًا يسيرون فى خطى متثاقلة بسبب ما كانوا يعانونه من تعب وإرهاق نتيجة للأعمال الشاقة التى يقومون بها كل يوم .

وها هو أحد الفلاحين يجر بقرته بحبل طويل . . بينما تسير زوجته خلف البقرة وتحثها على السير بضربها ضربًا هينا بفرع شجرة رفيع مازال مكسوًا ببعض الأوراق الخضراء . . كما أن هناك فلاحات أخريات يحملن فوق رؤوسهن أقفاصًا مملوءة بالدجاج أو البط .

وفى سوق قرية جودرفيل مثل جميع الأسواق القروية الأخرى تختلط الحيوانات مع البشر ، وتنبعث فى الأنوف روائح البقر ، وتختلط أصوات الرجال والنساء مع أصوات الدواجن والحيوانات .

وها هو فلاح آخر اسمه « هوشكورن » جاء من بلدته القريبة وأخذ طريقه إلى السوق وهو يسير ببطء شديد نتيجة لما يعانيه من آلام الروماتيزم

. . وفى أثناء سيره ، شاهد على الأرض قطعة صغيرة من حبل قديم، ولأن الفلاح هوشكورن ـ مثل غيره من فلاحين كثيرين ـ يرى أن أى شىء يمكن أن يكون نافعًا فى وقت من الأوقات ، لذلك فقد انحنى بصعوبة والتقط قطعة الحبل الملقاة على الأرض ، وأخذ يلفها ووضعها فى جيبه .

وبينما كان يفعل ذلك شاهد السيد « مالاندين » ـ وهو صانع سروج للخيل والحمير ـ وكان واقفًا عند باب محله ، وشاهد هوشكورن وهو يضع لقيته فى جيبه . . وكان كل من هوشكورن ومالاندين قد اختلفا فى الماضى على شىء بسيط ، فأصبحا يتبادلان العداء دون أن يقوم أى منهما بالصفح عن الطرف الآخر .

واصل هوشكورن سيره المترنح بسبب آلام الروماتيزم فى ساقيه ، وهو يشعر بخجل شديد حين تأكد من أن عدوه اللدود قد شاهده وهو يلتقط قطعة الحبل التى كانت ملقاة على الأرض القذرة . . ووصل أخيرًا إلى ساحة السوق .

كانت الساحة حافلة بالفلاحين البائعين والمشترين الذين كانوا يساومون بعضهم بأصوات عالية . . وكان الفلاحون الراغبون فى شراء الأبقار يفحصون تلك الأبقار بدقة باحثين عما قد يكون بها من عيوب يحاول البائع إخفاءها . . ولذلك فقد كانوا يذهبون ، ثم يعودون بعد فترة قصيرة وهم مترددين وغير قادرين على اتخاذ القرار الحاسم بالشراء .

وكانت النساء القرويات جالسات على الأرض بعد أن أخرجن

الدجاجات من أقفاصها وربطن أرجلها حتى لا تهرب . . وكانت بائعات الدجاج تستمع إلى مساومات الراغبين فى الشراء ، ويرفضن فى البداية أى تخفيض فى الأسعار ، ثم يستسلمن فى نهاية الأمر ويوافقن على الثمن الذى يعرضه المشترون .

وبعد انتهاء صخب السوق واقتراب الليل ، كان بعض الفلاحين القادمين من بلاد قريبة يقررون المبيت فى الفندق الوحيد بقرية جودرفيل . . وهو فندق ومطعم يملكه رجل اسمه « جوردان » وهو تاجر خيل أيضًا ويعرف جيدًا كيف يصنع لنفسه كثيرًا من النقود .

وها هم الزبائن وقد جلسوا إلى مائدة العشاء ليتناولوا ما يقدم لهم من طعام، وكانوا يتحدثون بأصوات عالية عما اشتروه أو باعوه . . وفجأة سمعوا دقات طبلة يدق عليها أحد المنادين . . فسكت الجميع عن الكلام، وبدأوا ينصتون إلى ما سوف يقوله المنادى من أخبار .

وبعد أن انتهى المنادى من دقاته على الطبلة التى يحملها ، أمسك بورقة صغيرة وبدأ يقرأ ما فيها ، وقال المنادى بصوت مرتفع :

« إعلان لأهالى قرية جودرفيل وإلى كل الحاضرين . . فى هذا الصباح . . فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة . . فقدت محفظة من الجلد الأسود . . وبها خمسمائة فرنك وبعض الأوراق . . وعلى من يجدها أن يقوم بتسليمها إلى قاعة مجلس القرية . . وسوف يحصل على عشرين فرنكًا مكافأة له » .

وانصرف المنادى بعد أن انتهى من هذا الإعلان ، وأخذ يدق على الطبلة من جديد ليلفت أنظار وأسماع الآخرين .

وبدأ الرجال الذين انتهوا من تناول عشائهم يشربون فناجين القهوة وهم يتحدثون فى أمر تلك المحفظة . . هل يمكن أن تعود إلى صاحبها أم لا . . وفجأة جاء إلى الفندق جاويش من الشرطة ، وسأل الرجال المجتمعين :

ـ هل السيد هوشكورن موجود هنا ؟

فأجاب هوشكورن فورًا :

ـ نعم . . أنا موجود هنا .

فقال الجاويش :

ـ أرجو يا سيد هوشكورن أن تصحبنى إلى قاعة مجلس القرية . . فإن العمدة يريد أن يتحدث معك .

اندهش هوشكورن من هذا الأمر . . ومع ذلك فقد تحامل على نفسه وقام يجر رجليه المصابتين بالروماتيزم . . وذهب مع الجاويش . .

كان العمدة جالسًا على مقعد وثير ، وهو رجل يعتز بنفسه كثيرًا ، ويحب أن يحادث الناس بلغة فخمة . . وبدأ حديثه مع هوشكورن على النحو التالى :

ـ يا سيد هوشكورن . . لقد شوهدت فى هذا الصباح وأنت تلتقط المحفظة ذات الجلد الأسود التى فقدت من صاحبها السيد هولبريك . . فماذا تقول ؟

أصيب هوشكورن بالهلع وهو يستمع إلى هذا الاتهام الذى وجه إليه دون أى مبرر . . ولذلك فقد تلعثم وهو يقول :

ـ أنا ؟! . . أنا التقطت المحفظة . . أنا ؟!

ـ نعم . . أنت الذى التقطها !

ـ أقسم بشرفى . . اننى لا أعلم شيئًا عن موضوع تلك المحفظة .

ـ لا تقسم . . فهناك من شاهدك وأنت تلتقط المحفظة من الأرض!

ـ من هذا الذى شاهدنى واتهمنى بتلك التهمة الكاذبة ؟!

ـ لقد شاهدك السيد مالاندين صانع السروج حين كان واقفًا على باب محله .

عندئذ احمر وجه هوشكورن من شدة الغضب ، فقد أدرك أن عدوه اللدود هو الذى دبر له تلك التهمة . . فأخرج قطعة الحبل من جيبه وعرضها على العمدة وهو يصيح قائلاً :

ـ إذن فهو الذى رآنى وأنا التقط هذه القطعة من الحبل . . يا له من شيطان شرير !

هز العمدة رأسه معلنًا انه لم يصدق تلك الحكاية وقال :

ـ يا سيد هوشكورن . . لن تستطيع أن تخدعنى . . إن السيد مالاندين محل ثقة . . ولا يمكن أن يفرق بين قطعة الحبل والمحفظة .

قال هوشكورن وقد فقد أعصابه تمامًا :

- أقسم بالله . . اننى لم التقط سوى قطعة الحبل هذه . . هذه هى الحقيقة . . كل الحقيقة !

وواصل العمدة اتهامه قائلاً :

- بل لقد شاهدك السيد مالاندين وأنت تبحث فى الأرض عن بعض عملات قد تكون قد سقطت من تلك المحفظة .

وواصل الفلاح هوشكورن دفاعه عن نفسه قائلاً :

- يا سيدى . . لا بد انك تعلم أن هناك بعض الناس يتهمون الآخرين بأكاذيب هم منها أبرياء .

وحتى يحسم العمدة الأمر ، أمر باحضار السيد مالاندين ليواجه هوشكورن وجهًا لوجه . . فكرر مالاندين اتهامه الكاذب . . وتبادل مع هوشكورن كثيرًا من اللعنات والألفاظ الموجعة . وأخيرًا طلب هوشكورن من العمدة أن يفتشه حتى يتأكد من عدم وجود المحفظة . . وبالفعل فقد تم تفتيشه بدقة ، ولم يجدوا معه المحفظة محل التهمة .

وعندئذ اضطر العمدة إلى إطلاق سراح المتهم ، وقرر انه سيرفع الأمر إلى الجهات العليا لتحقق فى الموضوع وتقرر ما تراه .

وكانت أخبار تلك الواقعة قد انتشرت فى القرية بسرعة البرق . . وما أن خرج هوشكورن من قاعة مجلس القرية حتى التف حوله جماعة من الناس

يسألونه عن الحكاية وما تم فيها . . فأخذ يشرح لهم كل التفاصيل . . ولكن الناس لم يصدقوه ، وبدأوا يسخرون منه !

وبينما كان يسير متوجهًا إلى الفندق استوقفه آخرون يسألونه عن الحكاية . . بل وقام هو باستوقاف كل من يعرفهم ومن لا يعرفهم ليحكى لهم الحكاية من أولها إلى آخرها ليعلن براءته من تلك التهمة الكاذبة . . ولكن الجميع أصبحوا لا يصدقونه ويقولون فى وجهه :

ـ يبدو أنك تجيد تلفيق الحكايات . . يا لك من شيطان ماهر عجوز!

ومع ذلك فقد ظل الفلاح هوشكورن يحكى حكايته لكل من كان يصادفه فى الطريق ، ولكن أحدًا لم يعد يصدق أية كلمة مما يقول . . وعندما وصل إلى الفندق رقد فى فراشه ولكنه لم يستطع أن ينام لشدة ما كان يعانيه من قلق .

وفى اليوم التالى . . فى حوالى الساعة الواحدة ظهرًا . . قام فلاح اسمه ماريو بتسليم المحفظة سليمة إلى صاحبها السيد هولبريك . . وقال هذا الفلاح انه عثر على تلك المحفظة فى الطريق ، ولكنه لم يستطع أن يستدل على صاحبها لأنه لا يعرف القراءة . . ولذلك فقد عرض المحفظة على سيده فأخبره باسم صاحبها .

انتشر هذا الخبر الجديد بسرعة . . وعندما وصل الخبر إلى الفلاح هوشكورن امتلأ قلبه بالفرح نتيجة لهذه النهاية السعيدة التى تثبت براءته . . وأخذ يقول لكل من يقابله :


قطب

ـ لقد انكشفت الأكذوبة . . إن أفظع شىء يصيب الإنسان ، أن يتهمه أحد بتهمة كاذبة !

ومن شدة فرحه ، أخذ يحكى الحكاية لكل عابر فى الطريق . . ولكل من يخرج من الكنيسة . . ولكل من يدخل إلى الفندق ، بل وكان يستوقف الغرباء ويحكى لهم القصة بنهايتها السعيدة . . ولكنه بدأ يشعر بالقلق . . لأن الناس كانوا يستمعون إليه دون أن يبدو عليهم أنهم يصدقوا أقواله ، بل وكان يلاحظ أنهم يتهامسون فيما بينهم ببعض الكلمات بعد أن ينصرف .

وعندما مر أمام محل مالاندين صانع السروج ، لاحظ أن الرجل يضحك بشماتة .

وعندما استوقف أحد الفلاحين وبدأ يحكى له قصته . . قاطعه الفلاح قائلاً :

ـ لا تحدثنى عن أكاذيبك . . فأنا أعرفها . . أيها الشيطان الماكر العجوز .

وانصرف الفلاح وهو يضحك .

وعندما وصل إلى الفندق ، جلس إلى مائدة طعام الغداء . . وأخذ يحكى القصة بصوت مرتفع حتى تصل إلى أسماع الجالسين فى المطعم . . وصاح فيه صاحب الفندق قائلاً :

ـ اسكت أيها الشيطان الماكر . . أنا أعرف ألاعيبك الصغيرة . . وقصة قطعة الحبل التى تزعم أنك وجدتها .

فقال هوشكورن :

ـ ولكن يا سيدى . . ألم يجدوا المحفظة الضائعة . . وتم تسليمها إلى صاحبها ؟!

فقال صاحب الفندق :

ـ اغلق فمك ولا تحدثنا بتلك الخدعة . . إن الرجل الذى أعاد المحفظة إلى صاحبها ليس هو الذى وجدها !

وأخيرًا . . فهم الفلاح هوشكورن انه قام بتدبير حيلة بتحريض أحد أصدقائه على إعادة المحفظة إلى صاحبها بعد أن افتضح أمره . .

وفى نهاية الأمر عاد هوشكورن إلى منزله وهو يتمزق من شدة معاناته من الظلم الذى حاق به . . ومع ذلك فلم يتوقف عن ترديد حكايته بكل تفاصيلها ، بالرغم من أنه يدرك أن جميع من يستمعوا القصة لا يصدقونها . .

وأصابه إرهاق شديد . . حين أخذ بعض الناس يسألونه أن يحكى حكايته كنكتة يتسلون بها ويضحكون عليها . . وتدهورت صحته ، وتبلبل ذهنه . . وفى أواخر ديسمبر لزم الفراش مريضًا ويائسًا . .

وفى أوائل يناير مات . . وكانت آخر كلماته : قطعة صغيرة من الحبل . . كانت السبب فى كل ما حدث !

* * *

أنطــون تشيكوف

الحـــرباء(*)

(*) الحرباء [أو الحرباية باللهجة العامية] حيوان صغير يغير من لونه حتى يهرب من خطر دون أن يكتشف أمره .

كان الجاويش أشوميلوف يتفقد أحوال السوق وهو يرتدى عباءة جديدة ، ويحمل شيئًا تحت إبطه ، ويسير خلفه جندى شرطى أحمر الشعر ويحمل بعض الفواكه التى أمر الجاويش بمصادرتها .

كان السوق هادئًا ويكاد أن يكون خاليًا من الناس ، بينما كانت أبواب ونوافذ الدكاكين مفتوحة فى انتظار الزبائن .

وعلى حين فجأة ، سمع الجاويش صوت رجل يصيح : « إمسكوه . . إمسكوه . . لقد عضنى هذا الكلب اللعين . . هل أصبح مسموحًا الآن للكلاب أن تعض الناس . . إمسكوه ! » .

واختلط صياح الرجل بنباح كلب يجرى بثلاثة أرجل فقط إذ كانت رجله الرابعة مفقودة . . وكان الرجل الذى يطارد الكلب يجرى بأقصى سرعة وهو يرتدى قميصًا أبيض . واستطاع الرجل فى نهاية الأمر أن يرتمى على الأرض بعد أن أمسك برجل الكلب الخلفية . . وبالتالى فقد ارتفع صياح الرجل ونباح الكلب فى آن واحد . . وسرعان ما تجمع حول هذا المنظر جمع غفير من الناس ، وكأن الأرض قد انشقت وأخرجتهم !

اتجه الجاويش أشوميلوف إلى هذا الجمع الصاخب من الناس ليرى ما فى الأمر . . وتعرف على الفور على الرجل الذى يرتدى القميص الأبيض والذى ظل ممسكًا بالرجل الخلفية للكلب . . فهو الصائغ خريوكين . . أما الكلب فقد ظل قابعًا على الأرض مادًا قدميه الأماميتين وهو يرتعش لشدة ما يعانيه من الخوف والذعر .

وكان خريوكين يرفع يده اليمنى ليرى الناس أن أحد أصابعه يقطر دمًا . . فسأله الجاويش أشوميلوف : لماذا كنت تصيح . . وماذا حدث لإصبعك ؟ .

قال خريوكين :

- يا سيدى . . لقد كنت أسير فى حالى . . كنت ذاهبًا لكى أجمع بعض الحطب لصاحب المحل الذى أعمل فيه . . وفجأة ، انقض على هذا الكلب المتوحش اللعين عضنى فى إصبعى . . وأنت تعلم يا سيدى أنى أعمل بأصابعى . . ولدى الكثير من الأعمال لكى أقوم بها . . ولكنى لن استطيع أن أعمل ربما لمدة أسبوع أو أكثر . . فكيف يكون ذلك . . وأنا أعرف يا سيدى انه ليس هناك قانون ينص على عقوبة الحيوانات . . ولكن إذا سمحنا للكلاب أن تعض الناس فى الطرقات فإن هذا العالم سيصبح غير جدير أن يعيش فيه الإنسان .

ظهرت معالم الجدية على ملامح الجاويش أشوميلوف فقال مصدقًا على كلام خريوكين :


قطب

ـ هذا صحيح . . والآن أريد أن أعرف من هو صاحب هذا الكلب . . أنا لن أتسامح فى هذا الأمر الخطير . . سوف أعلم الناس ألا يتركوا كلابهم مطلقى السراح لكى يعضوا السائرين فى الطرقات . . لا بد أن أعاقب صاحب هذا الكلب . . حتى يعلم من أنا !

والتفت الجاويش إلى الشرطى الذى كان يصاحبه وقال :

ـ الآن يا إيلدرين . . عليك أن تعرف من هو صاحب هذا الكلب اللعين . . وعليك أن تكتب محضرًا بهذا الحادث . . لا بد من إعدام هذا الكلب المسعور . .

والتفت الجاويش إلى الجمهور المتجمع حوله وسألهم :

ـ هل يعرف أحدكم من هو صاحب هذا الكلب؟

فقال أحد الأشخاص :

ـ يبدو أنه كلب الجنرال إيجالوف!

فقال الجاويش على الفور :

ـ آه . . الجنرال إيجالوف . . هاه . . إيلدرين . . هيا وساعدنى فى خلع عباءتى ، فالجو أصبح حارًا . . ويبدو أن السماء ستمطر بعد قليل .

ثم التفت إلى الصائغ خريوكين صاحب الإصبع المجروح وقال :

ـ أريد أن أفهم كيف استطاع هذا الكلب أن يعض إصبعك كما تقول . . انه كلب صغير وانت رجل كبير . . فكيف يصل إلى يدك ويعض

إصبعك . . لابد انك جرحت نفسك بمسمار . . وتدعى أن الكلب عضك لكى تحصل على بعض المال من صاحبه . . أنا أعرفكم جيدًا أيها الأوغاد !

وقال أحد الأشخاص :

- ربما يكون هذا الشخص المصاب قد وضع سيجارة مشتعلة فى وجه الكلب . . فقام الكلب بعضه !

وهنا قال جندى الشرطة التابع لأشوميلوف :

- اعتقد أن هذا الكلب ليس مملوكًا للجنرال إيجالوف . . فكلاب الجنرال من نوع مختلف !

فقال الجاويش :

- هل أنت واثق مما تقول ؟

أجاب الشرطى :

- نعم يا سيدى . .

عندئذ قال الجاويش موجهًا كلامه لخريوكين :

- أنا أيضًا كنت أعتقد أن هذا الكلب غير مملوك للجنرال . . فكلاب الجنرال غالية الثمن . . ولا أدرى كيف يحتفظ بعض الناس بمثل هذا الكلب الحقير . . إن مثل هذا الكلب لو ظهر فى مدينة بطرسبرج أو فى مدينة موسكو فسوف يطلقون عليه النار فورًا . . خريوكين . . أنا أعلم أن

هذا الكلب الذى عض إصبعك قد سبب لك ألمًا . . ولذلك فسوف ألقن أصحابه درسًا لن ينسوه !

ولكن الشرطى إلدرين عاد بعد لحظة وقال :

ـ من المحتمل أن يكون هذا الكلب من كلاب الجنرال الذى يمتلك كلابًا كثيرة . . لقد شاهدت منذ أيام كلباً يشبهه فى فناء بيت الجنرال .

وهنا ارتفع صوت من بين الجمهور وقال :

ـ فعلاً . . انه كلب الجنرال !

فقال الجاويش أشوميلوف بحزم :

ـ يا إيلدرين . . ساعدنى على ارتداء العباءة ، فالجو أصبح باردًا . . وخذ هذا الكلب معك واذهب إلى بيت الجنرال . . وقل لهم إنك وجدته تائهًا فى الشارع . . وأنك أحضرته لهم لكى يحافظوا عليه حتى لا يضيع فى الشوارع مرة أخرى . . وحتى لا يقوم أى شخص أحمق بإطفاء سيجارته فى أنفه .

والتفت الجاويش إلى خريوكين قائلاً :

ـ وأنت أيها الأحمق الغبى . . اخفض يدك ولا تستعرض إصبعك الجريح على هذا النحو كى تستعطف الناس . . إنها غلطتك وعليك أن تتحمل نتائجها !

وفجأة ارتفع صوت من بين الجمهور قائلاً :

ـ ها هو بروخور الذى يعمل طاهيًا لدى الجنرال . . فلنسأله .

وسأله الجاويش :

ـ بروخور . . تقدم قليلاً . . وانظر جيداً إلى هذا الكلب . . وقل لنا هل هو من كلاب الجنرال إيجالوف .

فقال الطاهى بعد أن شاهد الكلب :

ـ لا . . إن الجنرال لا يمتلك كلابًا من هذا النوع !

عندئذ قال الجاويش :

ـ لقد انتهى الأمر الآن . . فهو كلب ضال . . ويجب أن يعدم فورًا رميًا بالرصاص!

ولكن طاهى الجنرال أكمل كلامه قائلاً :

ـ نعم أنه ليس من كلاب الجنرال . . ولكنه مملوك لشقيق الجنرال الذى وصل لبيت الجنرال منذ فترة . .

وهنا رسم الجاويش أشوميلوف ابتسامة عريضة ملأت وجهه وقال للطاهى :

ـ هل وصل فلاديمير إيفانوفيتش شقيق الجنرال . . ؟ لم أكن أعلم بوصوله . . هل وصل لزيارة شقيقه؟

قال الطاهى :

ـ نعم يا سيدى . . لقد جاء لزيارة شقيقه !

فقال الجاويش :

ـ حسنًا . . فهذا الكلب مملوك لشقيق الجنرال كما تقول . . أنا سعيد بمعرفة ذلك . . هيا . . خذ الكلب معك . . فهو كلب صغير ولطيف . . ربما يصيبه الضرر عندما عض إصبع هذا الرجل !

وهكذا أخذ الطاهى الكلب . . وبدأ الناس يضحكون على خريوكين . . والتفت إليه الجاويش مهددًا إياه قائلاً :

ـ سوف تقع تحت يدى يومًا ما . . وسوف ترى ما سوف أفعله معك!

وتدثر الجاويش بعباءته مرة أخرى . . ومضى فى طريقه ليراقب ما يحدث فى السوق !!

* * *

وليم شيكسبير

حكاية شتاء

WILIAM SHAKESPEARE

حكاية شتاء

شخصيات الرواية

- ليونتيس : ملك سيسلى .
- هرميون : زوجة ليونتيس ، ملكة سيسلى
- ماميليوس : إبنهما أمير سيسلى الصغير
- بردیتا : إبنتهما
- كاميللو : لوردات فى البلاط الملكى
- انتيجونس : بمملكة سيسلى
- كليومنس :
- ديون :
- بوليكسنس : ملك بوهيميا ، وصديق ليونتيس
- فلوريزل : أمير ، ابن الملك بوليكسنس
- راعى عجوز : الأب المفترض لبرديتا
- بولينا : زوجة اللورد أنتيجونس
- إميليا : وصيفة للملكة هرميون

كانت السعادة ترفرف على القصر الملكى الذى يعيش فيه كل من الملك ليونتيس وزوجته الجميلة الطيبة الملكة هرميون . . وكم كان الملك ليونتيس يود أن تتعرف زوجته على صديق عمره الملك بوليكسنس، ملك بوهيميا .

كان الملكان ليونتيس وبوليكسنس قد تربيا معًا منذ الصغر، وبعد وفاة أبويهما، ورث كل منهما عرش أبيه . . فأصبح ليونتيس ملكاً على سيسلى، وأصبح بوليكسنس ملكًا على بوهيميا، وانقطعت بينهما سبل اللقاء، بالرغم من انهما كانا يتبادلان الرسائل والهدايا منذ عدة سنوات .

وبعد مرور كل هذه السنوات قام الملك بوليكسنس بتلبية دعوة صديقه الملك ليونتيس لزيارته فى سيسلى . وطلب ليونتيس من زوجته الملكة هرميون أن تبدى اهتمامًا ورعاية خاصة بالضيف العزيز، رفيق صباه وشبابه، الملك بوليكسنس .

وما أن تم اللقاء بين هذين الصديقين العزيزين ، حتى بدأ حديث الذكريات السعيدة فى سالف الأيام حين كانا طفلين صغيرين يلعبان معًا ، ويذكران دروسهما معًا . وكانت أحاديث تلك الذكريات تسعد الملكة هرميون، وتسبب لها كثيرًا من البهجة .

وبعد فترة ، بدأ الملك بوليكسنس يعـد نفسه للرحيل عائدًا إلى بوهيميا . . فطلب منه صديقه الملك ليونتيس أن يبقى معه لعدة أيام أخرى ، إلا أن بوليكسنس اعتذر بضرورة الرحيل لكى يرعى شئون مملكته . . فطلب ليونتيس من زوجته هرميون أن تطلب من صديقه أن يمد زيارته لعدة أيام أخرى . . وبالفعل فقد استطاعت هرميون بكلماتها الرقيقة أن تقنع بوليكسنس بالبقاء لفترة أخرى .

وبالرغم من ثقة الملك ليونتيس فى شرف زوجته وشرف صديقه ، إلا أنه شعر بغيرة شديدة ، وأصبح يشك فى كل تصرف تقوم به هرميون تجاه صديقه بوليكسنس . . وقد حوله هذا الشك إلى مخلوق شرير ، فدبر خطة للانتقام من كل من زوجته البريئة وصديقه البرئ .

استدعى الملك اللورد كاميللو ـ وهو أحد اللوردات المقربين إليه ـ وأخبره بما يشعر به من شكوك نحو كل من زوجته وصديقه ، وطلب من اللورد أن يقوم بدس السم فى الطعام الذى يقدم للملك بوليكسنس .

ولكن اللورد كاميللو كان رجلاً شريفًا طيبًا . . فقام بتحرى الأمر إلى أن تأكد تمامًا من أن شكوك الملك غير صحيحة على الإطلاق . . وبدلاً من أن يقوم بدس السم لبوليكسنس ، ذهب إليه وأخبره بما يدبره له الملك ليونتيس ، واتفق معه على الهرب سوياً من سيسلى .

وهكذا تم انقاذ الملك بوليكسنس بمساعدة اللورد كاميللو ونجح الاثنان معًا فى الوصول سالمين إلى مملكة بوهيميا ، وعاش كاميللو فى البلاط الملكى باعتباره أقرب صديق إلى قلب الملك .

ازدادت غيرة ليونتيس شراسة وضراوة بعد أن علم بنجاح بوليكسنس فى الهروب . . فاندفع متعجلاً إلى غرفة الملكة هرميون، فوجدها جالسة مع طفلها الصغير الأمير ماميليوس . . فأبعد الطفل عنها ، وقام بارسال الملكة إلى السجن ! .

كان ماميليوس فى ذلك الوقت طفلاً صغيرًا، ومع ذلك فقد أدرك أن أباه قد عامل أمه بقسوة شديدة ، وأنه لن يستطيع أن يراها مرة ثانية وأصبح محرومًا من حبها ورعايتها له ، فأصيب بحزن شديد، جعله يفقد رغبته فى الطعام وقدرته على النوم، حتى أصبح الجميع يعتقدون أن الطفل الصغير سيموت لا محالة .

كان ليونتيس قد اختار كلا من اللورد كليومنس واللورد ديون ـ وهما من رجال بلاطه الملكى ـ لكى يذهبا إلى مدينة دلفى ليسألا الكاهن الأكبر بمعبد أبوللو لكى يتنبأ بها إذا كانت الملكة هرميون مخلصة أم خائنة . . وأن يعودا إليه بتلك النبوءة .

ولأن الملكة هرميون كانت حاملاً عندما أرسلها زوجها إلى السجن ، فقد جاءها المخاض بعد فترة قصيرة ، ووضعت طفلة ، فازدادت أحزان الملكة لشعورها بأن هذه الطفلة المسكينة ستصبح سجينة مثلها دون أن ترتكب ذنبًا .

وكانت للملكة صديقة وفية مخلصة اسمها بولينا ـ وهى زوجة اللورد أنتيجوس ـ وعندما علمت هذه الصديقة بأن الملكة قد وضعت طفلة ،

ذهبت إلى السجن ، ولكنها لم تستطع رؤية الملكة ، فقابلت الوصيفة إميليا التى تقوم بخدمة الملكة فى سجنها ، وطلبت منها أن تخبر الملكة بأن صديقتها الوفية بولينا تطلب منها أن تعطيها ابنتها الوليدة لكى تذهب بها إلى أبيها الملك ليونتيس لكى يرق قلبه ويعطف على الطفلة ويعفو عن أمها .

ووافقت الملكة على أن تعطى ابنتها إلى صديقتها الحميمة بولينا لكى تقوم بهذه المهمة النبيلة .

وبالفعل . . قامت هذه المرأة الشجاعة باقتحام مجلس الملك، ووضعت طفلته الرضيعة البريئة عند أقدامه . . وألقت كلمة صادقة دفاعًا عن الملكة البريئة . . الأمر الذى أدى إلى غضب الملك ، فطلب من زوجها اللورد أنتيجونس أن يأخذ زوجته بعيدًا عن المجلس .

وعندما انصرفت بولينا تركت الطفلة الرضيعة عند أقدام أبيها الملك اعتقادًا منها أن قلبه سيرق عندما ينظر إلى تلك البنت البريئة .

ولكن قلب الملك قد ازداد تحجرًا وقسوة . . فطلب من اللورد أنتيجونس أن يأخذ هذه الطفلة ، ويبحر بها على ظهر سفينة ، ويلقيها على أى شاطىء مهجور!

وباصرار شديد أمر الملك بتقديم الملكة السجينة إلى محاكمة علنية أمام كل لوردات البلاط الملكى . . وعندما انعقدت تلك المحكمة ، وقفت الملكة السجينة ذليلة وهى تحاول أن تجد الفرصة لاثبات براءتها .

وفى أثناء تلك المحاكمة دخل اللورد كليومنس واللورد ديون ليقدما للملك ليونتيس رد الكاهن الأكبر بمعبد أبوللو . فطلب الملك تلاوة هذا الرد بصوت مرتفع . وكان الرد يتضمن الكلمات التالية :

« الملكة هرميون بريئة . . والملك بوليكسنس برئ ولا لوم عليه . . واللورد كاميللو خادم أمين . . والملك ليونتيس غيور وقاسى القلب . . وسيعيش بدون وريث لعرشه إلى أن يعثر على الشيء الذى ضاع منه» !

وبالرغم من وضوح تلك الكلمات ، إلا أن الملك لم يصدقها . . وقال إنها كلمات كاذبة دبرها أصدقاء الملكة . . وطلب من اللوردات أن يستمروا فى إجراءات المحاكمة .

وفجأة ، دخل رجل وأخبر الملك بأن ابنه الأمير ماميليوس عندما سمع بأن أمه الملكة هرميون سيحكم عليها بالموت بناء على طلب الملك ، فقد انتابته صدمة مروعة من شدة ما يعانيه من حزن . . وسقط ميتًا !

وعندما سمعت الملكة السجينة هذا الخبر المؤلم ، سقطت هى الأخرى مغشيًا عليها . . كما أن الملك ليونتيس شعر بقدر كبير من الحزن والتعاسة ، وبدأ يشعر بالعطف على زوجته هرميون . . لذلك فقد طلب من صديقتها لولينا أن تأخذها وتساعدها على استعادة صحتها حتى تتجاوز آثار تلك المحنة التى مرت بها . .

ولكن بعد فترة قصيرة عادت بولينا وأخبرت الملك بأن الملكة هرميون قد ماتت !

عندئذ شعر الملك بمـزيد مـن الحـزن والأسى . . وأدرك أن معـاملته القاسية للملكة كانت السبب المباشر لموتها ولموت ابنه الأمير ماميليوس . . وبدأ يشعر أيضًا بأن الملكة كانت بريئة، كما أدرك أن كلمات الكاهن الأكبر بمعبد أبوللو كانت صادقة . . وأنه أصبح بلا وريث للعرش إلا إذا عثر عن الشئ الضائع . . وأدرك أن هذا الشئ الضائع هو ابنته الطفلة البريئة التى ولدتها الملكة قبل موتها .

وهكذا عاد الملك ليونتيس إلى رشده . . ولكنه عاش لعدة سنوات وقلبه يكاد أن يتمزق نتيجة لما يشعر به من حزن عميق وأسى لا يطاق!

* * *

كانت السفينة التى تحمل اللورد أنتيجوس والأميرة الطفلة المسكينة قد تعرضت إلى عاصفة بحرية عاتية دفعتها إلى شاطئ مهجور بمملكة بوهيميا التى يحكمها الملك الطيب بوليكسنس . . وعلى أرض هذا الشاطئ قام اللورد أنتيجونس بترك الطفلة المسكينة لقدرها . . وبينما كان عائدًا إلى السفينة خرج دب مفترس من الغابة القريبة وهجم عليه وافترسه .

وكانت الملكة هرميون قد ألبست طفلتها الرضيعة ملابس فاخرة وزينتها ببعض الحلى والجواهر حتى تبدو فى أحلى صورة أمام أبيها الملك ليونتيس . . وقبل أن يتركها اللورد انتيجونس فى هذا المكان الموحش المهجور، قام بتثبيت ورقة على ملابسها كتب عليها اسم برديتا [أى الطفلة الضائعة] وأشار أيضًا إلى أن هذه الطفلة من أصل نبيل ولكنها سيئة الحظ .

وكان أحد رعاة الأغنام يمر بالقرب من هذا المكان المهجور فعثر على الطفلة المسكينة التى تلبس ملابس فاخرة وتتزين بالجواهر . . فحملها إلى زوجته الطيبة التى قامت برعايتها بكل حنان . . ولأن هذا الراعى كان رجلاً فقيرًا ، فقد قام ببيع بعض الجواهر التى كانت تتحلى بها برديتا واشترى بثمنها مجموعة كبيرة من الأغنام، واضطر إلى أن يهجر المنطقة التى كان يعيش فيها، ليعيش فى منطقة أخرى حتى لا يعرف أحد كيف حصل على هذه الثروة. . وقام الراعى الطيب وزوجته الطيبة بالاشراف على تربية هذه الطفلة على أساس أنها ابنتهما الوحيدة . . وهكذا نشأت الطفلة وهى تعتقد انها ابنة الراعى وزوجته .

ومرت سنوات عديدة ، وأصبحت برديتا فتاة رائعة الجمال . . وبالرغم من انها لم تتلق تعليما إلا أنها كانت تبدو نبيلة المظهر ونبيلة السلوك كما لو كانت قد تربت فى قصر ملكى .

كان للملك بوليكسنس ابن واحد بلغ مرحلة الشباب اسمه الأمير فلوريزل، وهو وريثه الوحيد للجلوس على عرش بوهيميا .

وفى أحد الأيام ، كان هذا الأمير يقوم بالصيد فى مكان قريب من بيت الراعى، وهناك شاهد تلك الفتاة الجميلة برديتا، فوقع فى غرامها من أول نظرة ، منبهرًا بجمالها ومظهرها النبيل . . ومنذ ذلك اليوم أخذ الأمير يتردد على بيت الراعى كل يوم متخفياً فى ملابس عادية ومنتحلاً اسم دوريسلس .

وشعر الملك بوليكسنس بقلق شديد لخروج ابنه من القصر للذهاب إلى

مكان مجهول . . لذلك فقد طلب من أحد رجاله أن يراقب الأمير ليعرف سر هذا الخروج اليومى المتكرر. . وعاد الرجل إلى الملك ليخبره بأن الأمير واقع فى غرام مع ابنة أحد الرعاة. . فاندهش الملك لدى سماعه ذلك الخبر، وقام باستدعاء صديقه كاميللو ليصحبه فى زيارة لبيت الراعى ومشاهدة تلك الفتاة التى وقع الأمير فى حبها .

وتنكر كل من الملك واللورد كاميللو فى ملابس عادية ، وغير كل منهما هيأته حتى لا يتعرف عليهما أحد وأخذا طريقهما إلى بيت الراعى. . ولأن الوقت كان عيدًا شعبيًا ، فقد كان هناك احتفال كبير بهذا العيد، وكانت هناك موائد حافلة بالطعام والشراب. . كما كان هناك فتيان وفتيات كثيرون يمرحون ويرقصون جوار البيت .

أما فلوريزل وبرديتا فقد كانا يجلسان فى هدوء فى ركن قريب ، ويستمتعان بحديث متبادل بينهما . . واقترب الملك من مكانهما حتى يتمكن من الاستماع إلى ما يدور بينهما من حديث. . وقد اندهش الملك عندما سمع الكلمات الرقيقة والأسلوب الراقى الجميل الذى تتحدث به هذه الفتاة الجميلة . . فقال لصديقه كاميللو : بالرغم من أنها من أصل متواضع إلا أنها رقيقة جدًا وتبدو كما لو كانت من طبقة النبلاء. . ولا يليق بها أن تعيش فى مثل هذا المكان .

واتجه الملك المتخفى إلى الراعى العجوز وسأله قائلاً : أيها الرجل الطيب . . من هو ذلك الشاب الجالس مع ابنتك؟!

فقال الراعى : هو شاب طيب . . اسمه دوريسلس . . وهو يحب ابنتى . . وابنتى تحبه . . ولو تقدم للزواج منها فسوف يفوز بثروة كبيرة من المجوهرات التى حفظتها لها لكى أقدمها فى يوم زفافها إلى من تحب .

وتقدم الملك إلى المكان الذى يجلس فيه ابنه مع برديتا . . وسأله قائلاً : أيها الشاب . . إننا فى العيد نقدم الهدايا لأحبابنا . . فما هى الهدية التى قدمتها لفتاتك فى يوم العيد؟

أجاب فلوريزل وهو لا يعلم أنه يخاطب أباه : إن هديتها محفوظة داخل قلبى . .

وطلب فلوريزل من هذا الرجل الغريب أن يكون شاهدًا على وعده بالزواج من حبيبته برديتا . . وعندئذ قام الملك المتنكر بالكشف عن شخصيته الحقيقية ، وأبدى غضبه الشديد وهو يؤنب ابنه على إقدامه على الزواج من ابنة راعى أغنام . . وهو أمر لا يليق إطلاقاً لأمير سيصبح ملكًا على بوهيميا . .

ثم قام الملك بتهديد الفتاة المسكينة وأخبرها بأنها إذا قابلت ابنه مرة ثانية فسوف يأمر بقتلها وقتل أبيها الراعى العجوز . . وانصرف الملك بعد هذا التهديد مصطحباً معه صديقه كاميللو وابنه فلوريزل . . وانخرطت برديتا فى بكاء حزين .

● كان اللورد كاميللو يعلم منذ سنوات طويلة أن ليونتيس ملك سيسلى قد أصبح نادمًا على كل ما بدر منه من أفعال بسبب ظنه الخاطىء فى الشك

فى إخلاص زوجته الملكة هرميون ، وهى الأفعال التى أدت إلى وفاتها ووفاة ابنهما ماميليوس ، وضياع ابنته الرضيعة ، بالإضافة إلى نهاية صداقته مع صديق عمره العزيز بوليكسنس ملك بوهيميا . . ولذلك فقد أصبح اللورد كاميللو يحن إلى الرجوع إلى وطنه فى مملكة سيسلى .

وبالإضافة إلى ذلك فقد طرأت على ذهن اللورد كاميللو فكرة ذكية . . فقد اقترح على كل من فلوريزل وبرديتا أن يذهبا معه إلى سيسلى ، ووعدهما بأن الملك ليونتيس سيقوم بحمايتهما ويبارك زواجهما ، بل وسيقوم بالاتصال بصديقه القديم بوليكسنس لكى يوافق على هذا الزواج .

وهكذا رحل الجميع إلى مملكة سيسلى ، وأخذوا معهم الراعى العجوز الذى أخذ معه مجموعة المجوهرات الخاصة ببرديتا ومجموعة الملابس التى كانت ترتديها حين عثر عليها عندما كانت طفلة رضيعة بالإضافة إلى الورقة التى كانت مثبتة بتلك الملابس .

* * *

وعنـدما وصلوا إلى القصر الملكى فى سيسلى ، استقبلهم الملك ليونتيس بترحاب ومـودة ، وخص الأميـر فلوريزل بكثير من الاحترام والتقدير . . ولكن الملك اندهش بشـدة حين رأى برديتا ، فقـد شعر على الفـور انها شديدة الشـبه بالملكة هـرميون المتوفـاة . . وقـال الملك لو أن ابنتـه الضائعة لو كانت حيـة حتى الآن لأصبحت فى مثـل عمر وجمال هـذه الفتاة الرائعة برديتـا .

وما أن سمع الراعى العجوز هذا الكلام ، بدأ يتذكر ذلك اليوم الذى عثر فيه على برديتا حين كانت طفلة رضيعة ملقاة على الشاطىء .

ولحسن الحظ . . كانت المخلصة بولينا موجودة فى هذا اللقاء وسمعت الراعى العجوز وهو يحكى قصة عثوره على برديتا من أولها إلى آخرها ، وعرض على الجميع الملابس الفخمة التى كانت ترتديها برديتا حين عثر عليها . . وتعرفت بولينا على تلك الملابس فى الحال ، وقالت انها نفس الملابس التى ألبستها الملكة هرميون لابنتها الرضيعة . . ثم قام الراعى بتقديم الجواهر التى كانت تتزين بها الطفلة فتعرفت عليها بولينا فورًا وقالت انها نفس الجواهر التى زينت بها الملكة هرميون طفلتها . . وهكذا لم يعد هناك أى شك فى أن برديتا هى نفسها ابنة الملك ليونتيس . .

وقال الراعى العجوز أيضًا إنه عثر على الطفلة الرضيعة بعد أن تركها انتيجونس على الشاطىء . . كما قال إنه شاهد الدب المفترس وهو يمزق انتيجونس إربًا إربًا . . فحزنت بولينا عندما عرفت هذا المصير التعس لزوجها .

ولكن الفرحة العارمة التى شعر بها الجميع بسبب عودة الإبنة الضائعة لأبيها عقدت لسان الملك بسبب ما كان يشعر به من فرحة ممزوجة بالحزن حين تذكر وفاة الملكة هرميون . . وأخيرًا قال لابنته بصوت متهدج : ليت أمك كانت حية لتشاركنا الفرحة بعودتك وزواجك من الأمير فلوريزل ابن صديقنا الطيب بوليكسنس ملك بوهيميا .

وهنا قالت بولينا للملك ليونتيس إن لديها فى بيتها تمثالا يشبه الملكة هرميون تمامًا . . وإنها تدعو الجميع لمشاهدة هذا التمثال الجميل . وفرحت برديتا كثيرًا لأنها ستشاهد تمثالاً شبيهًا بأمها .

وعندما وصلوا إلى بيت بولينا قامت بإزاحة الستار عن التمثال . . خرت برديتا أمام تمثال أمها معجبة بما كانت تتمتع به أمها من نبل وجمال . . أما الملك ليونتيس فقد وقف مبهورًا أمام تمثال زوجته هرميون . . ولكنه قال لبولينا : إن التمثال يشبهها تمامًا ولكنها تبدو وقد تقدمت فى العمر . .

فقالت بولينا : هذا صحيح يا مولاى . . فإن النحات الذى يقام بصنع هذا التمثال جعل الملكة هرميون تبدو فى السن المفروض أن تكون عليه الآن . . والآن يا مولاى دعنى أسدل الستار على التمثال حتى لا تعتقد يا مولاى أن التمثال حى يتنفس !

فقال الملك على الفور : لا تسدلى الستار يا بولينا . . فإنى أريد أن أقبلها !

وقالت برديتا : لا تسدلى الستار . . انى أريد أن أبقى هنا لأتطلع إلى أمى إلى ما شاء الله .

وهنا قالت بولينا : إن باستطاعتى أن أجعل هذا التمثال يتحرك ويمسك بيدك يا مولاى . . ولكنى أرجو ألا تظن أنى أستعين فى ذلك بقوى شيطانية .


قطب

فقال الملك : أرجو أن تفعلى ذلك فورًا . . وأرجو أن تجعليه يتكلم إذا كان فى استطاعتك .

وعلى الفور أمرت بولينا بعزف قطعة موسيقية هادئة . . فتحرك التمثال وأحاط كتفى الملك بذراعيه . . ثم تكلم التمثال مهنئًا الملك بعثوره على ابنته التى كان قد فقد الأمل فى العثور عليها .

وعندئذ أدرك الجميع ان التمثال هو الملكة هرميون نفسها ، وأنها مازالت حية . وهنا اعترفت بولينا بأنها كذبت على الملك حين أخبرته بموت الملكة هرميون ، لأن هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذ حياتها . . ومنذ ذلك الحين والملكة تعيش سرًا فى بيت بولينا . . إلى أن عثر الملك على ابنته الضائعة برديتا . . فقامت بولينا بتدبير تلك الحيلة الذكية لتلم شمل الأسرة الملكية بعد الفراق طوال تلك السنوات الماضية .

ووسط هذه الفرحة التى شملت جميع الموجودين بهذه النهاية السعيدة، تقدم الملك ليونتيس والملكة هرميون بوافر الشكر للأمير فلوريزل وباركا حبه العميق لابنتهما برديتا بالرغم من انه كان يظن انها من أصل متواضع . . ووافقا طبعًا على تتويج هذا الحب بزواج الحبيبين الأمير والأميرة . . كما قاما أيضًا بتوجيه الشكر للراعى العجوز الذى قام برعاية ابنتهما هذه السنوات الطويلة . . كما شكرا أيضًا كلاً من بولينا واللورد كاميللو اللذين كانا يشعران بمنتهى السعادة نتيجة لوفائهما وإخلاصهما حتى تحققت هذه النهاية السعيدة .

غيـر أن هـذه السعادة لم تكتمل تمـامًا إلا بدخـول بوليكسنس ملك بوهيميا إلى القصـر الملكى فى سيسلى . . وكان السبب فى وصوله المفـاجىء هـو انـه عنـدما علم برحيل اللورد كاميللو مصطحبًا معـه ابنه فلوريزل وحبيبته ابنة الراعى ، تصور أنهم رحلوا جميعًا إلى مملكة سيسلى باعتبارها الملاذ الآمن لهم . .

وانضم الملك بوليكسنس إلى هذا الجمع السعيد ، وشاركهم الفرحة باعلانه انه قد سامح صديقه القديم الملك ليونتيس . . وهكذا عادت الصداقة الحميمة بين الصديقين القديمين . . كما أعلن الملك بوليكسنس موافقته الفورية على زواج ابنه فلوريزل من الأميرة برديتا ابنة صديقه الملك ليونتيس ، والتى ستصبح ملكة سيسلى القادمة باعتبارها الوريثة الشرعية الوحيدة لوالدها .

وهكذا عادت السعادة بعد طول الأحزان .



المؤلفون الذين ورد ذكرهم
فى هذا الكتاب

●● جون ميد فوكنر : JOHN MEADE FALKNER

● كاتب وأديب وشاعر انجليزى ، ولد فى ٨ مايو ١٨٥٨م فى قرية «مانينجفورد بروس - بمقاطعة ويتشاير » بانجلترا . وكان أبوه يعمل قسيسًا بكنيسة القرية ، وكان واسع العلم ولكنه كان غير طموح واكتفى بوظيفته بالكنيسة .

● ومنذ أن بلغ « جون » الخامسة من عمره ، قامت أمه بتلقينه مبادىء وقواعد اللغة اللاتينية . وفى سن السادسة بدأ أبوه بتعليمه مبادىء وقواعد اللغة اليونانية . . وفى فترتى صباه وشبابه فتحت هاتان اللغتان آفاقًا واسعة أمام «جون» الذى أصبح يهوى قراءة الكتب القديمة النادرة واهتم على وجه الخصوص بكتب التاريخ وكتب الأدب .

● وواصل « جون » تعليمه فى عديد من المدارس والكليات الجامعية ، إلى أن تخرج بدرجة متفوقة أهلته لأن يعمل باحدى الشركات الصناعية والتجارية الكبرى وظل يتدرج فى وظيفته إلى أن أصبح مديرًا لتلك الشركة ، كما أصبح من كبار رجال الأعمال بفضل موهبته فى الإدارة وخبرته العالية فى أعمال الشركة . وقد أتاحت له وظيفته أن يتنقل بين العديد من الدول الأوربية ودول أمريكا الجنوبية .

● وفى فترة شبابه أثناء دراسته الجامعية ، كان يهوى ركوب دراجة تجول بها فى المناطق الريفية لدراسة تاريخ الكنائس القروية القد يمة ، فألف كتابًا عن « تاريخ أوكسفورد شاير » . . كما بدأ فى كتابة بعض القصائد الشعرية . .

● وبالرغم من انهماكه فى العمل الإدارى وفى واجباته كرجل أعمال مرموق ، فقد تغلبت عليه هواية الكتابة الأدبية فألف ثلاث روايات هى «آلة الكمان المفقودة» عام ١٨٩٥ ، و « مون فليت » عام ١٨٩٦ ، و « الغمام » عام ١٩٠٣ . . ثم ألف رواية رابعة ولكنه فقد نسختها الأصلية الوحيدة فى القطار الذى كان يركبه يوميًا للذهاب إلى عمله . . وعندما فقد الأمل فى العثور عليها رجاه أصدقاؤه أن يعيد كتابتها مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يقوم بهذا العمل .

● وتعتبر رواية « مون فليت » من أبرز وأشهر أعماله الأدبية . ويقارن بعض نقاد الأدب بينها وبين روايات « روبرت لويس ستيفنسون » من ناحية الحبكة والإثارة .

● ومن الطريف أن نذكر هنا أن « جون » حين التحق بمدرسة القرية فى دورشستر كان مدير هذه المدرسة شخصًا حازمًا يعامل الطلبة بشىء من الحزم والقسوة . . وكان اسم هذا المدير « راتسى ماسكيو » . . وهو الاسم الذى أطلقه « جون » على أحد الشخصيات فى رواية « مون فليت » .

● وقد ساءت صحته « جون ميد فوكنر » فى أواخر أيامه . . ومات فى ٢٢ يوليو ١٩٣٢ .

●● جون شتاينبك : JOHN STEINBECK

● أديب أمريكى ولد فى مدينة ساليناس بولاية كاليفورنيا فى ٢٧ فبراير ١٩٠٢ . . ومات فى مدينة نيويورك فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٨ .

● فاز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٢ ، تقديرًا لأعماله الأدبية التى تعتبر من أروع معالم الأدب الأمريكى فى القرن العشرين .

● كان قد التحق بجامعة ستانفورد بكاليفورنيا من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٢٦ ، ولكنه لم يتمكن من الحصول على الدرجة العلمية الى تؤهله للشهادة الجامعية .

● قبل احترافه الكتابة باشر عدة أعمال للحصول على الدخل الذى يقيم أوده ، فاشتغل عاملاً فى صيدلية ، وخفيرًا ، وجامعًا للمحاصيل الزراعية ، ومساحًا للأرض . . وقد استفاد كثيرًا من مخالطته للطبقة العاملة . . فعرف الكثير من متاعبها ومشاكلها والصعوبات التى تواجهها هذه الطبقة فى حياتها . وقد ظهر هذا التأثر فى العديد من أعماله القصصية والروائية .

● حازت أغلب أعماله الروائية على شهرة عالمية ، وترجمت إلى عديد من

اللغات ، كما انتجت بعض أعماله الأدبية الشهيرة فى أفلام سينمائية ناجحة . وقد بدأت شهرته فى الذيوع والانتشار حين كتب رواية « الكعكة عديمة الطعم » عام ١٩٣٥ ، و « شقة تورتيلا » عام ١٩٣٥ . . ثم رواية « معركة مشكوك فى نتيجتها » عام ١٩٣٦ . . ثم روايته الشهيرة « رجال وفئران » عام ١٩٣٧ . . وقد تحولت هذه الرواية إلى مسرحية درامية ، ثم انتجت بعد ذلك فى فيلم سينمائى شهير . . ورواية « عناقيد الغضب » عام ١٩٣٩ التى انتجت هى الأخرى فى فيلم سينمائى عام ١٩٤٠ .

● فى أثناء الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ ـ ١٩٤٥] عمل كمراسل حربى ، كما كتب العديد من القصص والروايات ذات الصبغة الدعائية ضد النظام النازى ، وأهمها « فى مغيب القمر » عام ١٩٤٢ ، وبعد انتهاء الحرب ، كتب الكثير من الأعمال الروائية ذات الطابع الاجتماعى والانسانى بصفة عامة ، أشهرها رواية « الأتوبيس المتمرد » عام ١٩٤٧ . . ورواية «اللؤلؤة» عام ١٩٤٧ . . ورواية « شرق عدن » عام ١٩٥٢ .

● قام بكتابة السيناريو أو المعالجة السينمائية للكثير من أعماله الأدبية . ومن أشهر الأفلام التى كتبها أخذا عن رواياته « اللؤلؤة » و « شرق عدن » و«القرية المنسية» والفيلم الشهير « فيفا زاباتا » .

●● أنّا سويل : ANNA SEWELL

● ولدت الأديبة الانجليزية « أنّا سويل » عام ١٨٢٠م . . وبدأت علاقتها بالأدب منذ فترتى طفولتها وصباها ، فأخذت تقرأ كل ما كانت تصل إليه من كتب وأعمال أدبية تحفل بها المكتبة الضخمة فى بيتها . . حيث كانت أمها « مارى سويل » أديبة مشهورة كتبت العديد من الأعمال القصصية والروائية الموجهة للأطفال والشباب . . وكانت كتبها تلقى إقبالاً هائلاً من جمهور القراء ، تقديرًا لما كانت تتضمنه هذه الأعمال الأدبية من مثل عليا ومبادىء دينية وأخلاقية .

● وفى سن الشباب ، بعد أن اكتمل نضجها اللغوى والأدبى بدأت «أنّا سويل» ـ متأثرة بأمها ـ فى كتابة بعض القصص والأعمال الأدبية الخاصة بالأطفال .

● ولأنها كانت معاقة ومصابة بعاهة تسبب لها صعوبة فى السير ، فقد كانت تستعمل عربة خفيفة يجرها حصان ، وتقودها بنفسها لقضاء مشاويرها الخاصة ، ولتوصيل والدها إلى مقر عمله كل يوم .

● وفى تلك الفترة الزمنية من القرن التاسع عشر انتشرت فى المجتمع

الانجليزى موضة مؤلمة للخيول . . حيث كانوا يقطعون ذيولها ، ويضعون فى أفواهها « شكيمة » معدنية تسمى « الزمام الكابح » كانت تسبب للخيول آلامًا شديدة . . وفى تلك الفترة أيضًا ظهرت عدة جمعيات للدفاع عن حقوق الحيوان ، وجمعيات أهلية أخرى تنادى بالاصلاح الاجتماعى .

● وقد تأثرت « أنّا سويل » بتلك الأفكار ، فكتبت روايتها الرائعة «الجمال الأسود» عرضت فيها مشكلة سوء معاملة البشر للخيول . وبالرغم من أن تلك الرواية تحكى لنا سيرة ذاتية لأحد الخيول ، إلا أنها حافلة بالمعانى الأخلاقية السامية ، والمشاعر الانسانية الرحيمة .

● ومن الغريب أن تلك الرواية قد جذبت أنظار كتاب سيناريوهات الأفلام السينمائية الروائية والتسجيلية فظهرت فى السينما عدة مرات كان آخرها فيلم ناجح للمخرجة « كارولين طومسون » . وقد ظهر هذا الفيلم فى عام ١٩٩٤م .

● وفى عام ١٨٧٨ م ، توفيت « أنّا سويل » وكان عمرها ٥٨ عامًا .

●● جورج أورويل : GEORGE ORWELL

● جورج أورويل هو اسم الشهرة الذى اتخذه الأديب الإنجليزى «إريك آرثر بلير» الذى ولد عام ١٩٠٣م فى ولاية البنجاب بالهند حيث كان أبوه يعمل موظفًا بسيطًا فى تلك الولاية . . وعادت أسرته إلى بريطانيا عام ١٩١١ حيث التحق بمدرسة إعدادية داخلية ، وتميز بين زملائه من التلاميذ بفقره وبحدة ذكائه .

● وبعد انتهاء دراسته بتلك المدرسة التحق بمدرسة « ايتون » فى الفترة ما بين عامى ١٩١٧ ـ ١٩٢١ . . وكان الأديب الإنجليزى الشهير « إلدوس هكسلى » واحدًا من أساتذته .

● وفى عام ١٩٢٢ ذهب إلى بورما وعمل فى الشرطة الملكية الهندية . . وهناك بدأ يكتب المقالات النقدية والقصص والروايات التى كان يرسلها للنشر فى الصحف والمجلات البريطانية .

● وفى عام ١٩٢٧ عاد لانجلترا وعاش فى الأحياء الفقيرة بلندن بين الفقراء والشحاذين . . وعاش فترة فى حوارى باريس اشتغل فيها بغسل الصحون فى بعض الفنادق والمطاعم الفرنسية .

● وتوالت بعد ذلك إصداراته من الروايات الأدبية التى حققت له بعض الشهرة .

● وذهب إلى اسبانيا كمراسل صحفى ليكتب عن الحرب الأهلية التى نشبت ضـد الشيوعيين الذين كانوا يحاولـون قمع مناهضيهم مـن أعـداء الشيوعية . وبالإضافة إلى عمله الصحفى فقد اشترك فى الحرب الدائرة ضد الشيوعيين وأنصار الديكتاتورية ، وأصيب فى تلك الحـرب بعاهة مستديمة تركت أثـرًا على صوته . وتسببت هـذه التجـربة فى كراهيته للشيوعية والنظم الديكتاتوريـة ، وقـد ظهـرت هذه الكراهية المريرة فى معظم أعماله ورواياته الأدبيـة .

● وتعتبر روايـة « مزرعة الحيوان » من القصص الوهمية الخـرافية ذات المغـزى السياسى ، وتتضمن إسقاطًا وإشارة غير مباشرة إلى الثورة الروسية وتضليلها للفرد وتغريرها بالإنسان تحت حكم ستالين . . واشارة غير مباشرة أخرى إلى النظام الديكتاتورى النازى تحت حكم هتلر . . ولذلك فهى مليئة بالسخرية بالنظم الاستبدادية التى تعمل على إخضاع الفرد للدولة . . وتعتبر هذه الرواية من أهم روايات الهجاء السياسى حين تشير إلى أن الثورة التى تقوم من أجل العدالة الاجتماعية قد تنتهى بالتغيير الوحشى لكل هذه الأفكار الثورية .

● وفى عام ١٩٥٠ مات جورج أورويل فى لندن مريضًا بالسل .

●● عن الأدب والأدباء .. فى مصر القديمة :

● كان هناك اعتقاد راسخ لدى المؤرخين الأجانب بأن الحضارة الإغريقية القديمة هى المنبع الأول للحضارات الراقية ، إلى أن تمكن العالم الفرنسى «جان فرانسوا شامبليون» من فك رموز وأسرار الكتابة الهيروجليفية ، وأصبح من السهل الآن معرفة قراءة كل ما كتبه المصريون القدماء على جدران المعابد والمقابر والأهرام والمصاطب والمسلات واللوحات والنصب التذكارية . . وما دونوه أيضًا على آلاف من أوراق البردى من علوم وفنون وآداب .

● وعندئذ أعاد هؤلاء المؤرخون وعلماء الآثار النظر فى مكانة الحضارة الإغريقية بين كل الحضارات القديمة الحديثة . . وأعلنوا الحقيقة التى أصبحت واضحة كالشمس ، وهى أن مصر القديمة هى « أم الحضارات » جميعًا . . فقد تبين لهم بصفة قاطعة أن المصريين القدماء هم أول من ابتدع التعبير الأدبى ، وأن مصر هى المنبع الأول للأدب والأعمال الأدبية الرفيعة المستوى ، وأن الأدب المصرى القديم أقدم من الأدب الإغريقى بما يزيد على خمسة وعشرين قرنًا .

● وبالرغم من أن الأدب المصرى القديم قد نشأ وترعرع فى أحضان الدين والعقائد الدينية القديمة ، إلا أنه تطور وأصبح يتناول شئون الحياة

اليومية العادية للإنسان . . وتبوأت الأعمال الأدبية مكانة رفيعة فى الفكر والحضارة المصرية القديمة . . وأدرك المصريون القدماء أن الأدب غذاء للأرواح ، وإشباع للنفس الصافية ، وطريقة مثلى للتسامى بالتعبير وعلو معانى الكلام . . وأصبح جمال الأسلوب وطلاوته فخرًا للكاتب المصرى القديم ومحلاً لتقدير ومتعة القراء والمتذوقين .

● وتبين لعلماء المصريات أيضًا أن الأدب المصرى القديم لم يترك موضوعًا للحياة الإنسانية يمكن التعبير عنه أدبيًا ، إلا وكان له فيه انتاج متميز . . فقسموا الأعمال الأدبية المصرية القديمة حسب موضوعاتها إلى أقسام وتصنيفات عدة هى باختصار :

« القصص والروايات والحواديت الشعبية [ويقول بعض النقاد ومؤرخى الأدب الأجانب إن مصر القديمة تعتبر الموطن الأول للقصص القصيرة] . . والحكم والمواعظ والتعاليم الأخلاقية والأمثال وآداب السلوك والتأملات الفلسفية . . والدراسات الأدبية التى تتناول الدعوة إلى الإصلاح السياسى ومعالجة ما تفشى فى المجتمع ـ فى بعض العصور التاريخية ـ من مساوئ ونكبات اجتماعية . . والرسائل الأدبية التى تتناول موضوعات التهانى والوصايا والتمنيات الطيبة والفخر والهجاء [وقد ابتدع الكتاب والأدباء المصريون القدماء فكرة تقسيم الرسالة إلى عنوان ، وصيغة افتتاحية ، وديباجة ، وختام] . . والمساجلات الأدبية التى تقوم على فكرة الحوار والنقاش المتبادل بالأفكار والمواقف المتعارضة . . والمسرحيات والتمثيليات والأشعار الدرامية والدينية التى يمثلونها فى الأعياد تمجيدًا للآلهة أو للملوك

أو للمواقف الإنسانية الرفيعة أو لوصف بعض مظاهر الكون والطبيعة خصوصًا بالنسبة للشمس وللنيل . . والأناشيد الدينية والشعبية وأغانى الحب وأغانى العمال وأغانى الفلاحين وأغانى الولائم والحفلات والأفراح .

● ومع ذلك ، يشير علماء المصريات إلى أن ما وصل إلينا سليمًا من تراث الأدب المصرى القديم يعتبر قليلاً للغاية بالنسبة لما يمكن أن يكون القدماء قد تركوه خلال العصور التاريخية التى استمرت على مدى آلاف السنين بدءًا من عصور ما قبل التاريخ وبداية عصر الأسرات حتى عصر الاسكندر الأكبر . . فقد ضاعت الغالبية العظمى من البرديات التى تتضمن نصوصًا أدبية بفعل عوادى الزمن . . ويأمل الكثيرون من علماء المصريات فى الوصول إلى المزيد من الاكتشافات الأثرية التى مازالت مدفونة فى الأراضى المصرية لتعطينا المزيد من المعلومات عن الأدب المصرى القديم .

● وإذا كانت أقدم النصوص الأدبية المصرية التى تم العثور عليها يرجع تاريخها إلى العصر العتيق وعصر الدولة القديمة [أى منذ عام ٣٢٠٠ ق.م وما بعده] فليس معنى ذلك أن نشأة الأدب المصرى القديم قد بدأت فى ذلك العصر بصفة فجائية ودون أن يكون لها جذور تمتد إلى عصور سابقة . . فمما لا شك فيه أن قدماء المصريين الذين عاشوا فى عصور ما قبل التاريخ كانت لهم أعمال أدبية يتداولونها بالرواية والسماع جيلاً بعد جيل إلى أن ابتدع المصريون تسجيل هذه الأعمال الأدبية بعد أن توصلوا إلى فكرة الكتابة بالحروف والرموز الهيروجليفية .

● أما بالنسبة للأعمال الأدبية التى تركها لنا قدماء المصريين فى مجال الروايات والقصص القصيرة ، فقد قسمها المؤرخون وعلماء المصريات إلى مجموعات تتناول : قصص الآلهة .. وقصص السحر والمعجزات .. وقصص المغامرات .. وقصص الرحلات .. وقام العلماء ومؤرخو الأدب المحدثون بترجمة هذه القصص والروايات إلى الكثير من لغات العالم .. وعرف الناس فى جميع أنحاء الأرض أن الأدب المصر القديم هو أقدم وأجمل الآداب التى تركتها لنا الحضارات القديمة .

●● جى دى موباسان : GUY DE MAUBASSANT

● ١٨٥٠ _ ١٨٩٣ .

● ولد فى أسرة نبيلة فى مقاطعة نورماندى بفرنسا .

● أصيب منذ الصغر بلوثة من الجنون ، ومات مجنونًا تمامًا فى إحدى المصحات وهو فى سن الثالثة والأربعين .

● ألف كثيرًا من الروايات والقصص القصيرة ، ويعتبره النقاد ومؤرخو الأدب من أشهر كتّاب القصة القصيرة فى فرنسا ، فقد كتب أكثر من ٣٠٠ قصة قصيرة تميزت بالأسلوب البسيط والبراعة الشديدة فى اختيار الموضوع . وتعتبر هذه القصص من النماذج الأدبية التى لم يصل إلى مستواها كاتب فرنسى غيره . . ومن أشهر هذه القصص : « العِقْد » . . و « الميراث » . . و « منزل السيدة تلييه » . . و « الآنسة فيفى » . . و « قطعة من الحبل » التى قدمناها فى هذا الكتاب .

● ومن أشهر رواياته المعروفة : « حياة صديق لطيف » ١٨٨٥ . . و«بيير وجان» ١٨٨٨ . . و « قلبنا » ١٨٩٠ .

● ويعتبر « جى دى موباسان » من أكثر الكتاب الفرنسيين الذين ترجمت أعمالهم الأدبية إلى العديد من لغات العالم .

●● أنطون بافلوفتش تشيكوف :

● ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ .

● من أعظم كتاب المسرح والقصص القصيرة فى الأدب الروسى .

● بدأ كتابة قصصه القصيرة حين كان فى السادسة والعشرين من عمره بقصة عنوانها « صلاة الموتى » جذبت أنظار القراء فذاعت شهرته .

● جميع قصصه ومسرحياته كانت تصور الحياة فى روسيا بما كان فيها من أوضاع اجتماعية سيئة .

● من أشهر مسرحياته : « إيفانوف » و « الطائر البحرى » ١٨٩٨ و« الخال فانيا» ١٨٩٩ و « الأخوات الثلاث » ١٩٠١ و « بستان الكرز » ١٩٠٤ .

● ترجمت جميع قصصه ومسرحياته إلى العديد من لغات العالم .

● له أثر عميق فى الأدب العالمى المعاصر .

●● وليم شيكسبير : WILLIAM SHAKESPEARE

● من أعظم الأدباء والشعراء وكتاب المسرح الانجليز . . ولد فى ٢٦ أبريل ١٥٦٤ ببلدة « ستراتفورد أبون آفون » بانجلترا . . ومات بنفس البلدة فى ٢٣ أبريل ١٦١٦ .

● كان أبوه قد نزح إلى تلك البلدة قادمًا من قرية « سنترفيلد » سعيًا وراء الرزق حيث مارس العمل فى الزراعة وعاش حياة بسيطة وفقيرة .

● التحق وليم شيكسبير بالمدرسة الابتدائية بالقرية حيث درس مبادئ اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية ، وهى الدراسة التى مكّنته فيما بعد من التعمق فى قراءة كتب التاريخ والأدب الكلاسيكى .

● ولم يتمكن من مواصلة دراسته بسبب اضطراره إلى العمل لمساعدة والده . وعندما بلغ سن الثامنة عشرة تزوج من فتاة قروية من نفس البلدة ، وهى « آن هاثاواى » التى أنجبت له ابنته سوزانا وتوأمين هما هَامْنِت وجوديث .

● ولأنه كان يهوى التمثيل بالإضافة إلى كتابة الشعر ، فقد انتقل إلى لندن سنة ١٥٨٤ حيث التحق بأشهر الفرق المسرحية ، وكتب بعض

المسرحيات، ونشر أول أعمإله الشعرية « فينوس وأدونيس » عام ١٥٩٣ . وحقق نجاحًا كبيرًا ، واستطاع أن يسدد جميع ديونه ، ويتمتع بفائض يمكنه من الارتفاع بمستوى معيشته .

● بعـد النجاح الذى حققه فى لنـدن ، عـاد إلى بلدته الريفية ستراتفورد أبـون آفـون ، وواصل تأليف القصائد الشعرية [حيث اعتبره نقاد ومؤرخـو الأدب انـه الشاعر القـومى للانجليـز] . . كما واصـل كتـابة المسـرحيات الكوميدية والتاريخية والتراجيدية التى تظهر فيها عبقريته وقـدرته الأدبية الفائقة على تحليـل النفس البشرية والتصرفات والمواقف الإنسانية ، وقدرته المتميـزة على الموازنة بين المواقف الضاحكة والمواقـف المأساوية المحـزنـة فى حيـاة البشـر .

● ترجع أولى المسرحيات التى كتبها إلى فترة التسعينيات من القرن السادس عشر ، بدءًا بالمسرحيات الكوميدية مثل « ترويض الشرسة » التى كتبها سنة ١٥٩٣/ ١٥٩٤ ، والمسرحيات التاريخية التى يتناول فيها حياة بعض الملوك الانجليز مثل مسرحية « هنرى السادس » التى كتبها سنة ١٥٩٢ . . ومسرحية « ريتشارد الثالث » سنة ١٥٩٢/١٥٩٣ . . والمسرحيات التراجيدية مثل « روميو وجولييت » سنة ١٥٩٤/ ١٥٩٥ . وتدل هذه المسرحيات التى كتبها شيكسبير فى بداية حياته الأدبية على تمكنه من القدرة على تطويع اللغة الانجليزية للتعبير بها عن الأحداث والشخصيات فى ضوء المنهج الذى ابتدعه فى التعبير الدرامى .

● أما المسرحيات والأعمال الدرامية التى كتبها شيكسبير فى المرحلة الوسطى من حياته الأدبية فبعضها من الأعمال الكوميدية ، وبعضها الآخر من الأعمال التاريخية التى تناول فيها مواقف أبطاله من الملوك الانجليز والشخصيات الكبرى من غير الانجليز ومن الأحداث التاريخية التى عاصروها . . وأهم هذه المسرحيات « تاجر البندقية » التى كتبها سنة ١٥٩٦/١٥٩٧ . . ومسرحية « ضجيج بلا طحن » سنة ١٥٩٨/١٥٩٩ . . ومسرحية « هنرى الرابع » سنة ١٥٩٨/١٥٩٩ . . ومسرحية « يوليوس قيصر » سنة ١٥٩٩/١٦٠٠ .

● ومع بداية القرن السابع عشر ، كتب شيكسبير أعظم مسرحياته التراجيدية مثل مسرحية « هاملت » التى كتبها سنة ١٦٠٠/١٦٠١ . . ومسرحية « عطيل » سنة ١٦٠٤ / ١٦٠٥ . . ومسرحية « الملك لير » سنة ١٦٠٥/١٦٠٦ . . ومسرحية « ماكبث » سنة ١٦٠٥/١٦٠٦ .

● ومازالت أعمال شيكسبير تحوز إعجاب الناس فى معظم أنحاء العالم، وترجمت إلى عشرات من اللغـات ، مازالت تلقى هـذا القبول والنجاح حتى الآن ، سواء بنشرها ككتب مقـروءة أو بتقديمها على خشبة المسـرح الدرامى والغنائى والراقص [الباليـه] أو باخـراجها فى أفلام سينمائية ذات شـهرة عالميـة .

الفهـــرس